



كتاب
الهُتْلَال

مصر في عيون أبنائها

ثلاثيات ممن الزمات

مذكرات عبد الله الحكيم



مؤلف
عبد الله الحكيم
معاين التاريخ
لأهل التاريخ

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن ((دار الهلال))

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط .

KITAB ALHILAL

العدد ٤٤٥ - جمادى الأولى - يناير ١٩٨٨

No . 445 JANUARY 1988

الاشتراكات

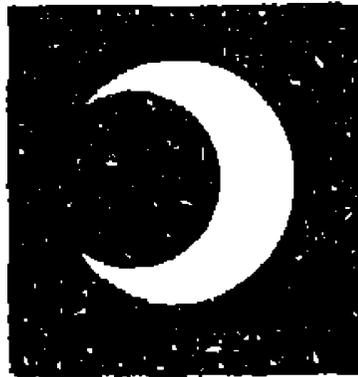
قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددًا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج .

وفى الخارج بشيك

سوم البريد المسجل

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ
اكتتاب الهيسلا



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الغلاف بريشة الفنان
يحمى التسونى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

مصر
في عيون أبنائها

ثلاثاء من الزمان

مذكرات
محمد عبد الله عنان

دار الهلال

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

مقدمة

لقد دفعتنى الى كتابة هذه المذكرات دوافع عديدة ،
منها ما أتاحه لى المولى القدير ، من طول المدى ،
وشهودى خلال ذلك كثيرا من الاحداث التى توالت على
وطننا العزيز ، فى مدى أكثر من نصف قرن ، وما أصاب
هذا الوطن من محن ، غيرت الكثير من أوضاعه التقليدية ،
وقضت على كثير من قيمه المعنوية ، ومثله العالية ،
ومظاهره الشريفة ، التى اقترنت طوال العصور بحياته
الاجتماعية ، وازدان به تاريخه الطويل . ودفعتنى
الى ذلك من جهة أخرى ، ما اقترن بحياتى الشخصية
من أحداث هامة يجدر تسجيلها ، وما توالى على حياتى
العلمية من تطورات ، وزخرت به من دراسات هامة
ونشاط متواصل ، وما خلفته من تراث تاريخى وأدبى
عريض ، كان مبعث اعتزازى طول حياتى . كل ذلك
قد بعث الى شعورا ، بأنه من واجبى ، وأنا أقضى هذه
الايقات الباقية من حياتى ، أن أستعرض ، هذه
الصفحات التى تلقى كثيرا من الضوء على فترة من تاريخ
مصر الحديث ، من خلال حياة رجل شهد ثلاثة أجيال ،
وشهد خلالها ما توالى على حياة وطنه ومواطنيه من
الاحداث ، والتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية
والفكرية .

وأود أن أنوه قبل كل شىء بأن كل ما يصدر منى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

خلال هذه المذكرات من آراء وتعليقات ، انما يصدر منى أولا كمصرى ، لم تكن طوال حياته أى ميول أو أهواء سياسية خاصة ، ولم يتصل مطلقا بأى حزب أو أية طائفة سياسية ، وقد عاش طول حياته مصريا فقط ، ينظر الى سائر الأحداث والتقلبات بنظرته المصرية ليس غير . وثانيا كـمؤرخ ، ينظر الى الحوادث ، ويحللها بمعياره وقوانينه التاريخية ، وأنه بالرغم من اشتغاله بالصحافة فترة من الزمن لم يشأ أن يغمس قلمه قط فى غمر المسائل السياسية الحزبية ، وأنه حرص طول حياته على الابتعاد عن أى مؤثرات أو اتجاهات خاصة ، ولبث يحمل قلمه حرا ، منزها عن مثل هذه المؤثرات والاتجاهات ، وهو ما كان دائما ، وما يزال موضع فخره واعتزازه . وبهذا القلم الحر النزىه ، يحاول أن يسجل اليوم ، هذه الصفحات من حياته ، ويستعرض ما شهدته خلالها من الأحداث القوية والصور الاجتماعية .

كما أنى لن أقف طويلا عند مراحل حياتى العادية ، ولن أسجل منها الا ما يستحق التنويه ، أو ما يكون ذا طابع خاص ، أو له تأثير خاص فى مجرى هذه الحياة ، ومن حسن الطالع أن ما تنصب عليه هذه الصفة من أحداث حياتى ، قد قيد معظمه فى مفكراتى الخاصة ، التى اعتدت طول حياتى ، أن أقيد بها هذه الأحداث فى أيام وقوعها ، سنة بعد أخرى ، معززا ذلك بما رسخ فى ذهنى من ذكريات هذه الأحداث ، التى أذكر الكثير منها ، وما زالت تتمثل كـمـسـا تخيلتها أمام عينى بسائر تفاصيلها وآثارها . ولقد كانت « الذاكرة » فى الواقع لى ذخيرا كبيرا فى تذكر

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

واستقصاء الكثير من الاحداث والوقائع الشخصية ، منذ طفولتى ودراساتى المدرسية ، ثم من بعدها خلال مراحل حياتى الطويلة ، وقد كانت تسعبنى بأدق التفاصيل عن وقائع وأشياء لا حصر لها .

وقد مرت مصرنا ، منذ الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) التى شهدناها أحداثا ، حتى اليوم بسلسلة طويلة من الاحداث التاريخية الحاسمة ، الثورات الوطنية الكبرى فى سنة ١٩١٩ ، ثم ما ترتب عليها بعد ذلك من استخلاص حريات مصر واستقلالها ، على مراحل متعاقبة . ثم الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وأحداثها وتطوراتها المثيرة ، ونتائجها السلبية بالنسبة لمصر . وأخيرا ما وقع بمصر من انقلابات وأحداث عسكرية واجتماعية خطيرة ، ألفت بها أولا الى المغامرة العسكرية الكبرى ، التى أوقعت بها أعظم نكبة عرفتها فى تاريخها الحديث ، وأضاعت مساحات شاسعة من أراضيها التاريخية ، ثم الى مغامرات عسكرية أخرى ، هلك فيها عشرات الالوف من أبنائها ، كما غيرت هذه الانقلابات أوضاعها التقليدية الراسخة ، وأخلت بموازينها الاجتماعية ، ودفعت بها الى حضيض العوز والفاقة ، وهزت تراثها العلمى والثقافى العريق ، وأوقعت بها سلسلة من الازمات الاجتماعية والاقتصادية ، التى حطمت أعصاب شعبها ، وقد كانت هذه الكوارث المتوالية فى مجموعها أعظم محنة قومية نزلت بمصر منذ عصور طويلة ، وسوف نتناول ذلك كله بالعرض والتعليق الشافى فى مكانه المناسب ، والله ولى التوفيق .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

هذا ، وقد رأيت أن أستعير لهذه المذكرات عنوانا على نسق العننوان الذي سبقني اليه صديقي الأجل المرحوم أحمد شفيق باشا ، حيث أسمى مذكراته « مذكراتي في نصف قرن » وأنا أسمى هذه المذكرات « مذكراتي في ثلثي قرن » وهو المدى الزمني الذي تشغله حوادث هذه المذكرات .

القسم الأول

انى أفتح هذه الصفحات التى أروى فيها قصة حياتى ، بحمد الله العلى القدير ، الذى من على بطول حياتى ، وانفساح أجلى ، ومشاهداتى لاحداث أجيال متعاقبة ، وأعانتى على تحصيل العلم الفزير ، وعلى خدمة الاسلام وتاريخه ، فى مؤلفات عديدة تألفت بها حياتى العلمية ، وألقت أضواء عديدة على صفحات خالدة من تاريخ الاسلام وحضارته العظيمة .

وانى أكتب هذه الصفحات من حياتى ، وقد جاوزت الثمانين ، وقد ملأت هذه الحياة ، كما سيرى القارىء بالحركة المستمرة والعمل الدائب ، والرحلات المتوالية فى مشارق الارض ومفاربها ، أنا للسباحة وغالبا للدراسة ، ووقفت على الكثير من الخواص الحضارية لمختلف الشعوب الاوربية ، واتصلت بكثير من الدوائر والهيئات العلمية العالية ، وتمتعت بالتجوال فى سائر جنبات أوربا الجميلة ، من السهل والجبل والمصايف الساحرة ، والمنتديات الاجتماعية الانيقة ، والحفلات المسرحية والفنائية ، والموسيقية العالية الشائقة ، فى أشهر أوبرات القارة ، وتحدثت الى كثير من أبناء هذه الشعوب بلغاتها القومية ، وأنا أتحدث

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بحمد الله خمسا من اللغات الاوربية .
أكتب هذه الصفحات ، وهى خاتمة ما يخطه قلمي ،
الذى خط الكثير خلال هذه الحياة الطويلة الحافلة
وأنا على استعداد فى كل لحظة الى لقاء ربي ، قرير
العين ، مفتبط النفس ، بما قدمته فى حياتى ، الى
وطنى العزيز مصر ، وإلى أمتى العربية العظيمة ،
من ثمار تفكيرى وبحوثى ، راجيا أن تكون للخلف خير
ذخر ، ولكاتبها خير ذكرى .

وأبدأ فأقول انى أنتمى الى أسرة مصرية قديمة عريقة ،
تمثل فى تاريخ مصر الاسلامية ، خلال قرون عديدة ،
هى الاسرة العنانية . وقد نبغ منها خلال القرون عدد
من العلماء ، يحضر ذاكرتى ، وأنا اكتب هذه السطور
منهم ثلاثة علماء ، اولهم سيدى محمد بن عنان ،
وثانيهما أخوه عبد القادر بن عنان ، وهما من اكابر
أقطاب الصوفية ، وقد ذكرهما الامام عبد الوهاب
الشعرانى فى كتابه : « لواقح الانوار فى طبقات الاخيار » ،
وكتب لاولهما ترجمة طويلة يفتتحها بقوله : « كان
رضى الله عنه من الزهاد العباد ، وما رأيت فى
عصرنا مثله . وكان مشايخ العصر اذا حضروا عنده ،
صاروا كالاطفال وكان يضرب به المثل فى قيام الليل ،
وفى العفة والصيانة ، وكانت له كرامات عظيمة . توفى
عن مائة وعشرين سنة فى ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ودفن
بجامع القسم بباب البحر ، وصلى عليه الائمة والسلطان
طومان باى ، وكان يوما مشهودا » .

ويقول عن الثانى « انه أخو الشيخ محمد رضى الله عنه ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

صحبتة نحو سبع سنين على وجه الخدمة ، وكان يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، وكان رضى الله عنه يغلب عليه الصفاء والاسستغراق ، مات سنة ٩٢٠ هـ (١٥٩٤ م) ، ودفن ببرهمتوش ببلاد الشرقية وقبره بها يزار .

وأما الثالث ، فهو العلامة شمس الدين العنانى . وقد ذكره الجيرتى فى تاريخه ، فى وفيات سنة ١٠٩٨ هـ ، فقال : « الشيخ الامام شمس الدين محمد بن داود بن سليمان العنانى ، نزيل الجنبلاطية ، أخذ عن على الحلبي صاحب السيرة ، والشهاب الفزى ، والشمس البابلى ، والشهاب الخفاجى ، والبرهان اللقانى وغيرهم ، وحدث عنه حسن بن على البرهانى ، والخليفى والبسديرى ، وغيرهم ، توفى سنة ثمان وتسعين وألف (١٦٨٦ م) .

مولدى ونشأتى الاولى

كان مولدى ببلدة بشلا مركز ميت غمر دقهلية فى السابع من يوليو سنة ١٨٩٦ (١٣١٤ هـ) ، وفقاً لما هو مقيد بالدفاتر ، التى كان يحسبها يومئذ عامل التليفون . وفى سنة ١٨٩٨ ، وفقاً لشرح المرحومة والدتى ، وذلك أن مولدى كان موافقاً لحادث مرور أول قطار بقريننا من قطارات شركة الدلتا ، وقد كان ذلك فى صيف سنة ١٨٩٨ . هذا ربما كان رقم القيد بدفتر الميلاد ، وهو رقم ٨ ، قد كتب بصورة محرفة ، فقرات ٦ . وقد ولدت فى أسرة متوسطة الحال ، ولكن تمت حسبما تقدم الى أصل عريق . وكان والدى رحمه الله ، رجلاً ذكياً ، ومسنئعلما وفق موازين العصر ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

حيث تلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة نظامية ، خلافا لآخوته الذين ذهبوا كلهم الى الازهر الشريف . وكان يحسن القراءة والكتابة ، ويعرف طرفا بسيطا من اللغة الفرنسية .

وكانت أمى هى ابنة عمه أبى ، وقد ولدا ، حسبما علمت من مؤرخ الاسرة عمى المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب العنانى ، معا فى سنة ١٨٧٤ ، وفقا لتعريفه « السنة التى ولد فيها الخديو عباس الثانى » (أقول وكذلك مصطفى كامل) . وكانت والدتى أمية لم تتعلم قراءة ولا كتابة ، حيث عاشت فى عصر لم تجر فيه العادة بتعلم البنات ، الا فى الاسر الارستقراطية العالية ، ولكنها كانت سيدة وافرة الفهم والذكاء . توفيت أمها وهى فى المهد ، فنشأت يتيمة ، وورثت منها ثمانية عشر فدانا ، أضع معظمها الوصى عليها ، فلم يبق لها منها سوى ثلاثة أو أربعة أقدنة ، هى التى كانت فيما بعد ذخرا للانفاق على تعليمى العالى ، حسبما سيأتى .

وحيثما بلغت الثالثة من عمري أدخلت كتاب القرية ، فمكثت به نحو عام . ثم نرح والداى الى القاهرة نحو سنة ١٩٠١ ، ونزلا بمسكن متواضع بحارة قصر الشوق ، قرب المشهد الحسينى . ثم انتقلا بعد قليل الى منزل صغير بحى بركة الفيل ، فى مجموعة متماثلة من المنازل تسمى عمارة حسن طاهر باشا ، ومكثنا به نحو عامين . ثم انتقلنا الى شقة بحارة الجنبكية بحى المربلين . وكنت فى كل نقلة أدخل كتابا جديدا ، أحفظ فيه سورا صغيرة من الكتاب العزيز ، وأتلم الخط وشيئا من الحساب . ثم انتقلنا بعد ذلك الى شقة كبيرة جميلة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بحارة النبة بدرب الجماميز ، وكان والدى قد التحق بعمل كتابى فى احدى دوائر الباشوات التى كانت يومئذ كثيرة بالقاهرة . وكان يستعين بهذا العمل على الحياة المتواضعة التى كنا نحياها ، الى ما كان يحصل عليه من ايجار اطيحان والدى القليلة . وكان مستوى العيش رخيصا جدا ، تكفى فيه بضعة جنيهات قليلة لاسرتنا الصغيرة . وكان والدى قد خلع الملابس البلدية ، التى كان يرتديها فى القرية ، وهى الجبة والطربوش ، وارتدى الملابس الافرنجية ، والتحق بذلك بطبقة الافندية . ثم ثابت له فرصة فى تجارة بعض الاراضى الصحراوية التى كان يشتريها من الدائرة ، وكانت تقع بضاحية عين شمس ، وكانت يومئذ رخيصة جدا ، لا يتجاوز ثمن المتر منها قروشا ضئيلة ، فحالفه الحظ ، وبدأ يكتسب منها مبالغ مجزية ، واخذت حياتنا تميل الى شىء من الترف ، وكنت قد بلغت يومئذ نحو الثامنة من عمري ، فادخلت مدرسة اولية من مدارس الاوقاف تسمى مدرسة « اغادار السعادة » تقع بشارع درب الجماميز قريبا من السيدة زينب ، وقد كانت ما تزال قائمة الى عهد قريب بعد انتقالها الى الحارة الموازية الى شارع راتب . وفى هذه المدرسة ، تفتحت مواهبى الدراسية ، وحفظت جانبا من القرآن الكريم ، وتقدمت فى الخط والحساب تقدا كبيرا .

واود ان اقول هنا ، انى اشعر شعورا قويا بانى اكتسبت بالتعليم فى الكتاب وفى المدرسة الاولية ، حصيلة طيبة من الخط واللغة ، وانى اكتسبت من حفظ بعض سور القرآن ، حصيلة طيبة من النطق العربى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

السليم ، والتمكن من القراءة الجيدة ، والاملاء الصحيحة ، وذلك على مستوى يندر أن يصل اليه تلاميذ المدارس الابتدائية في سنى دراستهم الاولى ، وكان ذلك من عوامل تفوقى فى دراستى الابتدائية فى اللغة العربية باستمرار .

وكنت يومئذ أمارس القراءة فى بعض القصص المستخرجة من كتاب ألف ليلة وليلة ، مثل قصة عجيب وغريب ، وقمر الزمان ، والسندباد البحرى وغيرها ، وكانت تطبع على حدة فى كتيبات يبلغ ثمن الواحد منها بضعة مليمات أو نصف قرش ، فزادتنى هذه القراءات قوة فى اللغة حتى انى كنت أجراً أحيانا على القراءة فى مقامات الحريرى ، وأتفنى بما يعجبنى فيها من الاشعار وكانت لدى والدى نسخة منها ، مما ورثه من المرحوم والده من الكتب ، كما كنت أحاول أحيانا القراءة فى بعض فصول مقدمة ابن خلدون فى نسخة بولاق الموروثة كذلك من الجد ، وبالرغم من أنى لم أكن أفهم الكثير يومئذ مما أقرأه فى هذين المرجعين العالين وأمثالهما مما كنت أقع عليه من كتب الوالد ، فأننى كنت أستبقى فى ذهنى كثيرا من الكلمات والعبارات .

الدراسة الابتدائية

وتلقيت دراستى الابتدائية بمدرسة العقادين الاميرية الواقعة على مقربة من باب زويلة فى شارع الفورية على رأس حارة الروم ، وكانت لها واجهة سبيل أثرية ضخمة ، ما يزال يزدان به مبناها حتى اليوم . وقد علمت فيما بعد خلال دراستى التاريخية أن حارة الروم هذه كانت إحدى أحياء العساكر الفاطمية الذين ينتمون

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الى أصل رومى ، وتليها بعد ذلك فى نفس الشارع ،
حارة الجودرية ، وهى أيضا حتى آخر من الاحياء
الفاطمية ، كانت تضم العسكر الذين ينتمون الى جودر ،
أحد أولياء الدولة الفاطمية . وكانت أسرتى حينما أدخلت
الى هذه المدرسة قد انتقلت الى شقة جميلة كبيرة مستقلة
بسرائى حافظ باشا بدرب الافوات . وكانت شقة أثرية
بها نافورة رخامية جميلة . وقد خصصنا بها غرفة كبيرة
وثرية للضيوف الذين كانوا يقصدون زيارتنا من الاقارب
أو غيرهم من أهل القرية ، اذ لم تكن الفنادق ، قد انتشرت
يومئذ ، ولم يجز العرف بأن يقصدها من لهم اقارب فى
العاصمة ، ولا سيما السيدات . وكان لنا يومئذ خادم .

ولبثت أربعة أعوام بمدرسة العقادين هى أعوام الدراسة
الرسمية ، انتقلنا خلالها الى عدة منازل أخرى ، وكنت
أفوز بالنجاح فى كل سنة والانتقال من سنة دراسية الى
الى أخرى . وظهر من ذلك الحين عشقى لعلم الجغرافية
والبراعة فى رسم الخرائط الجغرافية ، وكذلك عشقى
لعلم التاريخ . وأتممت دراستى الابتدائية ، وفزت بنيل
الشهادة الابتدائية فى صيف سنة ١٩١٠ .

وكنت خلال دراستى فى مدرسة العقادين ، وخلال
مرورى المستمر فى الطريق الرئيسى لمدينة القاهرة
المعزية ، أتأمل الآثار الفاطمية والسلطانية باعجاب ،
وأتردد على الجامع الأزهر ، حيث كان أصغر أعمامى
المرحوم الشيخ على العنانى ، ما يزال مجاورا به . وكنت
أزوره فى منزله بالباطنية على مقربة من الجامع أو بالجامع
نفسه ، كلما تيسر لى ذلك وكنا فى غالب الامر نتناول طعام
الغداء معا فى صحن الجامع خصوصا أيام الشتاء ، حيث

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

كانت الشمس تفر صحن الجامع الشهر ، ويستمتع المجاورون (الطلاب) بالجلوس في الشمس أو الاستلقاء فيها ، أو يحضرون الحلقات المعقودة بها . وكان طعامنا على الاغلب من الطعمية والباذنجان المقلى والسلطة يبعثني عمى لشرائها من محل ابي ظريفة الشهر . وقد كان يقع يومئذ في حارة الباطنية مقابل الجامع من الناحية القبليّة ، وكنا نشترى عشر قطع صغيرة من الطعمية بنصف قرش ، والباذنجان بنحو ذلك ، والسلطة بمليمين . واما الخبز فكان لدى عمى دائما ، لانه كان يتقاضى من الجامع جراية يومية . وكان رغيّف الخبز من الجراية أو من غيرها يباع بربع قرش . وكان عمى يتحفنى دائما عقب الطعام بقدر من العجوة الشرقية ، والبول السوداني يستخرجهما من خزائنه الخشبية التي كانت مثبتة في حائط الصحن ضمن مئآت الخزائن الخاصة بالمجاورين ، الى يسار المزولة ، وقد نزعته منه اليوم بعد أن اختتم الجامع الشهر حياته العلمية المجيدة وانتهى عهد المجاورين والمشيخة الاجلاء . وكانت هذه الزيارات تزيدني حبا في الجامع الشهر واعجابا به وبمناظره التقليدية ، ولا سيما حلقاته العلمية المختلفة التي كانت تعقد بين اعمدته ، وقد اصبحت اليوم اثرا من آثاره .

- ١ -

جنازة مصطفى كامل

في ذلك اليوم - يوم الثلاثاء ١١ فبراير ١٩٠٨ - كنت عائدا كالعادة عصرا من مدرستي - مدرسة العقاديين الاميرية - وكنت سائرا الى منزلي الكائن بآخر شارع السيوفية ، مخترقا باب زويلة (بوابة المتولى) فشارع الخيمية ، فشارع المغربلين ، وعند آخر المغربلين ، وجدت شارع محمد على مسدودا بجموع بشرية هائلة ، ولا سبيل الى اختراقه من أية جهة من جهاته ، والصمت العميق مخيم على الجموع الكثيفة المتراسة على جانبيه . وفي الشارع يسير موكب طويل لا نهاية له ، في صمت مطبق ، ولاحظت أن الدموع تنهمر من أعين الكثير من الوقوف ، ومن كثير ممن يسرون في الموكب ، وعندئذ سألت الناس من حولى ، فأجابونى أن هذه جنازة مصطفى كامل باشا ، أجل كانت هذه جنازة الزعيم الوطنى الشاب ، جنازة جليلة وهيبة . وقد احتشد فى مقدمتها طلبة المدارس الاميرية ، الابتدائية والثانوية والعليا ، ومن ورائهم عساكر البوليس ، وباقى المشيعين وكانت كل مدرسة تحمل علما مجللا بالسواد . وكانت عربات الحنتور التى تسير خلف الجموع السائرة ، تسير

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

في تكديس وبطيء ، وقد وضع السائقون عصابات سوداء حول رءوس الخيل ، ووضعوا الخرق السوداء على طرابيشهم ، ومنهم من كان يبكي وترتفع زفراته ، وهو يسوق الخيل هونا ، وكان الموكب من خلف الشمس ، ثم العربات من ورائه ، يمتد حسبما يقول الجمهور حتى العتبة الخضراء . واستمر مسير الموكب بطيئا قرابة ساعتين ، وأنا واقف في مكاني ، مشدوه ، حزين مطرق ، كباقي الناس ، حتى انتهى نحو الغروب ، وعندئذ عبرت شارع محمد علي الى منزلنا ، وأنا مطرق مفكر ، حتى وصلت الى الدار ، وكانت في عطفة صغيرة قبل سبيل ام عباس . وعندئذ سألتني امي عن سبب تأخري ، فرويت لها ما رايت وأنا حزين مدهوش . وكان ذلك اول حادث وطني عظيم شهدته في صباي ، وكنت يومئذ في نحو الحادية عشرة من عمري . ومازلت الى اليوم اذكر منظر الموكب الهائل الحزين ، كما اذكر ما قرأته بعد ذلك في شبابي عند قول المرحوم قاسم أمين في كتابه « تحرير المرأة » ، ان قلب مصر قد اهتز مرتين الى الاعماق ، الاولى عندما نفذ حكم دنشواي . والثانية عندما شيعت مصر زعيمها مصطفى كامل الى قبره . ثم يقول قاسم أمين : « لقد ظهر هذا الشعور ساطعا في جماله ، وانفجر بفرقة هائلة ، ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر . هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث ، الذي خرج من أحشاء الأمة وأعصابها ، هو الأمل الذي يتسسم في وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذي يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة . هو المستقبل . »

وفاة جدى

المرحوم السيد عبد المطلب عرفه العنانى

وانى لاذكر من حوادث طفولتى حادثا انطبع فى مخيلتى انطبعا عميقا ، ولم انس تفاصيله حتى اليوم ، وهو وفاة جدى المرحوم السيد عبد المطلب عرفه العنانى . ومازلت اذكر شخص هذا الجد الوقور ، وقد كان أسمر ممشوق القوام ، ملتحميا ، أنيق الملبس . وكنت اعرفه مذ كنت فى نحو الرابعة من عمري . وكان يأتى الى القاهرة كل صيف بعد انتهاء موسم الحصاد ، وينزل فى شقة فى شارع خان الخليلى ، ويحضر كل يوم بعض حلقات الجامع الازهر ، وقد زرته مع والدى مرارا فى هذا المقام ، وقد كان يأتى بعد ذلك لزيارتنا كلما حضر الى القاهرة بشقتنا الرخامية الفخمة بسراى حافظ باشا بدرب الاغوات . وكان ذلك حسبما اذكر فى سنتى ١٩٠٥ و ١٩٠٦ . وفى صيف سنة ١٩٠٨ مرض مرضا خطيرا ، ولزم مندرة الضيوف الكبيرة ، عند مدخل منزله الكبير بقرية الفؤادية (شقيلبان سابقا) بجوار بلدة بردين ، وهى التى هاجر اليها من كفر عرفه العنانى مسقط رأسه بجوار شنبارة الميمونة مركز ميت غمر . وقد التف حوله منذ مرضه ، اولاده وبناته وفى مقدمتهم والدى ووالدى ، وهو خالها أخو أمها . وهرع الى زيارته رهط كبير من الاقارب والاصهار والمحبين . وكنت كل يوم اذهب الى رؤيته وتقيل يده . وكان يولبنى عطفًا خاصا ، لانى كنت الوحيد من أحفاده الذى يتعلم فى مدرسة أميرية .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وأذكر أنه قال لى ذات يوم حينما قبلت يده : ما معناه :
« يا محمد اذا شفانى الله ، فسوف أقوم بتعليمك على
نفقتى حتى نهايته » . ولكنه كان مرض الموت . فتوفى
بعد أيام قلائل . وقد تبين بعد أنه كان مصابا بالتيفود ،
وكان يحمل له الثلج يوميا من الزقازيق ليوضع حول
رأسه . وعملت له ليالى المأتم الثلاث فى سرادق هائل ،
كان ينصب الى جوار حديقته المجاورة لمنزله .

- ٣ -

مقتل ناظر النظار

بـطرس باشا غالى

فى يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ ، وقع مقتل ناظر
النظار (رئيس الوزراء) بطرس باشا غالى . أطلق عليه
الرصاص حين نزوله من وزارة العدل (الحقانية) شاب
من شباب الحسب الوطنى يدعى ابراهيم ناصف
الوردانى ، وهو من الشباب الذين تعلموا فى الخارج ،
وكان يدرس الصيدلة فى سويسرا . وكان للحادث دوى
عظيم ، وقد اعترف القاتل بجرمه ، وقرر أن الدافع له
على ارتكابه ، هو ماعمد اليه رئيس الوزراء من تصرفات
ضد مصالح الوطن ، مثل توقيعه لاتفاقية السودان سنة
١٩٠٩ ، ورياسته للمحكمة المخصوصة فى حادثة دنشواى ،
ثم سعيه فى انقاذ مشروع مد امتياز قناة السويس .
وشغلت الناس بضعة أشهر بمتابعة التحقيق فى هذه
القضية الخطيرة ، وقبض على عدد من شباب الحزب
الوطنى باعتبارهم شركاء للوردانى ، وترافع عن المتهمين

- ٢٢ -

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

أقطاب محامى هذا العصر ، مثل أحمد بك لطفى ،
وابراهيم بك الهلباوى ، ومحمد على علوية وغيرهم .
وأصدر قاضى الاحالة قراره باحالة الوردانى وحده الى
محكمة الجنايات والافراج عن باقى المتهمين . وانتهت
المحاكمة بأن أصدرت محكمة الجنايات حكمها بإعدام
الوردانى ، وذلك فى يوم ١٨ مايو سنة ١٩١٠ ، فكان
لذلك أثر بالغ فى نفوس الجماهير . وكان مصير هذا
الشاب المنكود يثير الاشفاق والاسى فى نفوس الالوف
المؤلفة من الناس . وكان العامة يؤلفون فى اقدمه وفى
عمله مختلف المواويل الشعبية . ومازلت اذكر منها الى
اليوم « ياميت صباح الخير الوردانى ، . . الخ » وكنت
يومئذ تلميذا بالسنة الرابعة الابتدائية ، أستعد لامتحان
الشهادة الابتدائية . وكان المرحوم والدى يتابع تطورات
الحادث فى الصحف ، ويقص علينا خلاصة مايقراه ،
وكانت قلوب الشباب الفتية تذوب عطفاً على الوردانى ،
وعلى شبابه ، وتبالغ فى تقدير اقدمه وعمله «الوطنى» .

ومع أنه كان واضحاً أن الوردانى قد ارتكب جريمة
سياسية ، دفعته اليها بواعث وطنية واضحة ، فقد
كان من شديد الاسف أن اعتبر فريق من اخواننا
الاقباط ، أنها ترجع الى بواعث دينية . وقد كان لهذا
الاعتبار أسوأ الاثر فى توتر العلاقات بين شطرى الامة ،
الاقباط والمسلمين . وكانت مقدمة لتلك الازمة القومية
الخطيرة ، التى تفاقمت تباعاً بين الطائفتين ، حتى
انتهت الى الحقد والعداوة ، واتجاه بعض عناصر
الطائفة القبطية الى الاستنصار بالانجليز ، وبعثوا الى
انجلترا بمبعوثهم قرياقص ميخائيل لكى يعمل على اثاره

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الرأى العام الانجليزى ضد المسلمين المصريين ، واستمرت تلك الازمة القومية الخطيرة فى تبادل الخصومات والحملات بين الطائفتين بضعة أعوام ، حتى أذن الله بانتهائها حينما شبت نار الثورة الوطنية الكبرى فى سنة ١٩١٩ ، فعاد الوثام الى شطرى الامة ، واندمجا معا فى اخاء الاشقاء خلال حوادث الثورة ، ولعب كل منها دوره الوطنى المجيد فى أحداثها وتطوراتها .

الدراسة الثانوية

ووفقت الى الانتظام فى الدراسة الثانوية بالمدرسة الخديوية العريقة ، التى تخرج منها العديد من رجال مصر الاعلام . فالتحقت بها فى أكتوبر سنة ١٩١٠ . وكانت دراسة موفقة مزدهرة . وكان ناظرنا الانجليزى المستر فرنس ، من خيرة رجال التعليم والتربية ، والاخلاق الرضية العذبة ، والحلم الوافر فى معاملة الطلبة . ومازلت اذكر شكله الوسيم ، بقوامه المعتدل المشوق ، وشاربه الطويل الاحمر . وكان يسكن بأسرته فى المنزل الصغير الواقع فى شرق ملعب الكرة المجاور للمدرسة . وقد توفى ، وهو يقضى بقية حياته ، بعد احواله الى المعاش ، فى بلده بإنجلترا فى سنة ١٩٤٢ ، خلال الحرب العالمية الثانية ، وقدمت تعزيتى يومئذ فى وفاته الى أخيه الاستاذ فرنس ، الذى كان يومئذ مديرا للرقابة العسكرية بوزارة الداخلية .

ولم يكن بالقاهرة يومئذ من مدارس البنين الثانوية الرسمية ، سوى ثلاث ، هى الخديوية ، والسعيدية ، والتوفيقية . وكانت الخديوية مجمع الطلاب من أبناء الاسر المتوسطة ، ولاسيما الاسر الزيفية . والسعيدية

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

مجمع الطلاب من أبناء الاعيان والذوات . والتوفيقية
بالاخص مجمعا لاغلبية الطلاب من اخواننا الاقباط ، الى
جانب زملائهم المسلمين . وكان ذلك يرجع بالاخص الى
عوامل جغرافية .

وكان التعليم الثانوى فى مصر يومئذ ، تتولاها الى جانب
النظار الانجليز ، طائفة من المعلمين الانجليز ، يتولون
تدريس اللغة الانجليزية ، والتاريخ والجغرافيا ،
والكيمياء ، والطبيعة ، والرياضة أحيانا باللغة الانجليزية .
وكان لذلك الوضع الذى كان ينتقده البعض يومئذ ،
ويراه عدوانا على اللغة العربية ، ونوعا من الاحتكار
الانجليزى للتراث الثقافى المصرى ، أكبر اثر فى تمكين
الطلاب من دراسة اللغة الانجليزية واتقانها ، بما لم
يتمتع به بعد ذلك أى جيل من الطلاب المصريين . وأنا
أشهد أننا حققنا من الدراسة باللغة الانجليزية ، ثروة
لفوية عظيمة ، ولم نشعر مطلقا أن تعليم العربية قد
أوذى بأى نوع من أنواع الأيذاء ، أو ناله ضعف أو
تقصير ، بل كنا بالعكس طلابا أقوياء فى اللغة العربية ،
كما كنا أقوياء فى اللغة الانجليزية .

وكانت تقوم على رأس المدارس العليا ، الى جانب
مدارس الحقوق والتجارة والهندسة العليا ، مدرسة
المعلمين العليا **Training college** - التى أنشأها
الانجليز ، وتولوا التدريس فيها ، على يد نخبة مختارة
من الاساتذة والمربين البارعين الانجليز . وقد تخرج فى
هذا المعهد التربوى الزاهر ، جيل من أعظم ماشهدت
مصر من أقطاب الاساتذة والمربين ، الذين نهضوا بأعباء
التعليم فى مصر ، طوال النصف الاول من القرن العشرين .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ونستطيع أن نذكر عشرات ، بل ومئات من خريجي هذا المعهد الجليل ، الذين شرفوا بنبوغهم وجهودهم التربوية جيلهم ، وحملوا على أكتافهم أعباء التعليم الاصيل عصرا ، وتخرج على أيديهم أجيال ذات مستوى عال من الثقافة والاخلاق ، وهما عنصران يكاد يخلو منهما جيلنا الحالي . وقد كان من نكد الدنيا أن يلقى هذا المعهد الجليل ، لبواعث تتصل بالميل والاتجاهات السياسية . ولكونه من آثار الانجليز ، وازدهر في عهد الاساتذة الانجليز ، ثم تعجز الحكومة أن تقيم له مثيلا ، يضارعه أو يقاربه أصالة وكفاية . ومن ثم فاننا لا نجد أمامنا في العصر الاخير سوى أجيال ضعيفة من المعلمين ، لا تمتاز بأى نبوغ أو لمعان ، بل ولا اخلاق متينة . وانه من الاسف أن تغلب الاهواء السياسية في مجالات يجب أن تكون بعيدة عنها .

ونعود الى الدراسة الثانوية ، فنقول اننا قد درسنا في هذا الجو الذي تغلب فيه الانجليزية الادب الانجليزي دراسة حسنة ، وعرفنا شكسبير ، وحفظنا بعض مسرحياته ضمن برنامج الدراسة ، ودرسنا النثر الانجليزي في بعض الكتب الجلييلة ، مثل كتاب «اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية» *The Decline and Fall of the Roman Empire* لادوارد جيبون ، حيث حفظنا منه جزءا صغيرا عن عصر الامبراطرة الانطونيين *the Age of The Antonines* . وكان هذا أول وقوفى على هذا المؤلف العظيم ، ذى الاسلوب الرائع ، الذى غدا فيما بعد مسرح دراساتي الواسعة ، وكان له اكبر الاثر فى صوغ أسلوبى التاريخى . كما درسنا كذلك فى السنة الرابعة الثانوية

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

في باب النشر كتابا جدا با ساحرا ، لانتوني فرود هو .
« البحارة الانجليز في القرن السادس عشر » **English Seamer**
in The 16th Century . وقد فتحت لي هذه الكتب
التاريخية الجلييلة ، أبواب القراءات التاريخية الواسعة ،
في عدد من المصنفات الانجليزية الجلييلة مثل كتابي وليم
برسكوت « تاريخ فتح المكسيك » و « تاريخ فتح بيرو » ،
هداني اليهما ما كنا ندرسه في تاريخ الاستكشافات
الجغرافية ، فقراتهما بشفف عظيم . و « تاريخ الدولة
البيزنطية » **History of the Byzantine Empire** لجورج
فنلي ، وغيرها مما كنا نجده في مكتبة المدرسة ، التي
كانت تزخر بمجموعة كبيرة من آثار الادب الانجليزي .

وكانت لنا كذلك حصيلة طيبة من القراءة والدرس في
كتب الادب الانجليزي . وقد عرفنا منذ السنة الاولى
بعض الآثار الادبية الجلييلة ، مثل كتب تشارلس دكنز ،
الذي كنا نطالع في مجموعة مختارة من كتبه ، ويقراها
لنا أستاذنا فوستر سميث بأسلوب ممتع شائق .
ودرسنا في السنة الثالثة رواية التوني هوب المشهيرة
« سجين زندا » **The Prisoner of Zenda** ، وان كنت
لم أتذوقها ولم أكن متحمسا لها .

وقد انهمكت في ذلك الوقت في مطالعات واسعة لآثار
الادب الانجليزي ، فطالعت من كتب دكنز ، ولكي كولنس
وستانلي ويمان ، ووالترسكوت ، وكونان دويل ، وكبتن
ماريات ، ووليم ثاكري ، وجورج اليوت ، وأوليفر جولد
سمت ، وغيرهم . وكان ذلك كله في طبعة « تاوخننز »
Tauchnitz الالمانية المشهيرة ، ومازلت أذكر حتى
اليوم ، وأقتني ضمن مكتبتي عددا كبيرا من مؤلفات

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

هؤلاء الكتاب الاعلام ، الذين امتعت آثارهم شبابى ،
وأغنت معارفى بالادب الانجليزى وتراثه ، واتجاهاته .
وقضيت سننى الدراسة الثانوية الاربع بنجاح
مستمر ، ونلت شهادة الكفاءة سنة ١٩١٢ ، ثم شهادة
الباكلوريا فى سنة ١٩١٤ ، وكان ترتيبى فيها الرابع عشر ،
وحصلت فى الجغرافيا على النمرة الكاملة ، وهى ١٥ ،
وفى التاريخ على ٢٤ر٥ درجة من ٢٥ . وكان هذا مؤذنا
بما حدث فيما بعد من تطور اتجاهاتى الدراسية
العملية .

ومما هو جدير بالذكر أن التعليم كان يومئذ كله
بمصاريف يؤديها الطلاب ، وكنا نحن الطلبة الخارجين
ندفع مصروفات قدرها خمسة عشر جنيها فى السنة ،
وكنا ندفعها بالجنيهاات الانجليزية الذهبية ، وسيلة
التعامل يومئذ ، وكان الجنيه بحسب سعره الرسمى
وهو سبعة وتسعون قرشاً ونصف . وقد استمر التعامل
بهذه الجنيهاات الانجليزية الى أن خرجت انجلترا عن
معيار الذهب فى سنة ١٩٣٠ . وهذا غير اثمان الكتب .
وكنا نتناول طعام الغداء بالمدرسة بانتظام حتى يوم
الخميس . ومازلت اذكر اصناف الطعام الجيد اللذيذ
المتعدد الاصناف من اللحوم والخضر والارز والحلوى
والفاكهة ، مما تتحسر عليه اليوم كثير من النفوس .

مدينة القاهرة فى مطلع القرن العشرين

وانه لمن الشائق أن تعرف كيف كانت عليه مدينة
القاهرة المعزية يومئذ ، وكيف كانت ظروف الحياة .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

لقد كانت القاهرة يومئذ مدينة هادئة لا يتجاوز سكانها مليوناً من الأنفس ، وكانت ماتزال في أكثر أحوالها على ما كانت عليه منذ عصور ، فشوارعها مرصوفة بالخرسانة ، ولم تكن قد عرفت يومئذ رصف الأسفلت . وكانت تضاء ليلاً بمصباح الغاز ، إذ لم تكن الكهرباء قد انتشرت بعد . وكانت معظم الأحياء ، فيما عدا الأحياء الأجنبية لا تعرف الكهرباء . وحتى منازل الأعيان والكبراء كانت ماتزال تضاء بالمصابيح والشمعانات الكبيرة . وكانت طوائف الشعب معظمها من لابسى العمائم والجلابيب . ولم يكن بين الحرفيين من يلبس الملابس الأفرنجية . وكانت الطبقة الوسطى تتكون معظمها من الأندية الموظفين ومن اليهم من متوسطى الأعيان الذين اختاروا الإقامة بالقاهرة للأشراف على تربية أولادهم . وكانت شبكة المواصلات الرئيسية ، تقتصر على الترام بخطوطه القديمة المعروفة ، ينطلق إليها من مركزها الرئيسى بالعتبة الخضراء ، حيث كان يقوم إلى جوارها من الغرب مبنى المحاكم المختلطة ، الذى أزيل بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية فى سنة ١٩٤٩ ، وأقيم مكانه اليوم بستان مستدير . ولم يكن يوجد إلى جانب الترام من وسائل المواصلات ، سوى خطوط سوارس القصيرة التى كانت تسير بها بضعة من عربات « سوارس » ، وهى عربات مستطيلة يجرها بفلان ، وتتكون من دكتين متقابلتين ، تسع نحو عشرين راكبا ، وثمان التذكرة بها ثلاثة مليمات . وإلى جانب هاتين الوسيلتين ، كانت توجد عربات الحنتور يركبها الخاصة ، وعربات الكارو يركبها العامة ، وهى فى نفس الوقت وسيلة النقل

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الرئيسية . ولم تكن بالقاهرة يومئذ سيارات مطلقا ، لان السيارة كوسيلة للركوب لم تعرف بالقاهرة ، الا بعد الحرب العالمية الاولى . وكانت هذه الحالة مدعاة الى الاطمئنان الكبير على حياة صغار الاولاد والتلاميذ ، وعلى حمايتهم من التعرض لحوادث النقل الكثيرة التي تقع في عصرنا .

ولم يكن هذا بدعا بمدينة القاهرة ، فقد رأيت عربية سوارس تجرها البغال ، في مدينة ازمير التركية خلال زيارتي لتركيا سنة ١٩٢٧ .

وكان الرخاء يعم البلاد ، والحياة ميسورة ورخيصة الى حدود لا يمكن تخيلها اليوم . فالمساكن ، وقد كانت متوفرة على سائر المستويات ، يبلغ ايجار الشقة الكبيرة والجميلة منها ما بين جنيه واحد واثنين ، والمنزل الكامل من طابقين كان يبلغ ايجاره جنيهين الى أربعة . والشقق التي يسكنها الطلاب نحو خمسين أو ستين قرشا وهكذا . وكانت اقة العيش « وهي خمسة أرغفة » بقرش واحد . واللحم العجالي الرطل باثنى عشر أو خمسة عشر مليما . والضأن بقرشين ونصف . والبيض أربعة أو خمسة بقرش واحد . وكنا ونحن تلاميذ بالمدرسة الابتدائية يكفينا للافطار نصف قرش . وكان هذا ثمن مميطة كبيرة أو ربع رطل من البسيوسة الفخمة بالزبد ، ويكفينا لطعام الغذاء قرش واحد للخبز والجبن الرومي والحلاوة الطحينية ، أو للطعمية والباذنجان المقلى والسلاطة . وكان ثمن الرغيف الفرد ، وهو ضعف رغيف اليوم مليمين ونصف . وكان هذا ما ننفقه كل يوم في غذائنا ، لان المدرسة الابتدائية لم يكن بها غذاء

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

للتلاميذ . وكذلك كانت الخضروات والفواكه كلها رخيصة بصورة مدهشة ، وعلى نفس المستوى . وكذلك كانت الملابس ، فقد كنا نشترى البدلة الصوفية من محلال ماير أو شتاين ، وقد كانا متجري الملابس الرئيسيين ، بمبلغ لا يتجاوز جنيها ونصف أو جنيهين ، والحذاء من محل جستر الانجليزى أشهر محلات الاحذية يومئذ من خمسين قرشا الى جنيه ، وهلم جرا . وهى أحوال وأرقام لا يكاد يسيفها الخيال ، فى يومنا .

الدراسة العالية

لما اختتمت دراستى الثانوية وحصلت على شهادة البكالوريا فى صيف سنة ١٩١٤ ، كانت توجد ثمة مشكلة وظروف دقيقة حول الالتحاق بالدراسة العالية . وكنت خلال دراستى الثانوية ، اتطلع دائما الى دراسة الحقوق ، ومزاولة المحاماة ، التى كنت أشعر انها مهنة نبيلة . ولم أكن ميالا الى الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا ومزاولة مهنة التعليم عدة من السنين . وكان معظم زملائى وفقا لشروطها يميلون الى الالتحاق بها . وكانت دراسة الحقوق فى هذا الوقت تكاد بنفقاتها الكثيرة ، تكون وقفا على الاغنياء واولاد الذوات . وقد كان الأمر كذلك فى الواقع وكانت مدرسة الحقوق هى المعهد الذى يتخرج فيه الوزراء ، وأكابر الموظفين . وكنت لذلك أتوجس من عجز والدى عن امدادى بهذه النفقات . وكان المرحوم والدى فى الواقع غير ملتحق بعمل منظم وكان قد اشتغل حسبما تقدم ، مدة بتجارة الاراضى فى الضواحي ، وكان ذلك يدر عليه مكاسب مجزية . واستمر على ذلك حتى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

جاءت الأزمة المالية المرهقة في سنى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ و ١٩٠٨ . وفى سنة ١٩٠٨ توفى والده جدى المرحوم السيد عبد المطلب عرفه العناني ، وورث عنه خمسة أفدنة . ولكنه لم يحسن التصرف فى شأنها فلم يحاول زراعتها أو تأجيرها ، بل عمد الى بيعها تباعا حتى ضاعت فى نحو عامين أو ثلاثة . وعندئذ عادت الأزمة ، وهو يعالجها من آن الآخر ببيع قطعة من الاراضى التى كان يملكها بصحراء عين شمس ، وكان يقيم أحيانا فى القاهرة ، وأحيانا فى قرية بشلا مسقط رأسى ، حيث كان لنا منزل ، وكانت المرحومة أمى تملك بها فدانين ، بقيا من ثروة أمها التى ورثتها ، وكانت تشتمل على نحو ثمانية عشر فدانا ، أضاع معظمها الوصى عليها بحجة الانفاق على تربيتها . ولم يكن ايجار هذين الفدانين يزيد فى السنة على خمسة وعشرين أو ثلاثين جنيها ، وهو ما لا يمكن أن يفى بالمطلوب .

والخلاصة أننى صممت على دراسة الحقوق أو الالتحاق بمدرسة الحقوق السلطانية ، كما كانت تسمى يومئذ ، ووضعت عيني على هذين الفدانين المتبقين من ملك والدتى . وأضمرت أن أقنع والدتى ببيعها تباعا على أجزاء صغيرة تفى بمصاريف المدرسة ونفقاتى الخاصة . وكانت مصاريف الدراسة يومئذ نحو خمسين جنيها فى السنة ، منها ثلاثون لمصاريف الدراسة ، والباقى رسوم المكتبة ، وأثمان الكتب ، ومقابل الفداء أحيانا ، وهذا غير أجره السكن والنفقات الشخصية ، ونفقات الانتقال الى الجيزة ، حيث نقلت المدرسة بعد السنة الأولى من التحاقى بها . وقد نجحت فيما نويت . وكانت بداية بيع الأيطان

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

منذ السنة الثانية . وقد حزنت والدتي أشد الحزن ، وبكت بكاء شديداً ، حينما أرغمها المرحوم الوالد على بيع الفدان الأول ، ولكنها أدركت فيما بعد أنه لا مفر من الاستمرار في امدادى بنفقات الدراسة ، واقتنعت بأن تسلمنى ختمها ، الأوقع به على عقود البيع كلما لزم . وكان المتسلط علينا في الشراء جارنا الشيخ فلان تاجر الأقمشة بالبلدة ، وهو رجل في منتهى الجشع والاستغلال . وكنت مضطرا الى معاملته ، لأنه هو الجار الملاصق ، وهو الوحيد الذى يقبل الشراء بهذه الصورة . وسارت الخطة في طريقها ، ومضيت في بيع الأرض تباعا على مدارستى الدراسة قطعة فأخرى ، وكانت آخر قطعة قدمت للبيع بعد أن انتقلت الى السنة الرابعة ، ولم يكن بينى وبين نوال اليسانس سوى بضعة أشهر . وكانت مدرسة الحقوق تقع في بنائها العريق ، بشارع حسن الأكبر ، وظهرها ملاحق لقصر عابدين . ولكنها لم تلبث أن انتقلت بعد دراستى للسنة الأولى الى الجيزة ، وكان لذلك مقدمة يجب تسجيلها .

اشتراكى فى أول حادث سياسى

فى يوم ١٨ فبراير سنة ١٩١٥ ، وكنت يومئذ طالبا حديثا بالسنة الأولى بمدرسة الحقوق ، حضرت الى المدرسة بعابدين مبكرا ، فرأيت فى القاعة الواقعة عند يمين مدخل المدرسة ، التى يوضع فيها البريد الوارد الى الطلبة ، كومة كبيرة متشابهة من الخطابات المجللة بالسواد ، ووجدت من بينها خطابا باسمى ، وداخله رقعة مطبوعة ، خلاصتها أن فلانا المحامى الكبير ، قد توفى الى رحمة الله ، وان الجنازة سوف تشيع من شارع

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

المناخ رقم . . . ، ورأيت سائرا لزملاء يقدون على هذه
الغرفة ، فيتناول كل منهم الخطاب الوارد باسمه ، ثم
ينصرفون متتابعين في اتجاه المكان المحدد . فسرت معهم .
وكان المعروف أن هذا اليوم ، هو الذي تحدد لزيارة
السلطان حسين كامل لمدرسة الحقوق في برنامج
الموضوع لزيارة معاهد العلم . وسرنا زراقات الى شارع
المناخ (عبد الخالق ثروت اليوم) وقصدنا الى الرقم المبين
بالرقعة ، فاذا به رقم محلات جروبي للحلوى واختلطت
بالزملاء ، وفهمت منهم أن هذه العملية قد رتبتم
ينصرف الطلاب جميعا عن المدرسة في هذا الصباح الذي
تحدد للزيارة السلطانية ، فيأتي السلطان ، وقد خلت
المدرسة من معظم الطلبة . ونجح هذا الاضراب نجاحا
كبيرا ، وخلت معظم الفصول من الطلاب . وأدرك
السلطان والمسؤولون ما حدث ، وقرروا توقيع العقاب
على الطلاب الذين دبروا هذا الحادث ، والذين تغيبوا
في هذا اليوم . وفي الايام التالية جرى التحقيق مع سائر
الطلاب المتغيبين ، وكنت ممن قدم للتحقيق أمام مدير
مدرسة الحقوق يومئذ السير شلدون أيموس . فسألني
عن سبب تغيبي ، فاعتذرت بما اعتقدته واقعة صحيحة
للاشتراك في تشييع جنازة المحامي الكبير المتوفى . وانتهى
الأمر بصدور أحكام الفصل ، والحرمان من امتحان
آخر السنة على عدد كبير من الطلاب ، وكنت ممن صدر
الحكم عليهم بالحرمان من امتحان آخر السنة مع وقف
التنفيذ . وهو أخف الأحكام التي صدرت ، ثم صدر في
مارس عفو سلطاني من الطلبة المفصولين والمحرومين من
الامتحان ، واستثنى منهم سبعة عشر طالبا ، هم الذين

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

اثبت التحقيق أنهم هم الذين قاموا بتحريض زملائهم على تدبير هذه المظاهرة ثم صدر القرار بعد ذلك بالعمو عنهم ، وعادوا الى المدرسة في العام التالي .

كان هذا الحادث هو أول عهدى بالمظاهرات السياسية . وقد كان من آثاره أن نقلت مدرسة الحقوق من مقرها القديم بجوار قصر عابدين الى مبنى آخر بالجيزة ، على مقربة من مديرية الجيزة ، وهو المبنى الذى شغله فيما بعد قسم الجغرافيا بكلية الآداب بجامعة القاهرة . وقد ألقى علينا الأستاذ الدكتور والتون مدير المدرسة الجديد ، بعد ان ترك السير ايموس هذا المنصب على اثر حادث المظاهرة ، قبيل الانتقال الى المبنى الجديد ، خطابا ممتعا يعزينا فيه عن ترك هذا المكان القديم للمدرسة . وجاء فى خطاب يومئذ « أنه تحيط به الأساطير الغامضة » فأثار منا هذا الوصف تساؤلا وابتساما .

وكانت مدرسة الحقوق يومئذ تحت اشراف الأساتذة الانجليز ، والى جانبهم طائفة من الاساتذة الفرنسيين ، لأنها كانت تشتمل يومئذ على قسمين : قسم انجليزى ، وقسم فرنسى . وكنت بطبيعة الحال من طلبة القسم الانجليزى . وكان بين أساتذتنا الذين يتولون الدراسة لنا ، الدكتور والتون مدير المدرسة ، وكان يتولى دراسة القانون المدنى . وكان عالما ضليعا واسع المعرفة ، ممتع الشرح ، وأذكر ان مذكراته عن « التعهدات » وغيرها من الأقسام التى كنا ندرسها فى السنة الثانية من القانون

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

المدنى ، كانت تشغل نحو ألف صفحة كبيرة . والى جانب الدكتور والتون ، كان الاستاذان جوبى وبنوتشن ، وهما يتوليا تدريس مقدمة القانون . والسير ملفيل ، ويتولى تدريس القانون الرومانى ، والاستاذ كلاى ، ويتولى تدريس القانون التجارى . ومن الاساتذة المصريين ، المرحومين الدكتور عبد الحميد أبو هيف ، والدكتور حسن نشأت ، والدكتور بهى الدين بركات .
وأما الاساتذة الفرنسيون ، فقد كان من بينهم اعلام مثل الاستاذ موثيه ، والاستاذ شقالى ، وكنا نتلقى عليهما القانون الدولى .



ومنذ بدأت دراسة الحقوق ، كانت الحرب العالمية الاولى ، قد بدأت منذ اوائل اغسطس سنة ١٩١٤ ، وكنا خلال دراستنا نتتبع أحداثها باهتمام شديد . وكنا نحبو ألمانيا بعطفنا منذ البداية . وكنا نشور حماسا كلما وقع تقدم أو انتصار جديد ضد انجلترا وفرنسا . وكنت اتقن بنوع خاص معرفة المواقع الجغرافية التى تجرى فيها المعارك أو يقع التقدم . ولما طال أمد الصراع ، وامتد خلال أعوام دراستى الأربعة ، أصبحت حوادث الحرب أمرا عاديا لا نعلق عليها كبير اهتمام ، حتى دخلت أمريكا الى جانب فرنسا وبريطانيا فى سنة ١٩١٧ ، بعد أن اشتدت خسائر الحلفاء فى السفن من جراء نشاط الفواصات الألمانية ، وأخذ الميزان منذ اوائل سنة ١٩١٨ يميل تباعا ضد ألمانيا . وعندئذ أخذنا نترقب انتهاء الحرب بهزيمة ألمانيا فى ذلك الصراع العالمى الخطير . وقد انتهت الحرب بالفعل فى نوفمبر سنة ١٩١٨ بهزيمة ألمانيا،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وتوقيعها للهدنة ، التي أقرت فيها بقبول سائر شروط الحلفاء القاسية .
ومما يجدر ذكره أنه في أواخر أيام دراستنا للحقوق ، ونحن في السنة الرابعة ، قام الملك فؤاد (السلطان فؤاد يومئذ) بزيارة مدرسة الحقوق ، وكانت زيارة هادئة ناجحة لم يشبها اضطراب ولا تظاهر . وألقيت بين يديه خطاب وقصائد مديح . وفي نهاية الزيارة ، ألقى فينا كلمة موجزة بعربية أعجمية ، لا تكاد تفهم ، وعد فيها من حسن سيره من الطلاب ، بتحقيق آمالهم في الوظائف وغيرها .

في ميدان الحياة العملية

واتممت دراستي في الحقوق في صيف سنة ١٩١٨ بالحصول على شهادة الليسانس في القوانين ، وكان ترتيبى بين الناجحين الرابع عشر من ستة وثلاثين فيما أذكر .
وفي أغسطس سنة ١٩١٨ ، قدمت طلبى بالقيد في جدول المحاماة . وقيدت محاميا بالمحاكم الجزئية . وكان قانون المحاماة في ذلك الوقت يقضى بأن يمضى المحامى الناشئ عامين في التمرين ، ثم يجوز امتحانا خاصا بمحكمة الاستئناف العليا ، للحصول على حق القيد في جدول المحامين المشتغلين أمام المحاكم الابتدائية .
وأضيت عامى التمرين فى العمل فى المحاماة ، أولا فى ميت غمر وزفتى ، وترافعت فى عدد من القضايا فى طنطا والمنصورة . ثم قضيت العام التالى من التمرين فى أسبوط ، مشتغلا بمكتب الاستاذ محمد حامد جودة . وكان يومئذ من اعلام المحامين بأسبوط . ثم عدت بعد ذلك الى ميت غمر . وكان أول ما علمته أن تقدمت الى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الامتحان المقرر أمام محكمة الاستئناف بعد اتمام التمرين ،
وجزته بسهولة ، وتم قيدي بعد ذلك للمرافعة أمام
المحاكم الابتدائية .

وبدأت عملي في المحاماة في مكتب مستقل بميت غمر ،
وكانت تجربة لا بأس بها ، وكانت ناجحة بحمد الله .
وكنت أتلقى كثيرا من القضايا من مختلف أنحاء ميت غمر ،
وغيرها من المناطق المجاورة ، وكان لنشاطي في القضايا
المدنية سمعة طيبة ، ورجع اتجاهي في هذا الميدان ،
على ميدان القضايا الجنائية .

وبالرغم من أن عملي كان يدور على ما يكفي للانفاق على
نفسى ، وعلى أسرتي ، وكانت تقيم يومئذ في قرية بشلا ،
وكنت أقضى بها دائما آخر الاسبوع بمنزلنا الريفي ،
وهي لا تبعد كثيرا عن ميت غمر ، فقد كانت تساورني
منذ البداية رغبة ملحة في الانتقال الى القاهرة والعمل
بها . ولم يكن يسرنى أن أبقى محاميا ريفيا يكتفى بلقمة
العيش في وسط محلى ، ليس به ما يشوق ، ولا يثير
الاهتمام ، وكنت فيما بعد أقضى أيام أواخر الاسبوع
دائما بالقاهرة ، واتصل فيها بأوساط المحاماة ، سواء
بزملائي الذين كان من حظهم أن يبدأوا العمل بالقاهرة ،
أو بأصدقائي من مختلف الطبقات ، الذين يعرفون ظروف
الحياة بالقاهرة ، لنصائحهم في هذا الشأن قيمتها .

وأود أن أقول هنا أن ما قضيته من أوقاتي في ميت
غمر ، وفي قرىتي بشلا ، ومع عائلتي المكونة من والدى
وشقيقتى الصغرى ، أيام مزاولة حياتي المهنية الاولى ،
لم يكن مملا ولا كدرا ، بل كانت تطبعه بالعكس بساطة
ممتعة ، فميت غمر حسبما أشرت في مكان آخر من أجمل
مراكز القطن المصرى ، ان لم تكن أجملها جميعا . وهي

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بكورنيشها الطويل على النيل العظيم ، وأحيائها الفخمة ، ومتاجرها الفنية ، ومقاهيها ومطاعمها وفنادقها الأنيقة ، وتوفر السلع الغذائية والفواكه الممتازة بها طوال الفصول ، تكفل لسكانها الحياة الرغدة . ولقد كنت في الواقع أستمرىء الحياة في هذا البلد الجميل الساحر . ولم تكن أوقاتى في القرية بأقل بهجة ومتاعا ، فان بلدى ومسقط رأسى بشلا من أجمل القرى النموذجية ، التى يشتهر بها مركز ميت غمر ، مثل صهرجت الكبرى ، وكوم النور ، ودنديط ، ودماص ، وأوليلة وغيرها من القرى الكبيرة العامرة . وبشلا قرية كبيرة من حيث الحجم ، متسعة الجوانب ، وتحتوى على كثير من المباني والفيلات الفخمة ، ولم يكن سكانها يقلون يومئذ عن عدة آلاف من الأنفس . وقد كنا نملك بها منزلا متواضعا من طابق واحد . وبه مندرة وفناء للاستقبال ، وثلاث غرف أخرى والمرافق . وكانت بشلا كما هى اليوم تتمتع بمركز اجتماعى محترم ، وهى تضم مدارس أولية ومدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية ، أنشأها أهلها من أموالهم الخاصة ووضعت تحت إشراف الوزارة . وفيها كثير من المتعلمين وحملة الشهادات العليا . وقد اشتهرت بالأخص بمن يزاولون من أهلها أعمال المقاولات العامة ، وما تزال بها اليوم طائفة محترمة منهم . وهى تتمتع بمستوى مشكور من الرخاء واليسر ، وتحتوى على كثير من المتاجر والخيرات والموارد الغذائية والفواكه ، ولم أكن أيام إقامتى بها ، سواء فى أواخر الأسبوع أو الإعياد ، أشعر بأى قصور أو نقص فى أى مطلب أو رغبة منزلية أو تموينية . هذا فضلا عن أنى كنت فى آخر الأسبوع حين أقدمى إليها من ميت غمر أحمل معى الكثير من اللحم

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

والجلوى والفاكهة ، والخلاصة اني كنت سعيدا بهذه الأيام التي كنت أقضيها في مسقط رأسي ، بين أهلي ومواطني .

بيد أنه كانت تحدوني الي جانب هذه الرغبة ، في ترك الوسط الريفي ، آمال غامضة في مزاولة العمل الصحفي ، وأود قبل أن أطرق هذا الموضوع ، أن أقرر أن ميلى الي الكتابة ، كان يساورني منذ كنت طالبا بالدراسة الثانوية ، وكنت من آن الآخر أكتب بعض المقالات ، في صحيفة « الشعب » ، التي كان يصدرها المرحوم أمين بك الرافعي . ولما التحقت بدراسة الحقوق ، كان هذا الميل يزداد عندي باضطراد ، وقد ظهر يومئذ في قيامي بترجمة بعض أقاصيص ديماس الصغيرة ، من مجموعة « الجرائم الشهيرة » **Crimes Celebres** ، فترجمت منها

قصة **Jeanne de Naples** ، ونشرتها بعنوان « جرائم نابولي » . وترجمت عن الانجليزية جزءا

صغيرا من كتاب السير ريتشارد لودج **History of Modern Europe** ونشرته بعنوان « تاريخ أوروبا الحديث » (١٩٢٤) .

وترجمت في بداية مزاويتي للمحاماة بميت غمر قصة فرنسية كبيرة للكاتب الفرنسي زافيه دي مونتبان بعنوان « قلنسوة الذهب » **Casque d'or** ، فقام بنشرها

المرحوم مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية ، وكان من أنشط الناشرين في هذا الوقت . وترجمت قصة أخرى عن الفرنسية أيضا نشرتها مجلة الروايات الجديدة بعنوان « المجرم البريء » . وقد كان ذلك كله متنفسا

لأمنيته الدفينة ، وهي الاشتغال بالصحافة ، والأدب . وكنت في الوقت نفسه اشتغل بتعلم اللغة الألمانية على

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

طريقة « هوجو » الانجليزية ، واتقدم في ذلك بسرعة ،
واتلقى بعض الصحف الألمانية من برلين ، وأمارس
قراءتها ، ولا سيما جريدتي **Berliner Tageblatt**
وجريدة **Deutsche Allgemeine Z** ، وكان
العدد الواحد من هذه الصحف يحمل يومئذ من أجر
البريد طوابع بمئات ألوف المارك ، إذ كانت ألمانيا يومئذ
(في سنى ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٢) في حالة انهيار
اقتصادى مطبق . وقد كان لتعلمى اللغة الألمانية يومئذ ،
واتقانى لها فيما بعد ، اثر بعيد فى تعميق صلتى بالثقافة
والآداب الألمانية ، وفى صقل مقدرتى فى الترجمة عن كثير
من اكابر الكتاب الالمان مثل هنريش هينه ، وهونمان ،
وشينفان زفايح ، وأرنولد زفايح وغيرهم ، وقراءة الكثير
من المصادر التاريخية الألمانية ، والوقوف على اتجاهات
الصحافة الألمانية ، وعلى تطورات السياسة الألمانية
المعاصرة ، ولا سيما منذ ظهرت الحركة الهتلرية فى ألمانيا،
وما ترتب على ذلك ، من زيارتى العديدة لألمانيا سواء
قبل الحرب العالمية الثانية أو بعدها . وما زلت أذكر
أول مقال قمت بترجمته عن الصحافة الألمانية ، وهو مقال
نشر فى جريدة **B. Tageblatt** عنوانه **Elne**
Hochschule fur Politik أعنى « مدرسة عليا
للسياسة » . وخلصته أن الالمان يجب أن يتعلموا
السياسة فى مدرسة عليا ، لأن النقص الذى كان يعانيه
السياسة الالمان ، خلال الحرب الكبرى ، كان من أسباب
هزيمة ألمانيا . ولا بد أن يتلقوا دروسا فى السياسة
العليا . فقت بترجمة هذا المقال ، وكان أول ما ترجمت
من الفصول الألمانية الجادة ، وأرسلته الى المرحوم

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الاستاذ محمود عزمى ، وكان يشرف يومئذ على تحرير جريدة « مصر » لكى ينشره بها ، فقام بنشره فى مكان بارز تحت العنوان السابق ، وكان مقالا قويد ممتعا ، وأذكر أن ذلك كان فى سنة ١٩٢٠ . وكانت هذه أول محاولة منى للاتصال بالصحافة وبداية ظهور اسمى فى صحف العصر . وقد اتصلت يومئذ بالاستاذ عزمى ، وتصرفت به ، وكنت أعجب بمقالاته أينما نشرت . وبعد ذلك بقليل قام الاستاذ عزمى بإصدار جريدة خاصة به تحت عنوان « الاستقلال » ، وطلب منى أن أمدّه بما استطعت من مقالات . وعرضت عليه يومئذ أن ينشر لى رواية كنت قد شرعت فى ترجمتها وهى من تأليف اسكندر دوماس ، وعنوانها بالفرنسية : **Le Chevalier d'Harmental** فقبل أن ينشرها بجريدته فصولا يومية تحت عنوان « المتآمرون » . وفى أثناء ذلك تغيب الاستاذ عزمى فى الخارج بعض الوقت ، وقام مكانه فى رئاسة تحرير الجريدة صديقه المرحوم الدكتور طه حسين ، وكان يومئذ قد عاد من فرنسا الى مصر بعد اتمام دراسته وحصوله على درجة الدكتوراه من السوربون . وكان هذا أول اتصال بينى وبين الدكتور طه وأول معرفتى به . ولكن الاستقلال لم تمكث طويلا ، لأنها لم تكن من الصحف المنتشرة ، وكانت تصدر بمعاونة الحكومة ، وتوجه الى سياسة عدلى يكن باشا وجهوده فى الاتصال بالحكومة البريطانية فى شأن تحقيق الأمانى المصرية فى الاستقلال . ولكنى مع ذلك بقيت على صلتى بالاستاذ عزمى ، لأنى فوق ما كنت أحمله له من التقدير والاعجاب كصحفى نابّه ، كنت آنس الكثير من أدبه ووافر مجاملته

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وتشجيعه ، كما أنى تلقيت الكثير من تجاربه وتوجيهاته الصحفية النافعة .

وقد شجعتنى هذه البدايات الادبية والصحفية على الانتقال مع اسرتى من يشلا حيث كانت اقامتنا منذ تخرجى من مدرسة الحقوق ، الى العاصمة ، حيث استأجرنا شقة فى حي السيدة زينب فى أحد الشوارع المتفرعة من شارع زين العابدين ، وكان ذلك حسبما اذكر فى سنة ١٩٢٣ ، ومن ذلك التاريخ كانت القاهرة المعزية مستقرى ومحل اقامتى . ولكنى احتفظت بمكتبى فى الحمامة بميت غمر بضعة أعوام أخرى ، لان الحمامة كانت ما تزال فى ذلك الوقت هى مصدر كسبى الرئيسى ، وكان نشاطى فى الحمامة يشمل ميت غمر والمنصورة وزفتى . وكان يعمل فى الحمامة بالمنصورة ، التى هى مقر القضاء الابتدائى ، عدة من اعلام المحامين ، وكانت تربطنى علائق مهنية بنوع خاص بالاستاذين المرحومين ، عبد الوهاب البرعى ، وعبد الرحمن الرافعى ، وكانت المنصورة مركز نشاطه المهني مدى أعوام ، وقد توثقت علائقى معه تباعا ، حتى غدا بمثابة أستاذى فى الحمامة ، كما غدا فيما بعد ، وهو أبرع مؤرخى العصر ، أستاذى فى التاريخ .

وعقب اختفاء جريدة الاستقلال ، اتصلت بجريدة « الافكار » ، التى كان يشرف عليها يومئذ الوطنى الكبير والنائب المرموق المرحوم عبد اللطيف الصوفانى ، وقد كنت أقرأ الكثير عنه ، وعن نشاطه البارز فى الجمعية التشريعية . ولكنى تركت الاتصال بالأفكار بعد فترة قصيرة لما آنسته من اضطراب أحوالها ، وضعف مكانتها الصحفية .

ثورة سنة ١٩١٩

ويجدر بي أن أقف هنا قليلا . وقبل أن أمضى في سرد بقية قصتي في محاولة النزول الى ميدان الصحافة ، لكي أقدم صورة سريعة من الثورة الوطنية الغامرة التي نشبت في سنة ١٩١٩ ، أثناء عملي في المحاماة بميت غمر ، وشهدت الكثير من حوادثها في القاهرة والاقاليم ، وان كانت قد دونت مقدماتها وأحداثها في كتب ومصادر عديدة ، أهمها وأعزرها كتاب أستاذي وصديقي العلامة المؤرخ الكبير المرحوم عبد الرحمن بك الرافعي « ثورة سنة ١٩١٩ . تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ » (القاهرة ١٩٤٦) .

وقد بدأت هذه الثورة ، كما هو معروف ، عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى ، في نوفمبر ١٩١٨ ، وتأليف الوفد المصري برياسة المرحوم سعد زغلول باشا في نفس هذا الشهر للسعي الى المطالبة بالاستقلال ، والسفر من أجل ذلك الى أوروبا ، وإبلاغ صوت مصر الى الحكومة البريطانية . والى الدول والهيئات الدولية الصديقة . وقد نظمت من أجل ذلك حركة واسعة النطاق لتزويد الوفد المصري بالتفويض القومي اللازم ، وقامت سائر الهيئات في طول البلاد وعرضها ، بتوقيع التوكيلات المقدمة اليها لهذا الغرض ، وفي مقدمتها هيئة المحامين ، وقد كانوا طلائع الثورة الاولى ، وكنت ممن وقع عريضة التوكيل المشسار اليه مع زملائي محامي ميت غمر . ولكن السلطات البريطانية ، وقد كانت مصر يومئذ تحت الحكم العسكري البريطاني ، لم تستجب

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

لطلب الوفد بالسفر الى الخارج . ولما أُلح الوفد في طلبه ، وتابع تقديم العسرا ئض بذلك الى دار الحمـاية ، وقدم احتجاجاته الى معتمدى الدول ، انتهت دار الحمـاية بانذار الوفد ، ثم بالقاء القبض على رئيسه سعد زغلول باشا وثلاثة من أعضائه ، هم محمد محمود باشا ، واسـماعيل صدقى باشا ، وحمد الباسل باشا ، واعتقلتهم بشكنات قصر النيل ، ثم بعثت بهم الى جزيرة مالطة ، التى اختارتها لنفيهم واعتقالهم وكان ذلك فى يومى ١٠، ٩ مارس سنة ١٩١٩

وكان هذا الاجراء التعسفى البغيض نذيرا باضطرام الثورة ، فثارت روح السخط فى كل مكان ، وبدأت الثورة باضراب طلاب سائر المدارس ، وطلاب الازهر ، وألّفوا أول مظاهرة وطنية كبرى ، اخترقت شوارع القاهرة ، وانضمت اليها جموع غفيرة من الجماهير . وعطلت المواصـلات ، وبدأت الدوريات الانجليزية تعترض المتظاهرين وتطلق عليهم الرصاص ، وبدأ الشـباب يتساقط تحت رصاص الانجليز منذ اليوم الحادى عشر من مارس والايام التالية ، حيث استمر تنظيم المظاهرات وسيرها . وفى نفس الوقت أعلن المحامون احتجاجهم واضرابهم منذ يوم ١١ مارس ، وسجلوا أمام سائر الدوائر القضائية اضرابهم وامتناعهم عن المرافعة ، ونظمت السيدات مظاهرة كبرى (١٦ مارس) اشترك فيها العديد من كرام العقائل . ولما اجتمعن بشارع سعد زغلول باشا ، حاصرتهن قوة بريطانية ، ومنعتهم من التحرك ، وبقوا زهاء ساعتين تحت الشمس المحرقة .

وكان لهذه الاحداث أعظم صدى فى سائر المدن والاقاليم، فنظمت المظاهرات فى الاسكندرية وسائر المدن الكبرى .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وقام المتظاهرون بقطع خطوط السكك الحديدية ، وتدمير المحطات في كثير من المواضع . وانذرت السلطات البريطانية بأنها سوف تقوم باحراق القرى القريبة من الأماكن المدمرة . ثم أصدرت أوامرها بعدم التجول من الساعة الرابعة صباحا ، ومنع انتقال سكان القرى من قرية الى أخرى منذ غروب الشمس الى شروقها .

ثم أضرب عمال الترام في العاصمة ، وأضرب سائقو السيارات والحوزية ، واضطربت المواصلات بين القاهرة والاقاليم ، ووقفت معظم الخطوط الحديدية عن السير . وكان لحوادث الأقاليم ، وانتشار الثورة والمظاهرات فيها من أقصاها الى أقصاها ، صدى عميق في العاصمة ، فاشتدت المظاهرات في كل مكان ، بالرغم مما اتخذته السلطات من اجراءات لمقاومتها . وكان الجوامع الازهر من أنشط مراكز الثورة ، وأكثرها التهاوبا . وكانت تبدأ منه المظاهرات بانتظام . وبالرغم مما قامت به سلطات الاحتلال من وضع الدوريات المسلحة حول مخرجه ، فإن المظاهرات كانت تقتحم كل عائق . بل ان الازهر لم يلبث أن غدا قلب الحركة الثورية في العاصمة ، وغدا في نفس الوقت ، ملتقى رجال الدين المسلمين والاقباط ، ومجمعا وثيقا لشطري الأمة الشقيقتين ، يتعانق فيه الشيوخ والقساوسة ، ويخطبون بالتوالي من منابره ، لبث الثورة الوطنية ، وتدعيم روح الاخاء القومي . ولقد شهدت بنفسى من ذلك مناظر رائعة . ولم يك ثمة شك في أن تدعيم الوحدة القومية على هذا النحو ، كان له أعظم الاثر في اضرام روح العزم والاقدام في الجماهير الثائرة .

استمرت المظاهرات الوطنية بلا توقف ، وكان من

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

أعظمها انتظاما ووقارا ، مظاهرة ١٧ مارس الكبرى ، التي سمحت بمسيرتها السلطات العسكرية ، وتقديمها بحكمه دار العاصمة اللواء رسل باشا . وكان ينتظم فيها عشرات الألوف . وقد طافت بسائر شوارع القاهرة الكبرى ، واستمر سيرها عدة ساعات ، وانتهت دون حوادث ذات شأن .

وكرت المظاهرات في مختلف المدن والاقاليم ، واشتدت موجتها ، وبعثت السلطات العسكرية ودورياتها المسلحة الى عدد من المدن ، لكي تحاول وقف هذا التيار الجارف عند حده . وأطلق الجند الانجليز الرصاص على الجماهير في كثير من الاماكن ، وسقط شهداء عديدون في أنحاء عديدة ، مثل المنصورة ، وبلدتي ميت القرشي ودنديط مركز ميت غمر ، وفي الفيوم ، وأسيوط ، وديروط ، وغيرها . وكثرت جنائز الشهداء في القاهرة والاقاليم ، وكانت مسيرتها تزيد الشعور اضطرابا والتهاوبا .

ولقد شهدت بنفسى الكثير من هذه المناظر الوطنية العظيمة المؤسسية معا ، واشتركت في كثير من المظاهرات ، وكنت معظم وقت الثورة مقيما بالقاهرة ، واشتركت بالاحص في مظاهرة المحامين الكبرى بالقاهرة ، وقد سار فيها المحامون ، وهم يرتدون روبات المهنة ، فكان منظرا جليلا ، وكانت مظاهرة ذات طابع وطنى مؤثر .

ووقعت حوادث عديدة استطاع المتظاهرون فيها أن يقتلوا جماعات مختلطة من الضباط والجنود الانجليز في القاهرة ، وغيرها من نواحي الاقاليم . وكانت السلطات البريطانية كلما وقع حادث من هذه الحوادث ، تضاعف اجراءات القمع والفتك بالمتظاهرين .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

واستمرت حوادث الثورة على هذا النحو فترة أخرى خلال شهر أبريل ، وارتكب الجند الانجليز خلال ذلك الكثير من حوادث القتل والتعذيب ، في كثير من المدن والقرى ، في الوجه البحرى والصعيد .

وكان من أحداث الثورة في هذه الفترة اضراب الموظفين . ثم تلا ذلك اضراب التجار وأصحاب الحرف والمهن الحرة . واستمر اضراب الموظفين وقتا بالرغم من مطالبة رشدى باشا رئيس الوزارة الوطنية الجديدة لهم بالعدول عنه تفاديا للاضطراب والبلبلة ، واهدار المصالح العامة ، وهو ما اضطر رشدى باشا الى الاستقالة . وعلى اثر ذلك انهى الموظفون اضرابهم ، ثم تلاه قرار المحامين بالعودة الى أعمالهم . وقرار عمال العنابر والترام وغيرهم بالعودة كذلك الى العمل . وكان ذلك فى أواخر شهر أبريل .



ونحن نقف عند هذه الصور السريعة من أحداث ثورة سنة ١٩١٩ ، ونحيل القارئ الى قصتها الكاملة ، مسرودة بمراحلها المتتابعة ، بقلم أستاذنا المؤرخ الجليل عبد الرحمن الرافعى بك فى كتابه الجامع (ثورة سنة ١٩١٩) . وفى أثناء ذلك اضطرت بريطانيا ، على اثر تفاقم الحوادث ، واستمرارها بمصر ، الى تعيين الجنرال اللنبى مندوبا ساميا لمصر مكان السير ونجت ، ليعالج الحالة ، ويعمل على تهدئة البلاد . وكان أول ما عمله ، أن أصدر قرارا بالافراج عن سعد باشا ، وزملائه فى السابع من أبريل ، وأصدر بلاغا قال فيه : ان جميع المصريين أحرار فى مغادرة البلاد الى حيث شاءوا .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ثم كان سفر سعد باشا وعدد من أعضاء الوفد المصرى الى أوروبا . وكان من أولى الصدمات التى تلقاها الوفد ، وتلققتها مصر ، ما انتهى اليه مؤتمر الصلح الذى كان يتعقد عندئذ فى فرساي ، من النص ضمن شروط الصلح على اعتراف المانيا بالحماية التى أعلنتها بريطانيا على مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وهو ما قام الوفد بالاحتجاج عليه ، وتقييده فى مذكرة بعث بها الى رئيس مؤتمر الصلح المسيو جورج كليمنصو ، رئيس الوزارة الفرنسية .

وتلا ذلك ندب الحكومة البريطانية للجنة يرأسها اللورد ملنر وزير المستعمرات ، لكى تقوم بتحقيق أسباب الاضطرابات التى حدثت بمصر ، وتقديم تقريرها عن الحالة ، وما يجب وضعه من النظم التى تصلح ، فى ظل الحماية لتحقيق أسباب السلام والرخاء واليسر (سبتمبر سنة ١٩١٩) وقد أثار ندب هذه اللجنة الاستعمارية بمصر سخطا عاما ، ونظمت للاحتجاج على قدومها مظاهرات عديدة ، وتكررت الحوادث المؤسفة من اطلاق النار على المتظاهرين ، ووقوع الضحايا فى القاهرة والاسكندرية ، واضطرت وزارة سعيد باشا ، التى كانت فى الحكم يومئذ ، أن تقدم استقالتها .

ووصلت لجنة ملنر الى القاهرة فى أوائل ديسمبر ، فقابلتها الهيئات المختلفة بالاحتجاج والانكار لمهمتها الاستعمارية ، وقاطعتها سائر الهيئات ، وأعلنت اللجنة فى بيان أصدرته انها قدمت لاجل التوفيق بين أمانى الامة المصرية والمصالح الخاصة البريطانية ، ودعت اللجنة سائر الهيئات والاشخاص أن يمدوها بأرائهم .

ولكن لجنة ملنر لقيت فى مصر سخطا عاما ، وانكارا تاما

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

لمهمتها ، فعادت الى انجلترا ، وبعثت الى الوفد المصرى ، وهو فى باريس ، تطلب اليه ، أن يقدم الى لندن لمفاوضتها ، وأكدت له ، أنها سوف تكون مفاوضة حرة ، دون قيد ولا شرط . فاستقر رأى الوفد يومئذ على قبول الدعوة . والتقى باللجنة فى لندن . واسفرت المفاوضات بين الفريقين عن وضع مشروع معاهدة بين مصر وانجلترا ، قدمه اللورد ملنر الى الوفد ، فرفضه وقدم سعد باشا الى اللورد ملنر مشروعا آخر بانهاء الحماية ، وجلاء القوات البريطانية عن مصر . فرفضت اللجنة قبوله . ووضعت اللجنة مشروعا أخيرا من عندها ، ينص على أن تعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا العظمى ، تعترف فيها بريطانيا باستقلال مصر كدولة ملكية دستورية ، وتمنح بريطانيا العظمى الحقوق التى تلزم لصون مصالحها الخاصة ، وتعتقد بمقتضى تلك المعاهدة محالفة بين مصر وبريطانيا ، تتعهد بريطانيا بمقتضاها ان تعاون مصر على الدفاع عن سلامة أرضها ، وتمنح بريطانيا الحق فى ابقاء قوة عسكرية بمصر لحماية مواصلاتها ، وتنقل بمقتضى هذه المعاهدة حقوق الدول الاجنبية بمصر الى الحكومة البريطانية . الخ . وعرض الوفد المشروع على الامة لابداء رأيها فيه ، واتفقت آراء معظم الزعماء والهيئات على اعتباره حماية مقنعة ، ورفض قبوله أساسا للاتفاق بين بريطانيا ومصر .

وانتهى ذلك كله بالتقرير الذى وضعه اللورد ملنر عن مهمته، وهو يلخص حل المسألة المصرية على النحو الآتى (١) التوفيق بين أمانى مصر فى الاستقلال ومصالح انجلترا الجوهرية فى مصر ، ومصالح الاجانب فيها (٢) تسترشد مصر ببريطانيا فى علاقاتها الخارجية ، (٣) يكون لبريطانيا

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الحق في ابقاء قوة عسكرية بمصر لحماية سلامة مواصلاتها الامبراطورية (٤) يكون لبريطانيا مراقبة على التشريع المصرى والادارة المصرية فيما يختص بمصالح الاجانب المشروعة . (٥) تترك انجلترا لمصر شئونها الداخلية ، فيما عدا ذلك ، تتولاها بنفسها (٦) يستبعد السودان اطلاقا من هذه التسوية .

ثم تلا ذلك تبليغ اللورد اللبى الى السلطان فؤاد (الملك فيما بعد) ابان تعيين مصر وفدا رسميا للشروع فى تبادل الآراء مع الحكومة البريطانية فيما يختص بالاتفاق السنوى عقده ، وان الحكومة البريطانية قد قبلت التساهل فى امر الغاء الحماية قبل المفاوضات الرسمية .

وأعقب ذلك تأليف وزارة عدلى باشا التى سميت « وزارة الثقة » فى ١٦ مارس سنة ١٩٢١ ، وقامت هذه الوزارة بالمفاوضات مع الحكومة البريطانية ، ولم تحقق هذه المفاوضات بالطبع مطالب مصر وأمانيتها ، وانتهى الامر بأن أصدرت الحكومة البريطانية من جانبها ، فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، تصريحها المشهور ، وهو الذى أقره البرلمان الانجليزى ، وفيه تعلن الحكومة البريطانية ، انتهاء الحماية البريطانية على مصر ، وأن تكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وتسجل احتفاظها المطلق بتولى الأمور الآتية :

- (١) تأمين المواصلات الامبراطورية فى مصر .
- (٢) الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبى بالذات أو بالواسطة .
- (٣) حماية المصالح الاجنبية فى مصر وحماية الأقليات .
- (٤) السودان .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وبالرغم من أن تصريح قبرايير لم يحقق أماني الأمة كاملة ، فقد كان مع ذلك أول خطوة عملية في وضع أسس الاستقلال المصري ، وكان فيما بعد منطلق المعاهدة البريطانية المصرية ، التي عقدت بين البلدين في سنة ١٩٣٦ ، والتي كفلت لمصر استقلالها التام ، وسيادتها الفعلية ، التي استكملت فيما بعد بالفناء الامتيازات الاجنبية في سنة ١٩٤٩ ، ثم جلاء القوات البريطانية ، بعد ذلك ببضعة أعوام .

ونود ، بعد أن قدمنا هذه الصورة السريعة من ثورة ١٩١٩ ، حسبما عاصرناها وشهدناها ، أن نقول أن هذه الثورة ، كانت أعظم ثورة قامت بها مصر الحديثة ، وانها لم تكن ثورة طبقية ، أو مقتصرة على طوائف معينة من الأمة ، بل كانت ثورة وطنية عامة شملت طبقات الشعب المصري بأسرها من الفلاح ورجل الشارع الى أعلى الطبقات الراقية والميسورة ، والطبقات المثقفة والمفكرة على اختلاف أصنافها ، وجمعت هذه الطبقات كلها في صعيد واحد حول المطالب الوطنية . وكانت غايتها الاساسية والكبرى تحرير البلاد من ربة الحكم الاجنبي ، وتحقيق استقلالها ، وسيادتها القومية ، وجلاء القوات الاجنبية عن أراضيها ، وما من شك في أن ثورة سنة ١٩١٩ كانت هي أول خطوة حقيقية وعملية في تحقيق هذا الهدف . وكل ما وقع بعد ذلك من مراحل الاستقلال ، كان من نتائجها الايجابية .

وما يجب التنويه به في صدد المقارنة بين هذه الثورة الوطنية الكبرى ، وبين ما وقع في سنة ١٩٥٢ ، هو أن

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الانقلاب الذى وقع سنة ١٩٥٢ ، كان انقلابا عسكريا فقط ، ولم يكن ثورة شعبية ، ترتب عليه قيام الدكتاتورية العسكرية بمصر ، وإبعاد العناصر المدنية ، التى تتولى حكم الشعوب عادة عن الحكم ، وإفنائها بالتدريج حتى يبقى للعسكرية سلطانها المستمر الذى لا ينازع فيه . وفى ظل هذه الدكتاتورية العسكرية ، وقع ما يسمى بالثورة الاشتراكية ، التى تقوم على نهب أموال طبقات ، وإعطائها لطبقات أخرى ، وتقرير سيادة الكتلة العاملة بطريقة دستورية ، وإثارة بغض الطوائف بذلك بعضها لبعض بصورة حادة ، لم تعرفها مصر من قبل قط ، حيث كانت سائر طبقات الأمة وطوائفها تعيش فى مودة وتحاب ، وتحفظ كل منها للأخرى مكانتها وحقوقها وامتيازاتها . وهذا ما سوف تعرض إليه فيما بعد بتفصيل وإفاضة .

الحركة الكمالية

وثمة حركة أخرى كان لها صداها القوي فى مصر ، وقد وقعت أيضا ، وقت أن كنت أزاول مهنتى بميت غمر . وذلك أن الحرب قد نشبت فى سنة ١٩٢٥ بين تركيا واليونان ، وكانت اليونان ، قد بدأت عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى بغزو الأناضول ، وكانت تركيا يومئذ محطمة مهيضة الجناح ، لا تستطيع مقاومة فعالة . ولكن شاءت الظروف أن يتقدم يومئذ لقيادتها مصطفى كمال ، الذى بزغ نجمه فيما بعد . وأضحى زعيم تركيا الحديثة ومصالحها . فالتفت حوله قوى المقاومة ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

واستطاع أن يحصل على معاونات كثيرة من روسيا ،
سواء في السلاح والعدة ، أو الأقوات . ولم يلبث أن
انقلب الميزان ، ورجحت مقاومة تركيا ، وأخذت اليونان
بضغط المقاومة التركية من جهة ، وضغط السياسة
الدولية من جهة أخرى ، تنسحب من الأراضي التركية
شيئا فشيئا . وقد كنا يومئذ في مصر ، وفي مجتمعنا
بميت غمر ، نعطف أشد العطف على تركيا ، وعلى المقاومة
الكمالية ، وكنا نبذل جهودا متواصلة ، شملت سائر
طوائف الشعب لمعاونة تركيا بالأموال والأدوية وغيرها ،
فرحين بتقدمها في تحرير أرضها ، والانتصار على عدوها
التاريخي . وكنا سواء في المجتمع أو في الصحافة ، نبدي
أشد الإعجاب بمصطفى كمال قائد تركيا الحديثة ومنقذها ،
ولم تكن ندرى يومئذ أن هذا الزعيم ، سوف يتنكر بعد
ذلك ، وبعد أن اشتد ساعده ، للاسلام والعالم
الاسلامى ، واللغة العربية ، لغة القرآن ، ويعمل جاهدا
لمقاومة تراث الاسلام والعربية في تركيا ، ويصدر مختلف
القوانين للحد من آثاره ، ويأمر بإلغاء معظم الكلمات
والأصول العربية التي استعارتها اللغة التركية ،
واستبدالها بكلمات أوروبية حيثما اتفق ، وإلغاء الكتابة
العربية للغة التركية ، واستبدالها بحروف لاتينية ،
والغاء الأذان بالعربية ، ثم إلغاء الشريعة الإسلامية ،
التي كانت تقوم في تركيا مدى عصور على أساس الفقه
الحنفى ، واستبدالها بتشريعات أوروبية حديثة ، ألغيت
فيها سائر الاعتبارات الدينية ، وسمح بمقتضاها للمرأة
التركية المسلمة أن تتزوج بنصرانى ، بل لقد ذهبت
العصبية الكمالية فيما بعد الى محاولة إلغاء الصلاة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الإسلامية كلية ، واستبدالها بصلاة الوقوف بالأحذية في المسجد ، ومتابعة الموسيقى على نحو ما يتبع في الكنيسة النصرانية ، لولا ما أثارته هذه المحاولة الجريئة من السخط في سائر أنحاء العالم الإسلامي . والخاصة أن الحركة الكمالية التي حيوانها في البداية بفيض حينا و إعجابنا ، انتهت بمختلف المحاولات الى فصل تركيا عن العالم الإسلامي ، ومخاصمة سائر الأمم الإسلامية ، ومحاولة الاندماج في العالم الأوربي النصراني ، وهو ما ألعنا الى كثير من تفاصيله فيما بعد ، فيما كتبنا ، عما شاهدناه ودرسناه بأنفسنا خلال زيارتنا لتركيا الكمالية في سنة ١٩٢٧ . ولم تحاول تركيا تغيير هذا الجنوح الصارخ الى مخاصمة العالم العربي والإسلامي ، الا في الأعوام الأخيرة ، تحت ضغط الظروف والعوامل المختلفة ، وتحت ضغط مصالحتها المتدهورة . ونحن نعلم من تاريخ تركيا الحديثة ، أنها تسير مع سياسة الأخذ والعطاء من مختلف الدول ، ومبنيها سياسة الانتفاع والكسب ، بقطع النظر عن أية اعتبارات أدبية أو أخلاقية ، ووفقا لهذا المبدأ ، فقد كانت منذ البداية من الدول ذات العلاقات الودية والتجارية الوثيقة مع إسرائيل .

قصة الحزب الاشتراكي

ولابد لي أن أعقب هنا على ذكر حادث سياسي اشتركت فيه ، وكاد يحملني الى التيار الحزبي والسياسة المحلية ، وهو ما اجتنبته دائما ، وأحذر ما استطعت من التورط فيه .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ففي سنة ١٩٢٠ ، اجتمعت مع صديقي الدكتور علي العناني الاستاذ بمدرسة دار العلوم ، وكنا نشعر بالتعاطف المشترك لانتسابنا معا الى الأسرة العنانية الكبرى ، وكان قد عاد حديثا من بعثة علمية طويلة ، قضاها في ألمانيا خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها ، والاستاذ سلامة موسى وقد كان يومئذ كاتباً معروفاً ، تقرأ مقالاته في مجلة الهلال وغيرها من المجلات والصحف ، وتحدثنا في وجوب القيام بعمل ايجابي في أعقاب الثورة الكبرى - ثورة سنة ١٩١٩ - الى جانب الجهود التي تبذل في سبيل تحقيق أماني مصر في استرداد حريتها وتحقيق استقلالها . واقترح الاستاذ سلامة موسى حسبما أذكر أن تؤسس حزبا اشتراكيا ، لأن هذا النوع من الاحزاب لم يكن قد عرف بعد في مصر ، و أيدناه في ذلك أنا والدكتور العناني وكان ذا نزعة اشتراكية حملها معه من ألمانيا . واتفقنا على أن نصدر في ذلك بيانا يعلن فيه هذه الفكرة ، وما ترمى اليه من العمل على تأييد قضية الحرية والاستقلال . وقد صدر هذا البيان بعد أن قمت أنا بتحريره واشترك معي زميلاي في تنسيقه وتعديله الى الصيغة المرغوبة ، ونشر في الصحف الكبرى مذيلا بتوقيعنا ، واتفق على أن أتولى سكرتارية الحزب المذكور حتى يتم انشاؤه .

واليك نص البيان المذكور :

« ويحمل البيان حملة شديدة على الاستعمار البريطاني ، واعتدائه على استقلال مصر ، واخضاعها لسيادته ، وكذلك على اعتدائه على السودان ، تبعا لهذا الاعتداء ، ويطالب بريطانيا برفع سيادتها عن مصر ، ورد استقلالها اليها ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ويطالب فوق ذلك بأن ترفع بريطانيا يدها عن وادي النيل كله بمصره وسودانه ، وينذر السياسة البريطانية ، بأن مصر لن تتوائى عن الصراع المستمر ضد الاستعمار البريطانى ، ومقاومته بكافة الوسائل ، حتى تتحقق لمصر سيادتها واستقلالها الكامل .

وأود أن أبادر بالقول بأن فهمى لمهمة الحزب المذكور يومئذ ، لم يكن منصبا على أغراض اقتصادية أو طبقية مما تدعو إليه النظرية الاشتراكية . وقد درست الاشتراكية مع بقية المذاهب الاجتماعية الحديثة بكلية الحقوق فيما كان يسمى يومئذ « بالعلوم السياسية » « **Political science** » ولكنه كان منصبا على

المعنى السياسى ، وعلى ما ترمى إليه الأمانى المصرية من تحقيق الحرية والاستقلال . وقد أوضحنا فى بياننا أننا نرمى الى العمل على تحرير مصر ، بل وعلى تحرير وادي النيل كله من قبضة الاستعمار . ولما كان هذا الحزب جديدا فى اسمه ونوعه ، فقد أقبل كثير من الشباب على الاشتراك فيه ، واتخذنا شقة فى العمارة المواجهة لحديقة الأزبكية على مقربة من ميدان الخازندار لتكون مكتبا للحزب واجتماعاته . وكنت يومئذ ما زلت أمارس مهنتى فى المحاماة بميت غمر وأقضى أواخر الأسبوع بالقاهرة ، وأهتم بتنظيم شئون الحزب الجديد بقدر الامكان . وكان من أهم ما قام به الحزب عقب تكوينه أمران ، الاول ، هو لقاء المرحوم سعد زغلول باشا زعيم الأمة ، ورئيس حزب الوفد يومئذ ، فذهبنا الى لقائه بموعد فى بيت الأمة ، واستقبلنا مع عدد من أعضاء الوفد ، وألقيت بين يديه خطابا قصيرا نوهت فيه بإنشاء

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الحزب الاشتراكي . وأشارت فيه الى ما اتسم به سعد باشا من الشجاعة والبسالة ، وكونه لم يخش سطوة الانجليز ولا حراهم المشهورة . فلاحظ سعد باشا على ذلك مبتسما بقوله : « بل كنا خايفين شوية » . والامر الثانى هو أننا أقمنا حفلة شاي احتفالا بقاء نواب حزب العمال البريطانى ، وكانوا ثلاثة ، وفدوا الى القاهرة لدراسة المسألة المصرية ، وذلك بنادى حديقة «السيروس» الواقع يومئذ في منتصف سليمان باشا ، وألقيت أنا فيها كلمة بالانجليزية نوهت فيها بأهمية القضية المصرية وعدالتها ، ورجوت تعضيد حزب العمال البريطانى لها ، وسعيهم الى حلها بطريقة عادلة محققة للأمانى المصرية .

واستمر الحزب الجديد في طريقه بعض الوقت على وضعه الذى أشرت اليه . ولم تشمل حفلات أو تلقى محاضرات ، اذ كنا نجوز مرحلة التأسيس والتجمع ، ولم يوضع برنامج معين للحزب ، اكتفاء بالبيان التأسيسى الذى نشر في ذلك . وبينما نحن في هذا الوضع التمهيدي اذ طرأ على الحزب عنصر جديد ، يتمثل في انضمام اثنين من دعاة الاشتراكية القدامى اليه ، هما الاستاذ حسنى العربى ، وهو من أعيان المحلة الكبرى ، وكانت له سوابق في الدعوة الى اعتناق الاشتراكية ، والمسيو روزنتال الجوهري بالإسكندرية ، وكان له في هذا الميدان نشاط معروف وذائع . وقد تبين منذ البداية أن هذين العضوين الجديدين كانا مدربين على أعمال الدعاية ، كما تبين أن مسيو روزنتال كانت له صلوات بالحزب الشيوعى الروسى وغيره من الهيئات الاشتراكية الأوروبية ، وأنه كان ينفق بعض المال في سبيل الدعاية الاشتراكية وغير ذلك وكذا

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

كان يعمل زميله الاستاذ العرابى . كذلك تبين انهما يسميان الى أن تكون لهما مساهمة فعالة ، بل مساهمة قيادية فى تسيير الحزب والسيطرة على توجيهه . وفى هذه الفترة بالذات كان يأتى بعض الرسل من وافدى أوربا يدعى بعضهم الانتماء الى بعض الاحزاب الاشتراكية والشيوعية الاوربية ، ويدعوننا الى الاتصال بأحزابهم .

وهكذا بدأت تتضح المساعى التى نظمت لتحويل الحزب الاشتراكى فى هيئة عاملة لبث المبادئ الاشتراكية والشيوعية ، ومحاولة الاتصال بالاحزاب الاوربية ، وتنظيم علاقات معها ، وتحوله بذلك عن غايته الاصلية التى أنشأناه من أجلها ، وهى تدعيم الجهود التى تبذل لحل القضية المصرية ، وحصول مصر على استقلالها وحرىاتها ، وهنا أخذت السلطات تراقب الحزب ونشاطه ومن يتردد عليه . وكان من المبعوثين الذين حاولوا الاتصال بالحزب وتوجيه نشاطه ، شاب أوربى يدعى أفجدور ، والغالب فى الدعوة الى العمل ، والاتصال بالأحزاب الخارجية ، والنضال ضد الاستعمار والنظم المستعيدة ، وغير ذلك . وكان عنيفا فى خطبه ودعوته ، فلفت اليه نظر السلطات وقبض عليه . ودعيت أنا والدكتور على العنانى وسلامة موسى الى الشهادة بما نعلم عنه وعن أعمال الحزب واتجاهاته . وكان التحقيق أمام رئيس نيابة مصر بمبنى محكمة الاستئناف بباب الخلق ، فأدلىنا بأقوالنا ، وسرد كل منا قصة انشاء الحزب وأغراضه كما وقعت ، وقدمنا الى النيابة بيانه التأسيسى الذى سبق نشره فى الصحف .

وهنا شعرنا نحن الثلاثة بأن الأمور قد خرجت من

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

أيدينا ، وأن الاستمرار في وجودنا على رأس الحزب أو حتى بين أعضائه مما يثير الشبهات حولنا دون مبرر ، خصوصا وأن هذا الاتجاه الذي يأخذه الحزب تحت توجيه العرابي وروزنتال ، كان توجيهها شيوعيا صريحا . ومن ثم فقد استقلنا من عضوية الحزب وتركناه وشأنه ، ونشرنا بذلك بيانا موجزا في جريدة الاهرام ، ذكرنا فيه أننا قد اعتزلنا العضوية وتركنا الحزب لمعارضتنا في قيام الدعوة الى الشيوعية التي غلبت عليه في الفترة الأخيرة . وكان ذلك ختام هذه الحركة الصغرى البريئة التي كنا نؤمل أن تكون مفيدة ومؤيدة لحركة الاستقلال السياسية ، وهي التي بدأت تحتل في ذلك الوقت مكانها في عرين الصراع الحزبي المعروف .

ولم يخالجنى منذ ذلك الحين أى شعور أو أية رغبة بالانضمام الى أية هيئة سياسية أو أى حزب سياسى ، أو اعتناق أية آراء حزبية معينة ، ولبثت طوال حياتى بعد ذلك بعيدا كل البعد عن هذا المعتك ، لا يحركنى سوى شعورى المصرى الصميم ، واتجاهاتى المصرية الخالصة ، وذلك حسبما نوهت في مقدمة هذه المذكرات .

النزول الى ميدان الصحافة

وفي سنة ١٩٢٤ كان اتصالى بجريدة « السياسة » ، وكانت تصدر يومئذ باعتبارها لسان حال حزب الأحرار الدستوريين . وكان صدورها قبل ذلك بعامين حادثا مدويا في عالم الصحافة المصرية ، وذلك لما احتشد في تحريرها من أكابر كتاب العصر ، ولما كانت تبتكره من

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

أبواب جديدة في الفن الصحفي . وكان رئيس تحريرها يومئذ المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، وقد لبث في هذه الرياسة أعواما طويلة ، حتى تطورت الأحوال السياسية واحتجبت السياسة . وكان يعاونه في تحريرها يومئذ رهط من أعلام الكتاب والصحفيين ، أمثال الدكتور طه حسين ، والاستاذ توفيق دياب ، والاستاذ محمود عزمى بعد ذلك بقليل ، والاستاذ عبد الحميد حمدى ، وغيرهم . ويشترك في تحريرها من الخارج أصدقاء أعلام مثل المرحومين الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، وأخيه على عبد الرزاق ، والشيخ عبد العزيز البشري ، والدكتور محمد ولى ، والدكتور محمد صبرى السوربونى ، والاستاذ المازنى ، وغيرهم . وقد كان من حظى أن التحق بهذا الحشد اللامع من رجال الفكر والقلم ، وذلك في ظروف لم تكن تخطر ببالى . وكان الفضل في ذلك يرجع الى صديقى وبلدى ، المرحوم الدكتور سيد بك شكرى ، وكان يومئذ مديرا لمستشفى زفتى الاميرى ، وكان يسكن في الضفة الاخرى بميت غمر ، وموظفين في مقهى ميت غمر الكبير الفاخر المسمى بمقهى « بابا » ، وأحب بهذه المناسبة أن انوه بما كانت عليه مدينة ميت غمر من الجمال ، وروعة موقعها وكورنيشها على النيل ، مقابل قرينتها مدينة زفتى ، وبفخامة صروحها ومبانيها ومنتدياتها ، وجمال تخطيطها ونظافتها . وقد كان ذلك يرجع أولا الى غنى ميت غمر ورخائها ، وكثرة رجال المال والأعمال من أعيانها ، وثانيا الى أنه كانت بها جالية يونانية كبيرة نشيطة ، انشأت بها كثيرا من المحال والمنتديات الجميلة من مقاه ومطاعم وفنادق ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ومنها مقهى بابا الفخم الكبير . وكنت أقول دائما أن بلدتي ميت غمر هي أجمل مراكز القطر المصري ، وأن مدينة المنصورة بندر مديرتى الدقهلية ، هي أجمل بنادر القطر المصري . وقد كان جمال المنصورة في ذلك العهد يرجع الى وجود المحاكم المختلطة بها ، وهى تضم جالية أجنبية مختارة من القضاة والمحامين والموظفين القضائيين ، هذا الى جالية أخرى يونانية كبيرة نشطة على منوال جالية ميت غمر ، ثم الى وجود عدد كبير من البيوتات العريقة والارستقراطية ، ولكن من شديد الأسف أن تغيرت الظروف ، وتطورت الأحوال في معظم المدن المصرية في العهد الأخير ، وفقدت كثيرا من جمالها السابق وفخامتها القديمة . وذلك لاختلاف موازينها الاجتماعية ، نتيجة ما وقع من تغييرات طبقية مفتعلة بقوة التشريع . وكانت خسارة المنصورة وميت غمر في ذلك كبيرة ، أولا ، لانهاء عهد المحاكم المختلطة ، ونزوح الجاليات الأجنبية عنها نظرا لما وقع من مطاردتها دون تفريق بين العناصر النشطة الشريفة ، والعناصر السيئة ، وثالثا لسوء الأحوال الاقتصادية ، وزحف الفقر الى معظم الطبقات ، وانخفاض المعايير ، والتدهور الأدبى والمعنوى الذى أصاب المجتمع المصرى في العهد الأخير .

صداقة العمر

وأعود بعد ذلك الى موضوعى الأصلى ، وهو اتصالى بجريدة السياسة ، وفضل صديقى المرحوم الدكتور سيد بك شكرى فى عقد هذا الاتصال . وكانت تربط الدكتور صداقة متينة العرى بالمرحوم الدكتور حافظ

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

عفيفى (باشا) زميله فى الدراسة بمصر وأوربا ، وكان يومئذ من أقطاب الأحرار الدستوريين ، ويتولى إدارة جريدة السياسة العليا . وكانت السياسة تصدر يومئذ عن دارها الأولى فى شارع المتديان ، فقدمنى إليه الدكتور شكرى ، وأطنب فيما كنت أتمتع به من معارف ومزايا لغوية وتحريرية . ووافق الدكتور عفيفى فى الحال على أن يضمنى الى تحرير السياسة . وكان ذلك فى أواسط سنة ١٩٢٤ . وكانت هذه الصلة الأولى بينى وبين الدكتور عفيفى ، بداية لما أصبح فيما بعد صداقة العمر بينى وبينه . وسرعان ما شعرت بما تنطوى عليه هذه الشخصية المصرية الفذة - شخصية حافظ عفيفى - من صفات ممتازة ، وأخلاق رفيعة ، ومواهب أدبية وفنية لامعة . وكان الدكتور هيكل قد عهد الى بأن أقوم بتحرير عمود الصفحة الأولى من السياسة الذى يحمل عنوان « أخبار خارجية » . وكانت تربطنى به الصفة المهنية ، صفة المحامى ، وكان قد اشتغل بالمحاماة وقتا ثم اعتزلها ، ثم ظهر بمقالاته التى كانت تنشرها جريدة الأهرام حول الأحداث المصرية ، والتطورات السياسية التى كانت تتوالى فى ذلك الوقت . وكنت أشعر أن هذه الرابطة الأدبية مما يقوى صلاتنا الصحفية . هذا الى ما كان يمتاز به الدكتور هيكل من رقة وأدب جم ، وحديث ممتع ومعارف واسعة . وكان صدور جريدة « السياسة » فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، حادثا صحفيا عظيما ، لا لأنها كانت فقط لسانا لحزب قوى يضم طائفة من أقطاب السياسة المصرية ، ولكن لأنها كانت بالأخص منذ صدورها ، حسبما أسلفنا مسرحا لأقلام جمهرة من

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

أعلام الكتاب والصحفيين ، الذين كان لهم أثر كبير في سير النهضة الأدبية والصحفية . . وكانت نقد عن كونها صحيفة رأى ، وصحيفة كفاح حزبي ، فتحا جديدا في الفن الصحفي ذاته . وقد اشتهرت بصحفها الأدبية والعلمية والفنية والاقتصادية والزراعية التي كان يحررها أكابر الاخصائيين ، كما اشتهرت بمقالاتها السياسية ، وأسلوبها الأدبي الرفيع . وكان لمقالها السياسي الرئيسي « حديث اليوم » ، وهو الذي كان يحرره على الاغلب الدكتور هيكل دائما وقع ملحوظ في الدوائر السياسية ، نظرا لصفته الحزبية ، ولما كان يمتاز به من قوة الحججة وبلاغة الأسلوب وكان من وراء السياسة بعض أقطاب الحزب الممتازين يوجهونها ويفقدونها بأرائهم ومعلوماتهم . وكان في مقدمة هؤلاء الدكتور حافظ عفيفي بك ، فقد كان له أعظم أثر في توجيه جريدة السياسة وتنسيقها واختيار موضوعاتها ، وتزويدها بكثير من الآراء والمعلومات القيمة . واشتهرت السياسة أيضا بمحاضرها البرلمانية الشهيرة التي كان يحررها الأستاذ محمود عزمي أيام وزارة سعد باشا ، والتي كان من أثر تصويرها اللاذع أن منعت السياسة من شهود جلسات البرلمان . وفي وزارة سعد باشا أيضا صودرت السياسة وأغلقت بطبعتها أيما وقدم رئيس تحريرها وصاحب امتيازها الى محكمة الجنايات في يونيو سنة ١٩٢٤ لحملتها على البرلمان الوفدي في مقالات رنانة عنوانها «حزب الستمائة» . ولكن حكم القضاء بالافراج عن مطبعتها ، قضى على رئيس تحريرها بالفرامة . واستأنفت السياسة صدورها أشد ما تكون عزمًا على النضال ، وبلغت يومئذ ذروة الانتشار ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

اذ كانت تطبع نحو أربعين ألف نسخة ، وهو رقم لم تلبفه
أية جريدة مصرية أخرى من قبل .

التزام وحياد

وهكذا بدأت عملي في السياسة بتحرير باب « الاخبار
الخارجية » ، وكنت أستعين على تحريره بقراءة
الصحف الانجليزية والفرنسية ، واختيار ما أستطيع
منها من النبد الاخبارية الطريفة . وكان الدكتور عفيفي
من جانبه يقدم الى من آن الأخر بعض اعداد من الصحف
الفرنسية التي قرأها ، ووقع فيها على بعض
الاخبار والنبد الشائقة ولا سيما جريدتي « الجورنال »
و « الكوتيديان » . وكان هذا التعاون بيننا يقوى
ويتوثق مع الزمن ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت
انشر في صحف السياسة الخاصة (الثانية أو الثالثة)
بعض البحوث التاريخية مما كنت قد أعدته من قبل ،
أو وقع اختياري عليه ، وأذكر من ذلك قصلا عن
« العقاب والتعذيب في العصور الوسطى » وبحثا عن
ابن خلدون عنوانه « ابن خلدون مؤرخ الحضارة في
القرن الرابع عشر » بقلم المستشرق « فون فيسندنك »
ترجمته عن مجلة « دويتشه روتشسارد » الالمانية ،
وغيرهما . وهكذا ألفت الميدان أمامي فسيحا للتحرير
والنشر ، في جريدة محترمة ، وفي وسط رفيع من
أكابر كتاب العصر ، وإلى جانب نخبة من رجالات مصر ،
الذين كانت تحفل بهم دار السياسة باستمرار ، وأود
أن أنوه هنا بحقيقة بارزة ، هو أنني بالرغم من مساهمتي

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

فى تحرير جريدة السياسة ، لسان حزب الاحرار
الدستوريين واتصالى بكثير من اقطاب هذا الحزب ،
فانه لم يخطر ببالى مطلقا ، أن اتجه الى هذه
الناحية الحزبية ، أو اتسم بها بأية حال . بل ولقد
حرصت أشد الحرص على أن لا أغمس قلمى فى أية
موضوع سياسى محلى أو حزبى ، لانى كنت ألتزم أشد
الالتزام بصفى المصرية ، ولا أبغى نزوعا عنها لاية
ناحية حزبية . ولقد كان المشرفون على تحرير
السياسة ، وفى مقدمتهم الدكتور هيكل ، والدكتور
حافظ عفيفى ، يشعرون منى بهذا الالتزام ، وهذا
المزوف المطلق عن الاتجاهات الحزبية ، ويحترمون
عزلى وشعورى ، ويوقنسون أنى أدين بمبدأ مخلص
لا تشوبه أية شائبة ، ولقد كنت حينما توالت بى الاعوام
فى تحرير السياسة ، وأضحى من واجبى أن أساهم
فى تحرير افتتاحيات الجريدة ، ألتزم الكتابة فى
السياسة الدولية ، أو الشئون الدستورية ، وشئون
الامتيازات الاجنبية ، والقضاء المختلط وكان لى بالأخص
فى شئون الامتيازات الاجنبية والقضاء المختلط حملات
شدائد ، كان لها تأثيرها العملى . وأذكر من ذلك
أننى عقب وفاة المسيو ستولوف القاضى الروسى بالمحكمة
المختلطة (سنة ١٩٢٧) ، ومحاولة اختيار قاض اجنبى
مكانه ، اننى نشرت فى السياسة مقالا شديد اللهجة ،
بينت فيه أن روسيا السوفيتية . لم تعد لها أية
امتيازات اجنبية ، وان مصر لم تعترف بها ، وان
مكان القاضى المتوفى يجب أن يخرج عن سلطان القضاء
المختلط ، الى نطاق السيادة المصرية ، وأنه من حق مصر

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

أن تعين قاضيا مصرياً في هذا المنصب القضائي اللد آل اليها بفقدان روسيا البلشيفية لامتيازاتها القديمة ، وقد كان لهذا المقال أثر عميق في الاوساط القضائية ، وكان من أثره أن تراجع محكمة الاستئناف المختلطة عن محاولتها ، وعينت الحكومة المصرية قاضيا مصرياً مكان القاضي المتوفى ، هو المرحوم عبد السلام ذهني .

وكان من آثار وجودي في تحرير السياسة ، أن اتصلت فيمن اتصلت بهم ، بآل عبد الرازق : مصطفى عبد الرازق ، وعلى عبد الرازق ، ومحمود عبد الرازق ، وكان مصطفى وعلى يكتبان في السياسة من آن الآخر . وكان أخوهم محمود باشا من قادة حزب الاحرار الدستوريين ، بل قائده الاول ، وكنت أتردد من آن لآخر مع الدكتور هيكل على منزل آل عبد الرازق الواقع خلف سراي عابدين ، وسرعان ما أدركت ما كانت عليه هذه الاسرة من العراقة والنبيل ، وما كان عليه اولئك الاخوة الثلاثة من رفيع الخلال ، بل أستطيع أن أقول اني لم أشهد بين الاسر المصرية العريقة أسرة تضارع آل عبد الرازق في رقة الخلال ، وفي الكرم ، والادب ، والتواضع ورحابة الصدر . أذكر اني كنت مع الدكتور هيكل ذات يوم في حديقة منزل آل عبد الرازق ، وجاء السفرجي يقول « تفضلوا ، الاكل جاهز » ، فقامت استاذن الدكتور هيكل في الانصراف ، فقال لي : « الى اين » ، فقلت : « اني لم أدع الى الفداء » فقال : « وأنا كذلك لم أدع ، ولكن تقليد آل عبد الرازق أن يشترك دائماً في السفارة من وجد من الأصدقاء والزوار ، أكانوا من المدعويين أم لا . ولقد توثقت علاقتي على من

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الايام بالاستاذين الكبيرين مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق . وكان الاستاذ على في أواسط العشرينيات يشرف على اصدار مجلة شهرية ، تسمى مجلة الرابطة الشرقية تعنى بشئون الامم الاسلامية الشرقية ، فدعاني الى المساهمة في تحريرها ، فاستجبت مفتبطا وكانت تطبع في مطبعة أحمد باشا شفيق الخاصة التي يقسوم بطبع « حولياته السياسية » فيها فتعرفت به ، وأردت هذه الصلة فيما بعد الى أن طلب منى شفيق باشا مساعدته على تنظيم مذكراته . وكان يقيم في شبرا في فيلته المطة على النيل . وكنت فيما بعد أسكن في شبرا قريبا منه ، فكان هذا القرب مما سهل على تحقيق رغبته في تنظيم هذه المذكرات الهامة ، التي نشرت فيما بعد تحت عنوان « مذكراتي في نصف قرن » ، وكان لما ورد فيها دوى شديد في قصر عابدين ، ودعى شفيق باشا للتحقيق معه في بعض ما ورد فيها ، وسحبت نسخها من المكتبات . وأذكر بهذه المناسبة أنني التقيت لدى شفيق باشا لأول مرة بالآنسة مي زيادة ، ابنة الصحفي المعروف الاستاذ الياس زيادة ، صاحب جريدة « المحروسة » وكانت يومئذ قد ذاعت شهرتها الادبية . وكانت في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها فتاة متوسطة القوام تميل الى السمر ، ولكن السحر كان ينفث من عينيها ومن حركاتها وألفاظها وقد التقيت بها فيما بعد في احدى حفلات نادى القلم ، ثم توطدت بيننا وأصر مودة أشير اليها فيما بعد .

وهنا أقف قليلا ، لاعطف على ذكر حادثين وقعا وقت اوائل عملي في السياسة ، وكان لهما أثر عظيم في

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

حياتي الادبية . أولهما صدور كتابي « تاريخ العرب في اسبانيا » (سنة ١٩٢٤) وقد كان مجهودا متواضعا ، ولكن حسن التنسيق ، غنى المادة ، ويشتمل على موجز في تاريخ الاندلس منذ الفتح ، حتى عصر الناصر لدين الله (في نحو مائة صفحة) ، وكنت قد بدأت في كتابته منذ أيام دراستي في الحقوق ، وقرأت من أجله عددا من المصادر العربية الجامعة ، وبعض المصادر الاوربية مثل دوزي ولاين بول ، وقد كانت هذه الفاتحة الاولى في البحوث الاندلسية رغم ضآلتها أساس مجهوداتي الكثيفة الواسعة النطاق فيما بعد ، في ميدان الدراسات الاندلسية ، ودليلا اتبعته في تنظيم مراحل التاريخ الاندلسي في موسوعي الاندلسية ، التي اشتملت من أجلها فيما بعد زهاء عشرين عاما في مدريد والاسكوريال وغرناطة والمغرب وغيرها ، والتي تبلغ سبعة مجلدات كبيرة ، تشغل نحو خمسة آلاف صفحة .

والحادث الثاني هو انضمامي الى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، التي أسست في سنة ١٩١٤ ، وكنت قد سمعت عن تنظيمها ونشاطها الادبي من زميلي المرحوم . الاستاذ يوسف الجندى المحامي ، وقت عملي بميت غمر ، وكان عضوا بها ، فسعيت الى الالتحاق بها ، وقابلت من أجل ذلك رئيسها صديقي المرحوم العلامة الكبير الاستاذ أحمد أمين ، وكان يومئذ قاضيا شرعيا بمحكمة السبئية ، وعرضت عليه رغبتى ، فرحب بها ، والتحقت عضوا باللجنة ، وقمت بشراء الاسهم المقررة لعضويتها ، وكان ذلك في سنة ١٩٢٣ ، وما زلت عضوا بها حتى كتابة هذه السطور ، وذلك بالرغم مما آلت اليه

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

جودها من الضعف والاضمحلال ، وما رزئت به من وفاة معظم أعضائها العاملين على التوالي . وقد كانت هذه اللجنة الادبية الجليلة ، أيام ازدهارها تضم رهطا كبيرا من اعلام رجال التربية والعلماء والكتاب والإدباء والشعراء المعاصرين ، أذكر منهم على سبيل المثال ، عدا رئيسها الاستاذ أحمد أمين ، أحمد لطفى السيد ، أحمد نجيب هاشم ، الدكتور طه حسين ، الدكتور عبد الرازق السنهورى ، الاستاذ أحمد حسن الزيات ، الاستاذ محمد فريد أبو حديد ، الاستاذ اسماعيل القباني ، الدكتور حسين حسنى ، الاستاذ محمد بدران ، الدكتور أحمد زكى ، الدكتور محمد عوض محمد ، الدكتور عبد السلام الكرنانى ، الاستاذ الدمرداش محمد ، الدكتور سيد باشه ، الاستاذ مختار رسمة ، الاستاذ حسن جلال ، الاستاذ عبد الحميد العبادى ، الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، الاستاذ يوسف الجنسدى ، الاستاذ صبرى أبو علم ، الاستاذ مرسى قنديل ، الاستاذ راشد رسم ، الاستاذ عوض لطفى ، الدكتور محمود القوصى ، وغيرهم وغيرهم . وقد لقي معظم هؤلاء الأعضاء الإجلاء ، ويتم تباعا ، ولم يبق من الأعضاء الأحياء العاملين سوى قلة ، فرحم الله من توفى منهم ، ومد الله فى عمر من بقى منهم ، وقد لبث أعضاء لجنة التأليف والترجمة ومعظمهم من أكابر رجال التربية دهرا يسهرون على تربية الاجيال المتصاعدة من الشباب ، وكان جلهم من خريجي مدرسة المعلمين العليا ، وقد تولى وزارة التربية والتعليم منهم عدة ، وتولى البعض وزارة الشؤون الاجتماعية ، والله يجزيهم خير الجزاء على ما قدموا لوطنهم من جليل الخدمات .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وقد تولت اللجنة نشر بعض كتبى : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ، تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين . المترجم عن الالمانية ، ولكنى لم اتابع نشر كتبى بها ، لما آنسته من ضعف جهودها فى التابع والتوزيع .

وقد قامت اللجنة ، خلال حياتها الطويلة ، بنشر عشرات من الكتب العلمية والادبية ، وكتب التراث . وقامت بالاخص بنشر كثير من الكتب الدراسية التى تتعلق بالتعليمين الابتدائى والنانوى من تأليف اعضائها ، وجأهم كما أسلفنا من اعلام رجال التربية . وكان معظمها تقرره وزارة التربية ولتلاميذ المدارس ، وكانت ائتمان هذه الكتب الدراسية ، تكون موردا من اهم موارد اللجنة المالية .

وكان للجنة اثرها البارز فى سير الحركة العلمية والادبية فى نصف القرن الماضى ، بما كان تنشره من الكتب والجموعات الادبية والفنية ، وبما كانت تعقده من ندواتها الادبية ، وكانت هذه الندوات تعقد بانتظام فى مساء كل خميس ، ويجتمع فيها رهط من العلماء والادباء من اعضاء اللجنة وغيرهم من الزملاء والاصدقاء ، وضيوف مصر من ادباء البلاد العربية ، ويجرى تبادل الافكار والاحاديث الادبية من كل لون . واذا كان من حظ الندوة ، أن يحضرها المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري ، وقد كان صديقا حميما لنا جميعا ، فقد كانت نكاته النادرة الاخاذة ، تبعث فينا جميعا من الضحك والبشر ما ترتاح اليه النفوس ، وتنتعش القلوب .

تصاؤل وتشاؤم !

وكانت ندوات اللجنة تشغل فى البداية بالاخبار

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

والمناقشات ، الادبية . وكان المرحوم الاستاذ كامل كيلانى يحاول دائما أن يجعل من ابن الرومى وأخباره وأشعاره موضع النقاش ، ويجادل أن يستغرق فى ذلك الوقت لولا أن كنا نوقفه عند حده . ويتحفنا المرحوم الاستاذ أحمد الزين بانشاد ما لم ينشر من أشعاره وفيها الكثير من الجيد والطريف ، ويشير كل منا ما يرد على خاطره من الاخبار والطسراف الادبية والتاريخية . فلما وقعت « ثورة ٢٢ يوليه ، وقام النظام العسكرى الجديد ، كانت الاوضاع والاحوال الجديدة ، تشغل حيزا كبيرا من مناقشات الندوة . وكان التفاؤل بالعهد الجديد وأحواله ، يقلب على معظم الاخوان من أعضاء اللجنة ، ولا سيما فى الاعوام الاولى . وكنت وحدى أخالف هذه النزعة ، وأبدى تشاؤمى وتخوفى من تطور الاحوال الجديدة ، والاخوان جميعا يقابلون تشاؤمى بالاعتراض واللوم . فلما مضت الاعوام ، أخذ معظم الاخوان يغير رأيه ، ويبدون موافقتهم لوقفى وآرائى ، ويقولون « عنان كان عنده حق فى تشاؤمه » « عنان كان أبعد منا نظرا الخ » . ثم أخذت هذه المناقشات السياسية بطبيعتها تتضاءل ، ويعدل عنها لما كانت تثيره عندئذ من حدة المناقشات وعنفيها ، وأخذت مناقشات الندوة طابعها الادبى المعتاد .

وكان للجنة دار خاصة ، وبها مطبعة كبيرة تقوم على طبع كتبها وغيرها من الكتب العلمية ، وكانت تسير بخطوات ناجحة ، لولا ما توالى فى أواخر عهدها من مشاكل العمال التى أثارها التشريعات العمالية المفرقة ، والتى ذهبت فى التحيز للعمال والأغداق عليهم الى حدود غير معقولة ، والتى كادت أخيرا أن تشل كل شىء فى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

نشاط اللجنة ، وتستنزف كل مواردها . ومن ثم فقد اضطرت اللجنة الى أن تتصرف فى دارها وفى مطبعتها بالبيع البخس ، تخلصا من هذه المشاكل . وهى مازالت تعمل حتى اليوم ، بالرغم من ضعف مواردها على نشر كتبها القديمة ، ونشر القليل من الكتب الجديدة . ويجرى اتجاه البقية الباقية من أعضائها الى تصفيتها تصفة نهائية ، والله يعمل ما فيه الخير .

* * *

هذا ، وقد كانت الخلافات الحزبية ، قد أخذت تشتد يومئذ بين مختلف الأحزاب والهيئات السياسية . وفى غمرة هذا الخلاف ، وقع حادثان يتعلقان بحرية الفكر والقلم . هما قضية كتاب « الادب الجاهلى » ، وكتاب « الاسلام وأصول الحكم » .
فأما القضية الاولى ، وهى قضية كتاب « الادب الجاهلى » ، الذى وضعه الدكتور طه حسين ، فقد أثرت فى الدوائر الازهرية عقب صدور هذا الكتاب ضجة مفتعلة ، وطالب ليف من أكابر علماء الازهر بالتحقيق مع مؤلف الكتاب لبعض ما ورد فيه مما يعتبر مساسا بالدين الاسلامى ، فنزلت النيابة العمومية عند رغبتهم ، ودعى الدكتور طه حسين أمام النيابة للتحقيق معه فى هذه التهمة . وكان الشعور واضحا بأن هذه الحركة انما دبرت ضد حزب الاحرار الدستوريين ، الذى ينتمى اليه مؤلف الكتاب . ونصح الدكتور طه حسين من محامى الحزب ، وفى مقدمتهم رئيسه يومئذ المرحوم عبد العزيز باشا فهمى ، ألا يجيب عن أى سؤال للنيابة ، وأن يكون رده دائما بقوله « لا أجيب » . وعمل الدكتور طه حسين بهذه النصيحة ، ورفض الإجابة ، على

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

أى سؤال وجهته النيابة إليه . ولم تستطع النيابة أن تجد مجالات تقوم ضده بأى إجراء جنائى . وبعد ذلك بقليل ، ظهر كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لمؤلفه الأستاذ على عبد الرازق ، فى أبريل سنة ١٩٢٥ ، فأثار ظهوره ضجة جديدة اتسمت بشيء من الخطورة ، لما كان له من صلة وثيقة بمسألة الخلافة الإسلامية ، التى كانت تتبعه إليها يومئذ بعض الاطماع الملوكية ، وكان لمؤلف الكتاب ، رأى جديد فى الخلافة الإسلامية . وهى « انها كانت حكومة لادينية ، وان الله لم يكلف المسلمين بأن يكون لهم خليفة ، وان الإسلام لم يقرر نوعا معيناً من الحكومة ، وان الخلافة ليست نظاماً دينياً ، والقسر أن الكريم لم يأمر بها ، ولم يشر إليها ، وان الدين الإسلامى برىء من نظام الخلافة ، وبرىء من الأدوات التى عصفت بها ، وعملت كثيراً على تأخير المسلمين » . وقد صدرت هذه الآراء العلمية الجريئة المبتكرة فى ظرف كانت الخلافة الإسلامية فيه ، بعد أن ألغيت فى تركيا الكمالية ، موضع أحاديث وتعليقات كثيرة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وكانت مصر مسرحاً خصباً لهذه الأحاديث ، إذ كان عاقلها الملك فؤاد ، ممن يطمحون الى احراز هذا اللقب القديم التالذ ، وكانت الاقلام الاجيرة ، وفى مقدمتها أقلام الدعاة الدينيين ، أمثال صاحب المنار وزملائه ، ترسل صيحاتها فى هذا الاتجاه ، فكان صدور كتاب « الإسلام وأصول الحكم » وما تضمنه من الآراء الجديدة فى تقييم مركز الخلافة الإسلامية ، كانت تتجه إليها يومئذ بعض الاطماع الملوكية . وكان لمؤلف وتجريدها من كل أصل وصفة دنية ، ضربة شديدة لهذذ الاطماع ، ومن ثم فقد تحرك علماء الأزهر ، وهم دائماً أولياء القصر ، وبادرت هيئة كبار العلماء برياسة شيخ الجامع

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الازهر ، الشيخ محمد أبى الفضل باستدعاء الشيخ على عبد الرازق ، وهو من أعضائها ، لمحاكمته ، لما ورد فى كتابه من آراء وأقول تعتبر مروقا عن أصول الدين ، واستجاب الشيخ على عبد الرازق لهذا الاستدعاء ، وعقدت الهيئة جلستها لاستجوابه ، وتوجيه الاتهام اليه ، واحتج الشيخ على بعدم اختصاص الهيئة ، فرفض احتجاجه ، وانتهت الهيئة بالحكم بادانته ، وقضت « باخراج الشيخ على عبد الرازق ، أحد علماء الجامع الازهر والقاضى الشرعى بمحكمة المنصورة الشرعية ، ومؤلف كتاب (الاسلام وأصول الحكم) من زمرة العلماء » . وكان ذلك فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥ ثم عزل الشيخ على عبد الرازق بعد ذلك من منصبه القضائى على يد مجلس تأديب قضاة المحاكم الشرعية بوزارة الحقانية ، واختتمت المسألة باقالة وزير الحقانية عبد العزيز باشا فهمى رئيس حزب الاحرار الدستوريين ، لما أثاره من ريب حول قرار هيئة كبار العلماء ، وسؤاله لجنة قسم القضايا بوزارة الحقانية عن اختصاصها ومدى حقها فى محاكمة الشيخ على عبد الرازق .

وكان لهذه الحوادث المثيرة المتوالية أصداء بعيدة المدى فى سائر الاوساط والاحزاب ، وسائر الصحف على اختلاف نزعاتها واضطلعت جريدة السياسة فى هذه المعركة الفكرية السياسية ، بأعظم قسط ، وشغل رأى العام بأصداؤها وأبعادها مدى حين . وكان للانجليز دورهم ، واتجاهاتهم ، ونفثاتهم فى هذا الميدان ، لانهم كانوا يرون فى الخلافة سلاحا سياسيا ، يمكن أن يؤدي دوره فى تحقيق أغراضهم ، وتمكين سلطانهم .

وقد انتهى هذا الجدل كله حول الخلافة بعد حين ، وتضاءلت الاطماع من حولها ، والغى الحكم الصادر ضد

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الشيخ على عبد الرازق من هيئة كبار العلماء ، واسترد مكانته بين أعضائها ، واشتغل مدى حين بالمحاماة الشرعية .

وفي اوائل شهر سبتمبر سنة ١٩٢٥ توفى والدي المرحوم عبد الله عنان عن احدى وخمسين سنة بمنزلنا ببركة الفيل . أصابه التهاب رئوي صاعق فلم يبق عليه سوى بضعة أيام رغم العناية بمعالجته ، وكانت وسسائل العلاج يومئذ ما تزال قاصرة عما هي عليه في يومنا . وكانت آخر كلماته لي « اذا كان الأمر فيه قضاء ، فاني داع لك » ، وقد دفن أولا بقرافة السيدة نفيسة . ثم نقل رفاته بعد الى مدفن الاسرة بالامام الشافعي ، رحمه الله ، وجزاه خير الجزاء عما بذل في تربيته من عناية وجهود .

وأعود الى حديث حياتي الصحفية ، فأذكر ما حدث بعد التحاقى بتحرير السياسة بنحو عامين ، من وقوع حدث صحفى جديد ، هو تأسيس « السياسة الاسبوعية » وكان وراء هذا الحدث المبتكر فى الصحافة المصرية ، الدكتور حافظ عفيفى . وكان رأيه يقوم على أن تصدر السياسة ملحقا أسبوعيا ، سياسيا علميا أدبيا فنيا ، على نحو ما تفعله جريدة « التيمس » الانجليزية بأصدار ملحقها الاسبوعى **The Weekly** وتمت الاستعدادات لأصدار السياسة الاسبوعية بسرعة ، وصدر عددها الاول فى ١٩ مارس سنة ١٩٢٦ ، وتولى رئاسة تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل ، وعينت سكرتيرا لتحرير الجريدة الجديدة ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

يعرض على سائر ما يرد إليها من البحوث والمقالات، فاختر ما يصلح منها للنشر وأقوم بتنسيقه . وانحصر العمل في ذلك بيني وبين الدكتور هيكل . وكنا نحضر الى دار السياسة في عصر يوم الجمعة ، فنضع اللمسات الاخيرة للعدد ، الذي يصدر في الغد (السبت) . وكان الدكتور هيكل يقوم على الاغلب بكتابة افتتاحية العدد ، وأنشر من جانبي فيه بحثا تاريخيا ، وأقدم اليه فوق ذلك قصة قصيرة ، مترجمة عن الادب (الفرنسي أو الالماني على الاغلب) ، تنشر كل أسبوع ، وتذيل بعبارة « ترجمها ع » وكان البعض يظن أن « ع » هذه تعني (عزمي) ، وينسبون ترجمة هذه القصص الى زميلنا الاستاذ محمود عزمي، الى أن نشرت أول ترجمة لي في ملحق مجلة . . . الالمانية التي يصدرها معهد اللغات الشرقية في برلين المعنون « زعماء الادب العربي المعاصر » ، **Leaders of Modern Arabic** وأعدده المرحوم الاستاذ طاهر الخميري ، والقي فيه الضؤ على حقيقة مترجم هذه القصص التي ذاع أمرها . وكانت من أبرز خواص السياسة الاسبوعية ، وكان اختيار هذه القصص ، وترجمتها من أمتع أعمال الادبية الصحفية . ولم أترك كاتباً فرنسيا لامعا من كتاب القصة القصيرة ، الا نقلت بعض قصصه ، وأخصهم فرانشيسكو كوبييه ، بول بورجيه ، بيير لويس . مارسيل بريفو . جي دي مويسان . جان رشيبان . بول هرفيو . تيودور دي بانفيل . اندريه تيربيه . الفونس دوديه . جان لوزان . أناتول فرانس . ترستان برنار . بول وفكتور مرجريت . كلود فارير . . الخ ، . .

وأحيانا كانت الترجمة عن بعض الكتاب الالمان مثل

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

هنيرش هينه ، وهوفمان ، وارنولد زفايج وغيرهم .
وقد نشرت فيما بعد طائفة كبيرة من هذه القصص
المختارة ، صدرت في مجموعتين تحت عنوان « قصص
اجتماعية ونماذج من أدب الغرب » الأولى في سنة ١٩٣٢ ،
والثانية في سنة ١٩٤٧ .

وحققت السياسة الاسبوعية نجاحا عظيما واشتد
ذيوها في مصر وسائر البلاد العربية وساهم في تحريرها
ومراسلاتها معظم كتاب العصر من الشيوخ والشباب ،
وكانت تصدر في أول أمرها في ثمان صفحات كبيرة من
قطع السياسة اليومية ، ولكن رؤى فيما بعد أن هذا القطع
ليس مريحا من الناحية التحريرية ، والناحية العملية ،
وعدل عنه الى القطع النصفى ، وصدرت عندئذ في ٢٤
صفحة من هذا القطع ، وأحيانا في أكثر من ذلك . وكانت
في البداية لا تعنى الا بقدر يسير من المقالات السياسية ،
ولكن هذه العناية بالشئون السياسية زادت مع الزمن ،
وتنوعت موضوعاتها ما بين أدبية وعلمية وفنية ، وبين
المنشئ والمترجم ، ومنذ سنة ١٩٣٠ ، قوى لونها السياسي
وأصبحت تصدر بصورة كاريكاتورية سياسية ، يرسمها
مصور العصر البارع خوان سنتس . وكان أبرع المصورين
الكاريكاتوريين يومئذ ، وأصله اسباني مورقي ، ولكنه اندمج
في الحياة المصرية اندماجا شديدا ، وكان يميل في العمل الى
جانب خصوم الوفد ، والى الدستوريين بصفة خاصة ، ومن
ثم فقد كان عمله على الاغلب في هذا الجانب من السياسة
المصرية . وكان ذا شخصية رقيقة ممتازة ، وله أصدقاء
ومعجبون كثيرون . وقد توفي في سنة ١٩٤٧ .

وقد نشرت الكثير من بحوثي التاريخية الهامة تباعا في

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

السياسة الاسبوعية ، وجمعت الكثير منها فيما بعد لتنشر في بعض مؤلفاتي التي صدرت بعد ذلك . وما زال الكثير منها باقيا قيد النشر ضمن مشروع مجموعة الاجزاء ، التي ارجو ان يتاح لي نشرها متضمنة لطائفة كبيرة من بحوثي ومقالاتي التي نشرت في مختلف الصحف والمجلات مدى خمسين عاما .

وأود أن أنوه بهذه المناسبة بما توثق بيني وبين أستاذي المرحوم الدكتور هيكل من صلات الود والمحبة خلال هذا العمل الصحفي المشترك في السبستين اليسومية والاسبوعية ، وقد كنا في احيان كثيرة ، ننصرف معا من دار السياسة في وقت متأخر من المساء ، ثم نقصد الى مقهى صولت بشارع فؤاد ، وكان منتدى الصفوة المختارة يومئذ ، حيث نلتقي هنالك بالمرحوم أمير الشعراء أحمد شوقي بك ، وكان في معظم الليالي ينتظر الدكتور هيكل ، بعد أن يكون قد قضى سهرته في احدي دور السينما ، ليصحبه معه في سيارته ، وقد كانا يسكنان يومئذ في منزلين متجاورين بالعباسية ، وقد كانت عندئذ من الاحياء الارستقراطية .

وقد تعرفت يومئذ بأمر الشعراء ، وكنت أعجبت برقته وهدوثة ووفرة أدبه ، وأسعد كثيرا بهذه الامسية التي التقى به فيها ، ونتجاذب أطراف الحديث الممتع .

وأود بهذه المناسبة ، أن أشير أيضا الى لقاءاتي ومشاهداتي لشاعر النيل ، المرحوم حافظ ابراهيم ، وقد كان في أواخر حياته يشغل منصبا اسميا هو « وكيل دار الكتب » . وكنت لكثرة ترددي على هذه الدار ، أرى حافظ ابراهيم في فرص كثيرة . وكنت أراه بالانحص ، واقفا الى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

يسار باب دار الكتب بباب الخلق عند البسطة الى جانب يسار الباب ، مع لفيف من موظفي الدار وغيرهم ، كالمرحومين الاستاذ أحمد الزين ، والاستاذ محمد الهراذي ، والاستاذ أحمد رامي وغيرهم . وكنت أراه واقفا معهم يدخن سيجاره الكبير ، لأن التدخين كان ممنوعا داخل الدار ، وهو يتناول الأحاديث مع زملائه وأصدقائه ، ويتحفظ من أن الآخر ، وبصوته الأجلح ، بنكاته الظريفة فتعلو ضحكات الحضور . ولقد سمعت حافظ ذات مرة (سنة ١٩٣١) يتلو بنفسه قصيدة الرثاء التي نظمها لمناسبة وفاة المرحوم عبد الحلیم الغلايلي بك عضو مجلس ادارة حزب الاحرار الدستوريين ، وكان القاؤها في حفل تأبينه عند عتبة مدخل دار جريدة السياسة بشارع المغربي (عبد الخالق ثروت الآن) وكان القاؤه واضحا قويا أخاذا . وقد عرفت حافظ ابراهيم لاول مرة كشاعر ، وأنا تلميذ من تلاوة قصيدته المبكية في رثاء مصطفى كامل رحمه الله ، والتي مطلعها :

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة

فكبر وهلل وألق ضيقك جاثيا

وأذكر الى جانب ذلك انه لما توفي حافظ في سنة ١٩٣٢ ، وجاءت العربية التي تحمل جثمانه من الزيتون حيث كان يقيم ، الى جوار محطة كوبري الليمون ، حيث أقيم سرادق الجنازة وكنت في لفيف المنتظرين لقيودوم النعش ، تقدم المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري من العربية حاملة النعش ولمسه بيده ، وهو يقول بصوت مبك ، « حان روح بعدك فين يا حافظ » .

وكذلك عرفت شاعر القطريين المرحوم خليل مطران ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وقد كان شاعرا ممتازا ، وسمعته في أكثر من مناسبة يلقى قصائده ، واجتمعت به أكثر من مرة في حفلات عشاء نادى القلم ، وكان رجلا دمث الخلق جم الأدب والمجاملة .

واستمرت السياسة على الصدور حتى بلغ النضال الحزبي أشده أيام وزارة اسماعيل صدقي باشا ، فعطلت في أواخر سنة ١٩٣٠ فصدرت مكانها مدى حين جريدة « الاحرار الدستوريون » ، ولكنها عطلت أيضا بعد قليل ، واستأنفت السياسة صدورها في سنة ١٩٣١ .

عقب صدور قانون المطبوعات الجديد . ولكن شئونها . ما زالت في اضطراب حتى احتجبت في سنة ١٩٣٤ ، واستأنف حزب الاحرار اصدارها حيثما تولى الحكم في سنة ١٩٣٨ ، فصدرت لبضع أسابيع ثم أغلقت نهائيا .

أما السياسة الاسبوعية ، فقد عطلت في أوائل سنة ١٩٣١ ، ثم استأنفت الصدور فيما بعد بصورة غير منتظمة ، وكان انزلاقها الى ميدان الكفاح الحزبي قد أضر بسمعته الادبية . واستمرت بعد ذلك في الضعف ، وتطورت بها الحوادث حتى انقطعت نهائيا عن الصدور ، بعد أن لبثت مدى حين أقوى وازهر الصحف الادبية المصرية .

وهكذا نزلت الى ميدان الصحافة الصاخب ، ووفقت الى أن احتل فيه مكانا ثابتا مرموقا ، وانتظم اسمى الى جانب اعلام الكتاب والباحثين . وكانت بحوثى التاريخية بالخاص تلفت الانظار بجدتها ودقتها ، وقد اسبغت على منذ وقت مبكر صفة الباحث « المحقق » . وترامت هذه السمعة الى دوائر المستشرقين ، فوصفنى العلامة المستشرق الكبير

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الدكتور كارل بروكلمان في الطبعة الثانية من كتابه الجامع « تاريخ الأدب العربي » Geschichte der ١٩٤٣
بأني من صحفى الطليعة في هذا العصر Arabischen Litteratur
ونشرت ترجمتى ، حسبما تقدم ضمن أعلام الأدب
العربى المعاصر ، فى ملحق مجلة Der Islam الذى أصدره
بالإنجليزية ، المرحوم الدكتور طاهر الخميرى ، تحت
إشراف الدكتور كامبفماير مدير معهد اللغات الشرقية
ببرلين ، والذى سبقت الإشارة إليه ، وذلك الى جانب أسماء
طه حسين ، ومنصور فهمى ومى زيادة ، وغيرهم .



وانه لمن الشائق أن نعرف شيئا عن حالة الصحافة
المصرية يومئذ ، وقد كانت فى الواقع تجوز مرحلة مختلطة
النزعات كثيرة الانفعالات . وكان هذا هو الوقت الذى اشتد
فيه الخلاف بين زعماء الأمة ، الوفديين من جهة ، والإحرار
الدستوريين من جهة أخرى (١٩٢٣ - ١٩٣٠) . ولم يك
ثمة خلاف فى الغاية النهائية ، وهى تحقيق استقلال البلاد ،
وجلاء المحتل عن أرضها ، ولكن الخلاف كان يشتد حول
الوسائل ، وبالأخص حول طرق الاتصال بالحكومة
البريطانية ، وطرق المفاوضات المنشودة حول تحقيق أمانى
الأمة ، ومن ثم فقد كان الجدل يشتد بين الفريقين ، وكانت
الصحافة متنفس هذا الجدل المضطرب . وكانت جريدة
السياسة ، هى بالطبع لسان الأحرار الدستوريين وأنصارهم
فى هذه المعركة . وكانت جريدتا البلاغ وكوكب الشرق ،
هما لسان الوفد ، وكانت الأهرام تلتزم الحيادة بين الطرفين ،
وتنشر مقالات فى تأييد أو نقد هذا الفريق أو ذاك ، دون
أن تتورط كعادتها فى تأييد رأى بذاته . وكانت ثمة جريدة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

أخرى هي الاتحاد ، وهي تعبر عن وجهات نظر السراى ، ولكنها كانت ضئيلة الانتشار ، لا يحفل بأمرها سوى الدوائر المختصة . وكانت تشترك في هذه المعركة المضطربة أقلام عدة من الطراز الاول ، فكان ثمة من الجانب الوفدى ، عبد القادر حمزة ، وعباس محمود العقاد ، وحافظ عوض ، وزملاؤهم ، وكان ثمة من جانب الاحرار الدستوريين محمد حسين هيكل ، ومحمود عزمى ، وطه حسين (فى البداية) وقد انتقل بعد ذلك الى جانب الوفد و ابراهيم عبد القادر المازنى (بعد ذلك) . وغير هؤلاء وهؤلاء وكان من أثر هذا الجدل المستمر ، وهذه المعارك الحزبية الملتهبة ، التى تغمرها أقلام هذا الرهط من أكابر الكتاب ، وتتنافس فى إبراز وجهات نظرها بالاساليب العالية ، والبلاغة الفياضة ، ان ارتفع مستوى الكتابة الصحفية ونمت ثروتها البيانية ، وأصبحت الى جانب منافستها فى الجدل والنقاش ، تتنافس فى صوغ العبارات المختارة ، والتعابير البليغة . واستمرت هذه النزعة الى الاجادة فى الاسلوب والعبارة ، تسيطر على الصحافة المصرية ، فترة طويلة ، وكان يغذى هذه الاجادة سيطرة أكابر الكتاب يومئذ على المقالات الافتتاحية والرئيسية . وكانت المقالة الصحفية يومئذ ظاهرة بارزة فى صحافتنا . وكان يغذيها كذلك خطب النواب البارزين فى البرلمان ، وكانوا يومئذ كثره مشرفة . وكانت الحياة النيابية على وجه العموم مليئة بالمناقشات والجدل الجاد . واذا شئنا المقارنة ، فانه يسوغ لنا أن نقول ان صحافتنا المعاصرة (صحافة عهد الثورة) قد فقدت كثيرا من ثروتها البيانية القديمة ، وذلك أولا لاختفاء المقال الصحفى الرصين ، وقد كان مسرحا لإبراز المقدرة البيانية ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

واختفاء جيل المصنفين العلماء والمثقفين ذوي المعارف الواسعة والأقلام البليغة ، في ظل الحكم المطلق ، وتحت وطأة النظم والتشريعات المقيدة الجديدة ، وانهياب الحياة العلمية والأدبية الرفيعة ، حيث لا يزدهر التفكير والآداب إلا في ظل الآفاق الحرة ، وتأميم الصحافة وجعلها تابعة لما يسمى « بالاتحاد الاشتراكي » ونزولها على سياسة التوجيه المرسومة ، وسيطرة الأقلام المفرضة على المهنة الصحفية ، وعلى الجملة فإن أساليب الصحافة المصرية قد انحدرت إلى مستوى مؤلم من الضعف والركاكة والاسفاف ، وانعدام النزعة المستقلة النزيهة المخلصة .

أول رحلة لي إلى الخارج

في أواخر أبريل سنة ١٩٢٦ ، دعيتني « السياسة » إلى القيام برحلة صحفية إلى فلسطين وسوريا والعراق وتركيا ، فلبيت مفتبطا ، وغادرت القاهرة ، وسافرت إلى غزة بطريق خط سيناء الحديدى ، في اليوم الثامن من مايو ، فوصلتها مبكرا في صباح اليوم التاسع ، وركبت في إحدى السيارات الذاهبة إلى بيت المقدس ، فوصلتها ضحى ، ونزلت في الفندق الألماني ، وكانت فلسطين يومئذ تحت الانتداب البريطانى . وخرجت مبكرا في صباح اليوم التالى فزرت المسجد الأقصى المبارك ، ووقفت طويلا تحت قبة الصخرة ، أتأمل ما كان محفورا على جدرانها من مختلف العبارات والإشارات الإسلامية والنصرانية . ثم زرت كنيسة القيامة الكبرى ، أو كنيسة القبر المقدس ، أعظم وأشهر الآثار النصرانية ، ووقفت طويلا أتأمل واجهتها ومدخلها ، ومازلت أذكر أنه مكتوب على عتبتها اسم فيليب دوينى فوق قبره ، وهو المؤرخ .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وعلى يمينها قبر جوفروا دي بويون قائد الحملة الصليبية الاول وأول ملك نصراني لبيت المقدس ، وعلى يسارها قبر آخر لا أذكر صاحبه ، وقضيت في التجوال فيها أكثر من ساعتين ، وإلى جانبي دليل من أدلائها ، يحدثني بما نسيج حول صليب السيد المسيح وحول دفنه من الخرافات ، وما يزعمون من جلده في مكان معين من الكنيسة مع العلم بأن أول بناء في موقع هذه الكنيسة المتعددة المباني ، لم ينشأ إلا بعد وفاة السيد المسيح بثلاثة قرون ، وأنشأته القديسة هيلانة والدة الامبراطور قسطنطين الأكبر ، فوق البقعة التي تقول الاسطورة أن السيد المسيح قد صلب فوقها ثم دفن ، ويصفها بأنها بجوار « الجلاجوتا » وقد كانت بقعة معروفة من بقاع سور بيت المقدس القديم ، وقد تواردت على خاطري ، اثناء التجوال في هذا الصرح النصراني العظيم ، كل ما قيل عن أسباب الحروب الصليبية ، وفي مقدمتها العمل على « انقاذ » قبر المسيح . ثم زرت بعد ذلك حائط المبكى ، وأقبية فرسان المعبد .

ووفقا لبرنامج مهمتي الصحفية ، فقد بادرت في اليوم التالي ، الى مقر اللجنة التنفيذية الوطنية ، ولم أوفق الى مقابلة سكرتيرها السيد جمال الحسيني لغيابه عن القدس . ولكنني ظفرت فيما بعد بقاء السيد كاظم باشا الحسيني ، وتحادثت معه طويلا . ثم زرت رئيس البلدية ، ثم مقر اللجنة التنفيذية اليهودية . والتقيت في المساء بالسيد عيسى البندك الصحفي صاحب جريدة . ثم التقيت بعد ذلك بعدد من الزعماء والعلماء الفلسطينيين ، وفي مقدمتهم كاظم باشا الحسيني .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

والاستاذين اسعاف النشاشينى و خليل السكاكيني .
و كنت شديد الاهتمام بدراسة وضع اليهود
واحوالهم ، فى ظل تصريح اللورد بلفور ، الذى توافق
فيه الحكومة البريطانية على قيام وطن قومى لليهود
بفلسطين فى ظل الانتداب البريطانى . ومن ثم فقد قمت
بزيارة المستعمرات والمدارس اليهودية فى بيت المقدس .
ثم زرت الجامعة العبرية ، وعلمت من عميد كلية الاداب ،
أن الجامعة بصدد الاستعداد لنشر كتاب تاريخ البلاذرى
« فتوح البلدان » . وقد تبين فيما بعد أن كتاب البلاذرى
المشار اليه ليس هو تاريخ « فتوح البلدان » ، وإنما
هو كتاب « أنساب الاشراف وأخبارهم » وهو الذى
يعرف أحيانا « بالتاريخ » وهو يقع فى عشرين مجلدا
كبيرا . وقد عنيت الجامعة العبرية بالفعل بعد ذلك
بإصدار مجلدين من الكتاب على يد أساتذتين من
أساتذتها ، هما المجلدان الرابع والخامس . وتولى تحقيق
المجلد الرابع الاستاذ شلسنجر « سنة ١٩٣٨ » . وتولى
تحقيق المجلد الخامس الاستاذ جواتين « سنة ١٩٣٦ » .
ووقف مجهود الجامعة العبرية عند هذا الحد . ولم ينشر
من الكتاب بعد ذلك سوى مجلد واحد آخر بالقاهرة .
وهو المجلد الاول « سنة ١٩٥٩ » . وكنت أتوق للاستماع
الى وجهة النظر اليهودية . وكانت تمثل اليهود عندئذ
« الوكالة اليهودية » التى أقيمت بصفة رسمية لتعمل فى
ظل الانتداب البريطانى . وكان من حسن الطالع أن كان
من بين أعضائها الاستاذ نورمان بنتوتشين ، أستاذى
السابق بمدرسة الحقوق ، فسهل لى الاتصال بها .
وتحدثت مع عدة من أعضائها ، وفى مقدمتهم الاستاذ بيك

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الفيلسوف الالماني الشهير ، والاستاذ ماير ، وسمعت منهم ، أنهم يلتزمون العمل بتصريح بلفور ، وليست لديهم أية نية للاعتداء ، بأية صورة على وضع الوطنيين أو حقوقهم .

وكان ممن زرتهم من ممثلى السلطة البريطانية ، المندوب السامى السير سايمس والسكرتير العام ، وأستاذى السابقين فى الحقوق نرمان بنتوتشن ، وكان يشغل منصب النائب العام والاستاذ جودى ، وكان يشغل منصبا قضائيا آخر ، وحاكم القدس ، ومستر بومان مدير المعارف .

ثم زرت ضاحية بيت لحم ، بدعوة من صديقى الاستاذ عيسى البندك ، وكان يسكن بها ، وكان ذلك يوم الاحد ١٥ مايو ، وتناولت لديه طعام الغداء . وطاف معى الاستاذ البندك بعد ذلك فى كنيسة المهد ، وغيرها من الآثار النصرانية القديمة . وتحاط بيت لحم وآثارها المقدسة بشعور عميق من الاحترام والاجلال .

وقد خرجت من زيارة أحياء بيت المقدس القديمة ، وآثارها المقدسة الاسلامية ، والنصرانية بشعور عميق من الاجلال ، لتاريخ هذه المدينة العظيمة العريقة الثالثة . وقد قرأت فيما بعد الكثير عن تاريخها ، وتاريخ صلاح الدين ، منقذها من أيدي الصليبيين ومازلت اليوم بعد خمسين عاما من زيارتها ، وقد كانت مع الاسف أول وآخر زيارة لى ، أتصور فى ذهنى ذلك الجلال المهيب الذى يحيط بأحيائها وآثارها المقدسة .

وأما عن الشعب الفلسطينى ذاته ، وعن أحواله الاجتماعية يومئذ ، فانه لم تتح لى فرص كثيرة للامتزاج به ، ولم أخرج عنه بانطباعات خاصة . وكل ما لفت نظرى هو اتصال الفلسطينيين فى بيت المقدس باليهود اتصالا عاديا

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

في الحياة العامة والخاصة ، ومعرفة الكثير من شبابهم
للغة العبرية ، وتحديثهم بها مع اليهود ، وتزوج الكثير منهم
بزوجات يهوديات في غاية الحسن والجمال .

مقابلة الامير عبد الله بن الحسين

وقد كانت امانة شرق الاردن ، قد أخرجت من سلطة
الانتداب البريطاني ، ووضعت تحت امانة الامير عبد الله
بن الحسين ، وقد رأيت ان أسعى الى زيارة الامير وأحصل
منه على حديث صحفي . فسافرت بالسيارة الى عمان
مبكرا في يوم الاثنين السادس عشر من مايو ، ومررت في
طريقي بمدينة السلط ، وهي مدينة صغيرة تقع فوق
ربوة صخرية عالية . ثم تابعت سفري حتى وصلت الى
عمان بعد الظهر بقليل . وقمت في الحال بمقابلة رئيس
الديوان حسن بك العارف ، فاتصل بسمو الامير في
« المقر » ، وتفضل سموه بأن حدد لي الساعة الرابعة من
نفس اليوم موعدا لزيارته .

وكنت قد سمعت الكثير عن ذكاء الامير عبد الله وفطنته
وحزمه . وقد سمعت حين زيارتي للمندوب السامي
السير سبايمس ، وعلمه بنيتي في زيارة الامير ، سمعت
منه هذه العبارة وصفا للامير **The Emir is a shrewd**
« man ولم أعرف ان كان يقصد ان الامير رجل فطن أم
رجل ماكر .

واستقبلني سمو الامير في تمام الساعة الرابعة ، في قصره
المسمى « بالمقر » وكان يقع فوق ربوة عالية ، أجمل
استقبال ، وكان الامير رجلا متوسط القامة ، أسمر
اللون ، بادنا بعض الشيء ، يرتدى الثياب العربية . وعلى
رأسه غقال مذهب . فلبث في حضرته أربعين دقيقة ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وحادثته فيما شئت من الشئون السياسية والاجتماعية والادبية . وأذكر حينما تحدثنا عن الحركة الادبية في مصر ، أن وصفها الامير « بأنها تغلى كالمرجل » وكان الامير يتحدث بعربية جميلة فصحي ، ويبدو واسع الاطلاع والمعرفة في سائر ما تحدثنا فيه .

وودعت الامير ، مرتاحا الى جميل ترحيبه ، ووافر رفته وأدبه ، بعد أن أمر باتحافى بصورة فاخرة له ، مذهبة الاطار ، وقد احتفظت بها لدى زمنا طويلا ، ولكنى لا أدرى اليوم أين ذهبت . وعدت الى القدس في مساء نفس اليوم .

وأذكر أنى بعد ذلك بأعوام طويلة ، قرأت نبأ مقتل الامير في سنة ١٩٥٤ ، في احدى الصحف الاسبانية ، حين خروجى في الصباح من فندقى بمدينة قرطبة .



وفى اليوم التالى ، الثلاثاء ، السابع عشر من مايو ، سافرت عصرا الى تل أبيب ، فوصلت اليها عند الغروب ، ونزلت فى فندق هرتسليا . وكانت تل أبيب يومئذ ، فى أطوار نشأتها الأولى ، ولكنها كانت تنمو بسرعة ، وأضحت تضم كثيرا من الاحياء والصروح الانيقة . وأذكر أن معظم المقاهى ، كانت تقع فوق أسطح العمارات . وقد زرت فيما زرت ، من دور الاعمال بها ، مركز مشروع « روتنبرج » ، وقد كان يومئذ من أكبر المشاريع الكهربائية ، التى يقوم اليهود بإنشائها ، وكان لإقامته صدى عظيم . وقابلت من رجاله المستمر فاينهاى ، فشرح لى أغراضه ومراحل عمله . ثم زرت بعد ذلك دار جريدة « الهاآرتز » ، وقد كانت يومئذ ، وماتزال الى اليوم فى طليعة الصحف اليهودية .

السفر الى بيروت

وفي يوم الخميس التاسع عشر من مايو سافرت بالسيارة الى بيروت ، فوصلت اليها عصرا . وكانت لبنان يومئذ تقع تحت الانتداب الفرنسي ، ويعيش أهلها على الأسلوب الفرنسي في كل شيء . وقد أنفقت بها أربعة أيام ، وقابلت بها رئيس الوزارة ، ورئيس مجلس الشيوخ والنواب . وزرت جريدة الاحرار ، وكلية بيروت ، ولم أجد بها ما يستحق بحثا ولا درسا .

السفر الى دمشق

وفي يوم الاربعاء ٢٥ مايو ، سافرت صباحا بالسيارة الى دمشق ، وذلك بعد أن اشتريت من إحدى شركات السيارات من بيروت ، تذكرة السفر الى بغداد بالطريق الصحراوي ، وكان أكثر الطرق المسلوكة يومئذ . فوصلت الى دمشق بعد الظهر بقليل . وكان لدى برنامج حافل من زيارة المعاهد ، وأكابر العلماء والسياسة . ولم يخطر ببالي يومئذ أنى سوف أحرم فجأة من تنفيذ برنامجي في التجول في المدينة التاريخية العظيمة ، ومشاهدة آثارها العريقة التالدة . وكل ما استطعت أن أزوره من آثارها ، هو الجامع الاموي العظيم ، وبه قبر بطل الاسلام الأكبر ، الملك الناصر صلاح الدين . وقد استطعت في اليوم التالي من اقامتي ، أن أقابل الامير طاهر الجزائري ، ورئيس الوزارة الشيخ تاج الدين الحسيني ، وكنت قد تعرفت به قبل ذلك بالقاهرة ، والإستاذ أحمد كرد علي عضو المجمع العلمي ، وشنقيق

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

صديقنا العلامة الجليل الاستاذ محمد كرد علي ، وكان يومئذ غائبا عن دمشق . وفي صباح اليوم التالي زرت دار الامارة ، وكانت سوريا يومئذ تحت الانتداب الفرنسي ، وكان يشغل منصب الامير ، او رئيس الدولة الداماد احمد فامي . وقابلت الداماد ، بموعد سابق ، في الساعة الحادية عشرة والنصف ، ومكثت معه قليلا ، وتبادلت معه بعض احاديث سطحية ، لانه كان مقلا من الكلام . ولم أستمع منه الى اى رأى سياسى او موضوع ذى أهمية وغادرت دار الامارة الى فندقى . وما كدت أدخل غرفتى ، حتى طرق الباب ، ففتحت لارى من الطارق ، فوجدت اثنين من رجال الشرطة ، وقد انذرانى ، بأنه وفقا للأوامر الصادرة ، يجب أن لا أغادر غرفتى ، ولا اتصل بأحد حتى اليوم التالى ، حيث يجب أن أستقل السيارة الى بغداد ، وهى سيارة الشركة التى اشتريت منها تذكرة سفرى . وقد حاولت عبثا أن يسمح لى بأن اتصل بالسفارة المصرية ، سواء ، زيارة او تليفونيا ، وهكذا امتنعت من كل اتصال . ولزم الشرطيان مكانهما أمام غرفتى ، حتى المساء ، ثم طول الليل ، حتى صباح اليوم التالى . ولم أجدا مفرأ من النزول عند تلك الاوامر ، وحزمت حقائبى . وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ، غادرت الفندق فى حراسة الشرطيين ، وسرت الى موقف السيارات المسافرة الى بغداد ، وأخذت مكائى الى جانب السائق فى السيارة الاولى ، التى تتقدم القافلة ، وكان يومئذ يختبر أفضل أماكن السفر ، ووضعت بها حقائبى ، وركب الشرطيان معى فى نفس السيارة . وعند الحدود السورية غادرا السيارة وتركائى وشمائى . فتنفسنا الصعداء ، وسارت القافلة تخبرق متاهة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

لصحراء العربية ، وليس أمامنا سوى الافق البعيد .
وبعد نحو ثلاث ساعات ، وصلنا إلى قاعدة الرطبة
العسكرية العراقية ، واستراحت القافلة قليلا . وانتهزت
هذه الفرصة فأرسلت من الرطبة إلى الدكتور حافظ
عفيفي بالقاهرة برقية ، ذكرت له فيها ما تم من ابعادي
عن سوريا لاسباب أجهلها ، وتوجهي إلى بغداد . ثم
سارت القافلة من الرطبة بسرعة إلى بغداد ، فوصلنا
إليها في الساعة الحادية عشرة ، بعد أربع ساعات قضيناها
في اختراق الصحراء العربية الكبرى من غربها إلى شرقها .
وكان ذلك يوم السبت الثاني والعشرين من شهر مايو .

في بغداد

ودخلت بغداد ، وفي ذهني ذكريات كثيرة عن مدينة
المنصور وهارون الرشيد ، فتبدد الخيال من ذهني فورا ،
ولم أجد حين اختراق المدينة التالدة ، سوى صور
باهتة ، وشوارع شرقية قفرة ، وصروح وأبنية متواضعة ،
ولم يقع بصري الأعلى القليل من المساجد والصروح
الاثريّة . وكان الحر بالمدينة خائفا ، حتى أنني رأيت معظم
نزلاء الفندق الذي فيه ، يصعدون مساء للنوم في العراء
فوق سطح الفندق ، وهو ما لم أكن أستطيع فعله .
وكان أول من سعيت إلى لقائهم الملك فيصل بن الحسين ،
ملك العراق يومئذ وكانت العراق ، مثل فلسطين تحت
الانتداب البريطاني ، وتمت مقابلتي لجلالته في الساعة
الخامسة من مساء يوم الأربعاء أول يونيو . ودامت
المقابلة ساعة ونصف تحدثنا فيها عن الكثير من الشؤون
العراقية ، والعربية . وكان الملك فيصل ، رجلا ممشوق

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

القامة ، هادىء الطبع ، جب الادب والتواضع ، جذاب الشخصية ، فأنست بلقائه وجميل ترحيبه .
وكان ممن قابلتهم وتحادثت معهم من رجالات العراق يومئذ ، نورى السعيد باشا رئيس الوزارة ، وكان شخصية جذابة ، ومتحدثا بارعا ، وقد أقام لى مأدبة عشاء بالمدرسة الحربية ، على ضفة نهر دجلة ، وعقدت بينى وبينه مودة استمرت أعواما . وقد قابلته بعد ذلك غير مرة بالقاهرة . ويسن باشا الهاشمى ، وجعفر باشا العسكرى ، وبعض شخصيات أخرى أدبية وصحفية لا أذكرها .

ولم تجذبنى مدينة بغداد ، ولا مناظرها ، ولا خططها ، ولا آثارها الضئيلة ، ولا مجتمعا الجاف الباهت ، خصوصا وقد كانت تشغلنى طول الوقت مسألة إبعادى عن سوريا ، والبحث عن طريق آخر ، أجوز منه الى تركيا . ولما أعيانى التفكير فى ذلك ، قررت أخيرا أن أعود الى بيروت عن طريق سوريا ، وأسافر منها الى تركيا بطريق السكة الحديدية « سكة حديد الشرق » .
وغادت بغداد يوم الخميس ، الثانى من يونيه ، وسافرت بالسيارة عائدا من نفس الطريق الصحراوى الى بيروت ، وكنت طول الوقت ، أخشى أن يقع لى ما يكدر حين المرور بدمشق . ولكن وقعت المفاجأة حينما وصلت السيارة الى قلب دمشق ، واشترت إحدى صحفها ، وإذا بى أقع على بلاغ رسمى خاص بحادث إبعادى ، وفيه تنكر السلطات السورية حادث الإبعاد ، وتذكر أنى تركت سوريا بمحض إرادتى ، وأنى حر فى العودة اليها ، أو الخروج منها حسبما أشاء !
وقد علمت فيما بعد أن برقيتى التى أرسلتها الى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الدكتور حافظ عفيفي من الرطبة ، كان لها وقع عميق ، وأن حادث ابعادي قد أنهى الى وزارة الخارجية ، فقامت بالاحتجاج بشدة لدى السفارة الفرنسية بالقاهرة . ومن ثم فقد عمدت السلطات السورية أو بعسارة أخرى السلطات الفرنسية في سوريا الى انكار الحادث ، واصدار بلاغها الذي سبقت الاشارة اليه .



واني لانتهاز هذه الفرصة لكي أوضح سبب موقف السلطات الفرنسية بالقاهرة منى ، وهي العامل الحقيقى وراء حادث ابعادي عن سوريا . وقد سجل اسمى لديها من ذلك الوقت ، في قائمة الممنوعين من دخول اراضى الانتداب والمستعمرات الفرنسية . وذلك اننى قمت قبل سفرى بعامين ، خلال عملى بجريدة السياسة ، بترجمة وتلخيص عدة مقالات ظهرت في صحيفة **Berliner Tageblatt** الالمانية ، وقد كانت يومئذ كبرى صحف برلين الديمقراطية ، بقلم الدكتور هانز دلبرك ، وفيها يتحدث عن مسئولية الحرب العالمية الاولى ، وعلى من تقع هذه المسئولية في الحقيقة ، ويقدم عدة وثائق سياسية ، كتبها قبل الحرب المسيو ازفولسكى ، سفير بولونيا في فرنسا ، وفيها ينوه برحلة مسيو بوانكاريه رئيس جمهورية فرنسا يومئذ ، الى بتروجراد «سنت بتيرسبرج» ، واتفاقه سرا مع القيصر الروسى على القيام باعلان الحرب على المانيا ، ويقدم عديد الأدلة على أن مسئولية هذه الحرب ، تقع أولا على فرنسا وروسيا ، وليس على الامبراطورية الالمانية . ونحن نعرف أن معاهدة الصلح

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

التي أمليت في فرنساى على ألمانيا المهزومة ، تقرر في موادها أن مسؤولية الحرب تقع على ألمانيا ، وأن ألمانيا اضطرت قسرا الى قبول المعاهدة بسائر نصوصها - ولكن مندوبها ، دحس في خطابه في مؤتمر الصلح هذه المسؤولية وقال بالنص « أن القول بمسؤولية ألمانيا يعتبر من فمى كذبا » .
والخلاصة أن ما حدث من ظهور خلاصة مقالات الصحيفة الألمانية الكبرى بتوقيع ، كان له استعوا الاثر في السفارة الفرنسية بالقاهرة . وكان أول رد فعل لهذا الحادث الصحفي ، ما أوعزت به السفارة الفرنسية بالقاهرة الى سلطات الانتداب الفرنسي في سوريا ، بإبعادي حين وصلت اليها . وأمتد هذا الاثر فيما بعد أعواما طويلة ، وعبثا حاولت غير مرة ، أن أطلب من القنصلية الفرنسية بالقاهرة التصريح لي بزيارة المغرب أو تونس للقيام بدراسات علمية في منتباتها ، فكان الرد دائما يأتى بالرفض ، وذلك رغما عما لجأت اليه غير مرة من توسط صديقي المغفور له العلامة الأستاذ ليفى بروفنسال في ذلك ، وكان يومئذ يشغل مناصب علمية رفيعة في المغرب والجزائر ، ولكن شيئا واحدا لم تحاول أن تعتمد اليه السلطات الفرنسية بالقاهرة ، وهو منعى من دخول فرنسا ذاتها . فكانت تعطينى دائما تصريح الدخول اليها ، وقد سافرت اليها فيما بعد مرارا وتكرارا ، وأكثر من التجوال في باريس العظيمة ، وقمت بدراساتي غير مرة في مكتبة باريس الوطنية . وكتبت عن رحلاتي عدة فصول نشرت فيما بعد في مجلة الرسالة .

هذا ، وقد انقشع بحمد الله كابوس الاستعمار الفرنسي عن تونس والجزائر والمغرب ، وأصبحنا جميعا

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

احراراً في دخول هذه البلاد الشقيقة العزيزة المستقلة ،
الحررة ، كلما شئنا .

السفر الى تركيا

وصلت الى بيروت للمرة الثانية ، يوم الجمعة الثالث
من يونيه . وسافرت منها في الساعة الحادية عشر ليلاً
الى حلب بطريق قطار الشرق ، فوصلت اليها عصر يوم
الاحد الخامس من يونيه . وفي حلب قابلت الأستاذ سامي
الكيالي ، وعقدت بيننا من ذلك الوقت صلات ودية
مستمرة . وفي مساء اليوم التالي ، السادس من يونيه ،
ركبت القطار من حلب الى استانبول . وسار بنا القطار
خلال الليل حثيثاً يخترق وهاد الأناضول . وكنت أركب
بالدرجة الأولى في أحد الصالونات مع طالب فارسي يدرس
في ألمانيا ، وفي أحد المحطات صعد إلى صالوننا ثلاثة من
الضباط الترك . وما كادوا يجلسون حتى أخرجوا من
حقائبهم زجاجات « الزبيب » وبضعة كؤوس ودعونا
لنشاركهم في الشراب ، فاعتذرنا . وعكفوا على الشراب
بلهفة وشره حتى سكروا ، ووقع أحدهم على الأرض ،
فنظر إلى الشاب الفارسي ، وقال لي بالألمانية - وكنا
نتحدث بها - « هل لديكم مثل هذه الأشياء ؟ » ، فقلت :
لا . وكان هذا أول منظر تقع عليه عيني من أوضاع
تركيا الكمالية ، وجيشها التحريري .

ووصلنا الى استانبول الثامنة من مساء اليوم التالي -
الأربعاء السابع من يونيه - وكان عبوري البوسفسفور
من محطة حيدر باشا ، تحت الأضواء الساطعة وكان
منظراً رائعاً . وقد تمثلت في ذهني ، في صور متعاقبة :

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بيزنطية القديمة ، ثم قسطنطينية العظمى بلد القياصرة ،
ثم استانبول بلد السلاطين ، وسارت بنا العربية في طريق
صاعد صوب حى « بيوغلى » ، حيث كان فندقنا قريبا
في هذا الحى ، وكنت بالرغم من طول الرحلة الليلية ،
نشطا مرحا . فلما كدت أصل الى الفندق ، حتى لاحظت
الله يوجد بجواره أو فى بنائه منتدى ليلي « ميوزيلء هول »
فصعدت الى غرفتى ، وأصلحت شأنى من وعشاء السفر ،
ثم نزلت الى مطعم الفندق فتناولت عشاء خفيفا . ثم
ازدلفت الى المنتهى الليلي ، وكان ساطع الانوار ، وبه
موسيقى راقصة جميلة ، تضرب عندئذ أنغام «الشارلستون»
وكانت يومئذ آخر صيحة ، فى عالم الرقص ، فأخذت
مكاني فى هذه الحفل المرح ، ورقصت بضعة مرات .
وهنا أستطيع القارىء أن أذكر له انى كنت من عشاق
الرقص وموسيقاه . وكنت قد تعلمت هذه الرياضة
فى القاهرة منذ نحو عامين ، وكنت أجيد رقصه
الشارلستون وغيرها من رقصات العصر ، ولا سيما
« التانجو » . وأود أن أقول انه كان لتعلمى هذه الرياضة،
وممارستها فى كثير من الأحيان اثر كبير فى تحسن صحتى،
واحتفاظى برشاقة قوامى ، التى مازلت أحتفظ بها حتى
اليوم فى عمري المتقدم ، وأنا أكتب هذه السطور وكنت
خلال رحلاتى الاوربية العديدة ، لا أترك فرصة متاحة
لزاولة هذه الرياضة ، فكنت أمارسها كثيرا فى فينا ،
فى الكورسالون ، والباكوس ، وفى باريس فى الكولوزيوم
وغیرها من الابهاء الاوربية . وكان اختياري لمصاحباتى من
الفتيات ينصب دائما ، لا على الفتاة الجميلة ، ولكن على
الفتاة الرشيقة التى تجيد الرقص . وكانت هذه الرياضة،
تكلفنى غالبا ، ولاسيما خلال رحلاتى الاوربية ، ولكنى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

كنت أجود دائما بنفقاتها مرتاحا ، كما كنت أجود مرتاحا بنفقات حفلات الأوبرا والموسيقى النمساوية ، وكنت من عشاقها ، أشهدا بانتظام ، طوال أقاماتي العديدة في فينا .



وكان أمامي في تركيا برنامج حافل ، ومقابلات ودراسات كثيرة تتعلق بما وقع في تركيا في الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ، من تطورات وتغييرات جوهرية كآثر للحركة الكمالية التي كانت تعمل يومئذ بحماسة مضاعفة لتغيير سائر معالم الحياة القديمة في تركيا ، وقد بدأت منذ اليوم التالي لوصولي إلى استانبول ، بزيارة الآثار الشهيرة ، البيزنطية والتركية . فبدأت بزيارة جامع آيا صوفيا (أو كنيسة آيا صوفيا) جوهرية الآثار البيزنطية . وكانت يومئذ جامعا تقام فيه الصلوات وكانت نقوشها البيزنطية ، قد حجبت بالطلاء منذ افتتاح الترك العثمانيين لقسطنطينية في مايو سنة ١٤٥٣ ، وتحويلها إلى جامع للصلوة ، وقد نقشت في أركان صحنها العظيم المستطيل أسماء الله ومحمد في الواجهة ، والخلفاء في الجوانب الأربعة . وقد أمر كمال أتاتورك فيما بعد بإلغاء صبغتها الدينية كجامع تؤدي فيه الصلاة ، وأزيلت منها النقوش الإسلامية ، وأعيدت نقوشها البيزنطية ، وحولت إلى متحف تاريخي . ثم زرت من بعدها جوامع السلطان أحمد ، والسلطان سليمان ، وجامع الفاتح ، وبنى جامع ، وغيرها .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وأستطيع أن أقول انه لا يوجد بين جوامع استانبول العديدة ، وهى كلها آيات فى الجمال والرشاقة ، جامع يدلى بطراز اسلامى خاص ، انها جميعا أو معظمها تكاد تكون نسخة من طراز أيا صوفيا ، ففى أعلاها مجموعة القباب الصغيرة ، والمنارتان الرفيعتان الرشيقتان ، تميزان هذا الطراز البيزنطى الاياصوفى من الجوامع ، ولدينا فى القاهرة من هذا الطراز جامع محمد على بالقلعة وجامع الست صفية الواقع فوق ربوة خلفية فى شارع محمد على ، على مقربة من باب الخلق .

ثم زرت الاثار القيصريّة القديمة ، عمود اركاديوس ، والهيبيدروم (آت ميدانى) ومغاور البازيلكا ، والمتاحف البيزنطية . وبعد أن أقمت فى استانبول خمسة أيام سافرت بالقطار الى أنقرة ، عاصمة تركيا الجديدة ، فى يوم الاثنين الثالث عشر من يونية ، فوصلتها فى ظهر اليوم التالى .

وكان لدى فى أنقرة برنامج حافل ، وكانت أنقرة ما تزال يومئذ بلدا صغيرا يقع فى عمق الوادى ، وتحف به الجبال ، وأنقرة هذه هى التى سحقت فيها جيوش التتار بقيادة عاهلهم الاعظم تيمور لنك ، الجيوش العثمانية بقيادة السلطان بايزيد الاول سنة ١٤٠٢ م ، وأسر فيها بايزيد ، ووضع خصمه الظافر ، حسبما تقول الاسطورة ، فى قفص من الحديد ، ولم يكن بأنقرة سوى بضعة شوارع صغيرة ، وقليل من المباني ، وكانت مع ذلك مراكز السفارات الاجنبية . وكان سفيرنا بها يومئذ ، صديقى المرحوم عبد العظيم راشد باشا . وكان من معاونيه كسكرتير أول ، صديقى وزميلي فى الدراسة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

المرحوم أبو العينين سالم ، وقد انست يومئذ كثيرا بوجوده الى جانبي . وكنت بالطبع اتصل بممثلينا الدبلوماسيين حيث كنت . وكان اول من اتصلت به منهم في استانبول قنصلنا العام المرحوم الاستاذ الجزايرلى بك (وقد نسيت اسمه الاول) . وقد أطلعنى على تقرير واف كتبه عن أحوال تركيا ، وتفاصيل الحركة الكمالية فاستفدت كثيرا من قراءته ، كما استفدت كثيرا من نصائحه وتوجيهاته .

وكان اول من اتصلت به من رجال الحركة الكمالية في أنقرة ، وزير الخارجية توفيق رشدى بك ، الذى تسمى فيما بعد « برشدى اراس » ، وذلك وفقا لبرنامج تغيير الاسماء القديمة « والمعربة منها خصوصا » الى أسماء تركية محضة . قابلته في الساعة السادسة من مساء يوم وصولي ، فاستقبلنى بترحاب ومودة . وكان حديثنا بالفرنسية ، وهى التى كان يتحدث بها معظم من قابلتهم . وحدثنى عن كثير مما طلبته منه من التعرف على برامج الحركة الكمالية واتجاهاتها . وحدثنى عن زعيمه مصطفى كمال وقال لى أنه لا يكاد يقابله حتى يشعر بالرجفة تسرى اليه ، وأنه لا يقابل رجال الدولة الا بعد منتصف الليل . وقد سمعت بعد ذلك من بعض العارفين ، أن مصطفى كمال أو أتاتورك كما تسمى فيما بعد ، كان ينفق السهرة دائما فى الشراب ، ولا يكاد يفيق الا فى منتصف الليل فيقابل الوزراء ، ويباشر الأعمال . وفى يوم الثلاثاء ١٦ يونيه ، استقبلنى كاظم باشا رئيس الجمعية الوطنية بعد الظهر بقليل فى مركز الجمعية . ثم أتت امده وزير الداخلية . ثم وزير الحفائية ، ثم

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

زرت البرلمان « الجمعية الوطنية » في الساعة الرابعة من ذلك اليوم .
وفي المساء تناولت العشاء في السفارة المصرية مع سفيرنا عبد العظيم راشد باشا ، وبعض الإخوان المصريين .
وكانت أهم زيارة قمت بها في أنقرة ، هي زيارة مكتب الأركوس أو المكتب التجاري الروسي الملحق بالسفارة السوفيتية . وقد كان هذا المكتب يتولى عندئذ تنظيم العلاقات التجارية لروسيا السوفيتية في البلاد التي يقوم فيها ، ويتولى أحيانا تنظيم بعض العلاقات الدبلوماسية غير الرسمية ، مع البلاد التي لم تعترف بروسيا ، ولا ترتبط معها بأي تمثيل دبلوماسي ، وقد كانت هذه حالة روسيا في اتصالاتها بمصر ، التي لم تكن قد اعترفت بها بعد . وكان التبادل التجاري مع مصر ، ولا سيما الحصول على القطن المصري ، من أهم المسائل التي تشغل بال روسيا يومئذ ، وكانت مصر أيضا يهملها في ذلك الوقت أن توسع نطاق تصريف قطنها في الخارج بأحسن الظروف والشروط . وقد زرت مكتب الأركوس خصيصا لدراسة هذا الموضوع وتحادثت في شأنه مع مدير الأركوس ، وفهمت منه أن روسيا يهملها أن تحصل على القطن المصري ، وفق ما تحبه مصر ، وبالأسعار والشروط التي تضعها ، ورجائي أن أبرز ذلك بصورة واضحة ، فيما نشره في الصحف المصرية عن هذا الموضوع . وكان الحديث يدور بيننا على مائدة عشاء ، ودعيت إليها في مكتب « الأركوس » ، وفيها تناولت شراب الفونكا الروسي لأول مرة في حياتي ، وكان شديد الوطأة ، فامسكت بعد تناول القليل منه ، ولم أتناوله في حياتي بعد ذلك قط .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وقد نجحت مساعي « الاركوس » فيما بعد في الاتصال بالحكومة المصرية ، في شأن الحصول على القطن المصري ، واستجابت مصر لهذا المسعى ، وعقدت الصفقات الاولى بين الفريقين ، وكان ذلك بداية انتهت فيما بعد ، باعتراف مصر بروسيا السوفيتية ، وتبادل التمثيل السياسي بين البلدين .

وفي اليوم التالي ، ١٨ يونيو ، قابلت صفوت بك سكرتير حزب الشعب ، وهو حزب الاغلبية في الجمعية الوطنية ، وذلك في دار المجلس النيابي القديم .

ولبثت في أنقرة يوما آخر ، قابلت فيه ضيا بك ، وكمال بك ، وهما أيضا من زعماء الحركة الكمالية .

ثم غادرت أنقرة في الساعة الخامسة مساء يوم الاثنين ٢٠ يونيو بالقطار الى استانبول ، فوصلتها ظهر اليوم التالي .

وكان القطار بطيئا ، فاستطعت ان ألقى في الذهاب ، وفي الاياب ، نظرات خاطفة على وديان الاناضول وجبالها ، وعلى معظم المدن التركية : بورصة ، عاصمة آل عثمان القديمة ، واسكى شهر ، وأفيون قره حصار ، وأزميت ، وغيرها .

وكان أمامي في استانبول برنامج جديد من المقابلات والدراسات . وكان ممن قابلتهم هذه المرة ، بعض السيدات البارزات من أنصار الحركة الكمالية ، مثل نزيهة هانم محيي الدين ، ونقية هانم ، وقد تحدثت معهما في شئون المرأة التركية في عهدنا الجديد ، وما طرأ على وضعها من التغييرات والاتجاهات الجديدة ، ثم زرت مكتب الزواج المدني الجديد ، وأطلعت على بعض نماذج من وثائقه .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وعاودنى الحنين عندئذ الى زيارة الآثار البيزنطية مرة اخرى ، فقصدت الى الهيبديروم ، « آت ميدانى » او ميدان سباق الخيل الرومانى ، وتفقدت الآثار الرومانية مرة اخرى ، والتقيت عندئذ بالعلامة الاثرى الانجليزى الاستاذ كاسون Casson وكان يرأس بعثة تقوم بحفريات فى هذه المنطقة البيزنطية القديمة .

ثم زرت القنصلية المصرية فى استانبول مرة اخرى ، وقابلت قنصلنا الجزائرى بك لحييه تحية الوداع ، ولارد اليه تقريره القيم الذى أعارنى اياه ، ووقفت منه على الكثير من شئون تركيا الجديدة .

وقد عذر على أن أحصل على صور اكابر زعماء الحركة الكمالية ، وفى مقدمتهم الزعيم كمال أتاتورك ، وعصمت باشا ساعده الاول .

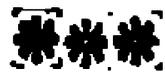
هذا ، ولم تكن قد وقعت بعد فى تركيا تلك الانقلابات والتغييرات المشيرة التى أحدثها أتاتورك فى الشئون الاسلامية مثل الغاء الأذان الاسلامى والصلاة بالعربية ، وما أحدث فى اللغة التركية من حذف أصولها العربية المستعارة والغاء الكتابة بالحروف العربية القديمة ، واستبدالها بالحروف اللاتينية ، وغير ذلك مما أثار سخط العالم الاسلامى ، وانتهى بسلبخ تركيا من جماعة الامم الاسلامية ، التى كانت تتولى زعامتها فى ظل الخلافة ، مدى قرون ، وتوجيهها الى الاندماج فى حضيرة أوروبا النصرانية . وقد كان ذلك كله ينم عن حقد دفين للاسلام والعروبة فى صدر هذا الزعيم اللادينى ، الذى يقال انه يرجع الى اصل يهودى من طائفة « الدونمة » البلقانية .

وكانت الكتب والصحف حتى وقت زيارتى ، تطبع كلها

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بالحروف العربية ، وكانت من أجمل نماذج الطباعة العربية .

ولم أستطع خلال اقامتي القصيرة بتركيا ، أن اتبين سمات الشعب التركي الجديدة ، بيد أنني شعرت أنني أمام شعب حائر لم يستقر بعد على أوضاعه الجديدة ، وقد استطعنا فيما بعد ، أن نتبين هذه السمات في الجيل التركي الجديد ، الذي نشأ على تراث الثورة الكمالية ، في الأربعينات والخمسينات ، وذلك بالاتصال بكثير من المواطنين الترك من مختلف البيئات ، في مختلف البلاد الأوروبية . ثم بالاتصال بمن كنا نراهم من زملاء الترك معنا في مختلف المؤتمرات ، ولا سيما في مؤتمرات الملتقى الإسلامي الجديدة بالجزائر : شعب أعجمي باهت متوسط الثقافة والعلم ، ضعيف كل الضعف ، في ميدان العلوم والمعارف العربية والإسلامية ، لا يتسم بأية مميزات لامعة ، ولا بأية حماية للصربية والإسلام .



وكنت عندئذ قد أعددت العدة للعودة الى مصر ، ووقع اختياري على ركوب الباخرة « عباسية » التابعة لشركة الخطوط الخديوية ، فاستقلتها ، وأقلعت بنا من مياه البوسفور في صباح يوم الأحد السادس والعشرين من يونيو . ولما وصلت الى أزمير توقفت بضع ساعات ، سعدت خلالها بقاء صديقي العزيز الدكتور حسين حسني (باشا) يومئذ قنصلنا في أزمير ، واستطعت أن ألقى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

نظرة خاطفة على أزمير ، وكان مما لفت نظري واثار دهشتي ما رأيته في شوارعها من سير عربات «سوارس» التي تجرها الخيل كوسيلة من وسائل المواصلات في المدينة . ثم تابعت السسيفينة سيرها فوصلت الى الإسكندرية يوم الخميس آخر يونية سنة ١٩٢٧ .

وهكذا انتهت بحمد الله هذه الرحلة الاولى من رحلاتي الخارجية ، التي تعددت فيما بعد ، بعد أن استفرقت ثمانية وثلاثين يوما ، وحفلت بكثير من المشاهدات والدراسات .

وقد كتبت من دراساتي في هذه الرحلة ، وعن أحاديثي الصحفية الهسامة بها ، عدة مقالات نشرت تباعا في « السياسة الاسبوعية » ، وقد كان أبرز ما فيها ، الفصول التي كتبت عن الحركة الصهيونية والاحياء اليهودي ، ثم عن تركيا والحركة الكمالية .

قصة زواجي

في صيف سنة ١٩٣٠ ، سافرت الى فينا ، وفي نيتي أن أسعى الى التعرف بآنسة نمسوية اقترن بها . وكنت قد حاولت ، قبل ذلك بأعوام ، أن أحقق هذا العزم بمصاهرة أحد الأسر المصرية المحترمة ، فسعيت الى الاتصال بأكثر من أسرة بالقاهرة ، ولكنني شعرت انه توجد ثمة أفكار وتقاليد رجعية لدى معظم هذه الأسر ، وفي مقدمتها ان طالب الزواج يحسن ان يكون موظفا في الحكومة ، وان الوظيفة تعتبر عنوان الكفاءة والقبول . وقد ذكرت فيما تقدم ، انني لم أفكر في بداية حياتي

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

العامّة في التوظيف في الحكومة ، واننى آثرت للعمل
الحر في المحاماة والصحافة . ومن ثم فقد رأيت ان اترك
الاسر المصرية وشأنها فيما تحب ، واتجهت الى
الزواج من فتاة أوربية . وآثرت أن تكون هذه الفتاة
نمساوية أو ألمانية . ومن ثم فقد سافرت الى فيينا ، ولم
يطل بحثى ، حتى تعرفت بأسرة نمساوية متوسطة ،
عميدها مهندس زراعى ، وله ابنة شابة في الثانية
والعشرين من عمرها تدعى يوهنا . وقد زرت الاسرة
بمنزلها بحى براتر ، وكانت تتألف من الاب وزوجته ،
وهى سيدة جميلة وقورة ، وهى ليست أم الفتاة ، اذ
كانت الابنة يتيمة الام . فراقنى ما شهدته لدى الاسرة
من البساطة والتواضع والادب الجم ، وراقنى ما أنسته
في العروس من الحسن الهادى ، والقوام المعتدل ،
والسحر المقرون بالحياء ، ومخائل الذكاء . وأبدت في
الحال رغبتى في الاقتران بها . وفي اليوم التالى زارنى
الاب وابنته في الفندق الذى أنزل فيه ، واتفقنا على
موعد عقد القران . وتم عقد الزواج بالفعل في اليوم
التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ ، بمقر البلدية
« الرات هاوس » ثم تم توثيقه بعد ذلك بأيام قلائل في
القنصلة المصرية بفيينا امام قنصلنا المرحوم محمد
سرور بك ، وعدت بعد ذلك برفقة زوجتى الشابة الى
القاهرة . وأحمد الله العلى القدير ، أن كان زواجا موفقا
لم تحدث به خلافات ، أو أزمات خطيرة . وهى
ما زالت الى اليوم ، بعد ثمانية وأربعين عاما ، زوجتى
الوحيدة . وقد رزقت منها بأولادى الثلاثة ، محمود
وقد درس الطب ، وهو يعمل منذ مدة طبيبا في انجلترا

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وحسين وهو يعمل موظفا في شركة التليفزيون ، وله مواهب فنية بارزة ، يمارسها في الإنتاج السينمائي ، وتدر عليه أرباحا مجزية ، وابنتى سعاد ، خريجة قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وهى ابرع اولادى الثلاثة فى اللغات اذ تجيد الانجليزية والفرنسية والالمانية والبرتغالية . هذا فضلا عن أسلوها العربى الجزل فى الكتابة والوصف .

وأود أن اذكر هنا ان زوجتى السيدة يوهنا ، وقد عرب اسمها الى هناء عنان ، هى سيدة واسعة الثقافة ، وتجيد فوق لغتها الالمانية ، اللغات الانجليزية والفرنسية والعربية ، ثم اود بهذه المناسبة أن أشير الى بعض جوانب من نشاط السيدة زوجتى العلمى والمهنى ، فقد قامت اولا بالإشراف على تربية حفيداتها الاربعة منذ ادخلتهن مدرسة سان فنسان دى يول الفرنسية فى سن مبكرة ، وأشرفت بعد ذلك عن تربيتهن فى التعليم العالى وذلك لتغيب والدهن الدكتور محمود فى الخارج منذ بداية حياته المهنية ، وتخرج تحت كنفها ورعايتها اثنتان منهن من جامعة القاهرة . وأما الاخريان فانهما تكملان دراستهما بانجلترا . وقد تولت ترجمة عدة من الكتب والرسائل العلمية الالمانية الى الانجليزية لمنشأة فرانكلين الامريكية . وهو نوع من الترجمة تخصصت فيه . والى جانب ذلك بذلت نشاطا كبيرا فى انشاء قرية الاطفال الدولية بمدينة القاهرة ، وما زالت تمدها بنشاطها ، ولما كانت هذه المنشآت تنتمى أصلا الى المشروع النمسوى ، فقد وصلها كتاب شكر رقيق من رئيس الوزراء النمسوية المستشار برونو كرايسكى يثنى عليها ، وينوه بأن ما تبذله

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

فى هذا المجال دليل على انها لم تنس وطنها الاصلى ،
وقد كان ذلك من دواعى تأثرها وسرورها .

واذا كنت آسف على شىء فى حياتى العائلية ، فهو
اننى لم أرزق من يمكن من اولادى ان يخلفنى فى حياتى
الادبية ، ويرعى تراثى التاريخى العريض ، ويقوم على
الاستمرار فى نشر كتبى التاريخية والادبية المختلفة ،
لكى تنتفع بها الاجيال اللاحقة ، وانى لترك هذا التراث
وديعة بين يدي الله سبحانه ، يرها ويحفظها وهو خير
الحافظين .

ترك العمل فى الصحافة

وامضيت فى العمل الصحفى بضعة أعوام اخرى ،
وكنت فى نفس الوقت ما زلت امارس مهنة المحاماة ،
ولكن بصورة محدودة . وكنت قد اغلقت مكتبى بميت غمر
بعدها عن القاهرة ، واتخذت مكتبا بمدينة طوخ القريبة
من القاهرة ، ولكنى ما لبثت ان اغلقته بعد نحو عام ،
اذ لم اجد فى العمل فى هذه المنطقة ما يستحق اضاءة
الوقت ، والتنقل من القاهرة الى الريف .

وفى خلال ذلك تطورت الاحداث السياسية ، وانتقلت
جريدة السياسة من مكانها القديم فى شارع المتدييات
الى مكانها الجديد فى شارع عبد الخالق ثروت (المرفى
سابقا) ، وغلب اللون السياسى الحزبى على السياسة
الاسبوعية ، وتضاءلت سمعتها الادبية .

ثم دخلت الاحداث السياسية فى طور جديد ، وتمكن

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

حزب الاحرار الدستوريين من تولى الحكم ، وقام بتأليف الوزارة زعيم الحزب المرحوم محمد محمود باشا ، وسافر الى انجلترا على رأس وفد لاستئناف المفاوضات مع بريطانيا ، واسفرت هذه المفاوضات عن مشروع معاهدة لتنظيم العلاقات بين مصر وانجلترا ، ولكنه لم يكن صريحا ولا واضحا في تحقيق استقلال مصر ، ولم يحظ من الراى العام ، بتأييد يذكر ، واشتدت عليه حملات الوفد والمعارضين .

واخذت احوال الاحرار الدستوريين فى الاضطراب ، واشتد عليهم ضغط اسماعيل صدقى باشا رئيس الوزارة يومئذ ، وقد استطاع أن يجمع برلمانا جديدا على طريقته ، ووقع غلق « السبسية » غير مرة بالطرق الادارية . ثم وقع غلق السبسية الاسبوعية وانتهى الامر بأن كانت السبسية الاسبوعية ، تصدر فى صورة ملحق اسبوعى للسبسية اليومية ، وذلك على نفس نمطها الادبى القديم .

وكانت « السبسية » كلما اغلقت ، لجا الدستوريون الى اتخاذ لسانهم فى بعض الصحف الثانوية ، فاذا اعيدت عادوا الى اصدارها ، مشددين الحملة على صدقى باشا ووزارته وسبسيسته . وكان صدقى باشا يحارب السبسية بمختلف الوسائل ، ويرتب شراءها جملة من المتعهدين ، حتى لا تصل الى ايدى القراء ، وكان لهذه الوسائل اثرها فى اضعاف السبسية فتضاءلت مواردها المالية ، وعجزت عن دفع مرتبات المحررين والموظفين . وقد صابرت أنا هذه الحالة بعض الوقت ، ولكنى رأيت فى النهاية ، أن الاستمرار على هذه الحالة أمر متعذر ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

فقررت الاستقالة من عملي بها ، بالرغم مما كان يربطني من روابط المودة والمحبة بكثير من رجالات الدستوريين ، لا من الناحية الحزبية ، ولكن من ناحية الصداقة الشخصية والتقدير المتبادل ، وفي مقدمة هؤلاء الدكتور هيكل رئيس تحريرها ، وأستاذي القديم ، والأستاذ علي هبد الرازق ، وغيرهما من الأصدقاء الأعزاء .

وكان انفصالي عن أسرة السياسة في أوائل سنة ١٩٣٢ ، ولم يخطر ببالي يومئذ أن أشتغل بالصحافة في جريدة أخرى غير « السياسة » ، أو أن أتصل بأشخاص آخرين ينتمون إلى الأحزاب الأخرى لأعمل في جريدتهم . ولو قبلت نفسي يومئذ مثل هذا الخاطر لكان فيه الكسب الوفير الهين . ولكني حسبما سبق أن توهمت ، لم أكن اتسم بأية صفة حزبية ، اعتزازا بصفتي المصرية المحضة ، ولا أميل قط ، حسبما سبق أن ذكرت إلى الكتابة في شؤون السياسة المحلية ، وقد عملت في جريدة السياسة وأصحابها يحترمون طول الوقت مني هذا الشعور . وقد كنت أعمل في « السياسة » إلى جانب الصفوة من المفكرين والكتاب المصريين . فهذه الاعتبارات كلها جعلتني أصرف النظر نهائيا عن العمل الصحفي في أية جهة أخرى .

وكنت في تلك الآونة ، قد بدأت أنشر بعض بحوثي في مجلة « الرسالة » التي صرح بإصدارها لصديقي المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات ، فكنت أقدم لها مقالا أسبوعيا ، ثم كنت أقدم بحثا شهريا لمجلة الهلال . وكان المفروض أن الأستاذ الزيات قد استصدر تصريح الرسالة ، على أن تكون لسانا علميا وأديبا للجنة التأليف

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

والترجمة والنشر ، التي كنا نتمنى اليها جميعا . وكان يحزر معظم فضولها في الواقع ، أعضاء لجنة التأليف والترجمة . وكان مقرها في جزء من مقر اللجنة القديم بعمارة راتب باشا في أول شارع الساحة ، بقدر محلات عمر أفندي . ولكن الاستاذ الزيات ، ما لبث حينما آنس نجاح الرسالة وتقدمها السريع ، ان دبر الاستقلال بها ، فكان له ما أراد ، وان كان زملائي أعضاء اللجنة استمروا في الكتابة فيها بصفة مستقلة وخاصة . واستمر هذا الوضع الى ان قبض الله للجنة ان تصدر مجلتها الخاصة « الثقافة » بعد ذلك ببضعة أعوام

وكنت في نفس الوقت ، اقدم للاذاعة بعض الاحاديث التاريخية ضمن برنامجها الثقافي وذلك بصورة أسبوعية منتظمة .

على ان هذه الاعمال الادبية المختلفة لم تكن كافية لان تشغل كل وقتي ، ولا ان تسد كل حاجتي العائلية . ولم ار ، حسبما ان ذكرت ، سوى ان احاول العسودة الى ممارسة مهنتي القديمة ، المحاسبة ، وكانت في الواقع محاولة صعبة ، وغير مؤكدة النجاح . ولكني مع ذلك قررت ان أقوم بها . وسهل على ذلك ان اللجنة تركت مقرها القديم ، واتفقت مع صديقي الاستاذ الزيات على ان أحل مكانها معه في شقتها ، وشغلت بذلك غرفتين من غرفها الاربعة وجهزتها بما يلزم للعمل . وبدأت ملازمة مكتبي بانتظام كل يوم . ومضت الايام متوالية دون ان تقع زيارات مبشرة . وكنت أشغل وقتي عندئذ ، باعداد بعض الفصول والمقالات اللازمة للهلل والرسالة ، والبرنامج

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الإذاعي الثقافي . وفي خلال ذلك لم تقع لي سوى زيارات واتصالات قليلة في شأن القضايا والاستشارات القضائية، ومعظمها من أصدقاء ، لا أفكر في الكسب منهم . وكان يبدو علي مر الوقت ان محاولة العمل في ميدان المحاماة بصورة ناجحة ، ليست من الأمور الميسورة .

في الوظيفة الحكومية

عندئذ فكرت في أن التحق بوظيفة حكومية ، وهو ما رفضت التفكير فيه والاستجابة إليه عقب تخرجي من دراسة الحقوق . وكانت فكرة مؤسفة . ولكني كنت أراها السبيل الوحيد في هذه الظروف . ولم أكن أتصور يومئذ أنني سوف ألقى بنفسى في وسط موبوء منحل ، وأننى سوف أعانى بمخالطته الكثير من الآلام النفسية . وانتهى الأمر بأن التحقت بوظيفة من الدرجة الخامسة بإدارة المطبوعات بوزارة الداخلية . وسهل على الالتحاق بها أحد أقاربي ، وهو المرحوم حسن رفعت باشا ، كان يشغل يومئذ منصب وكيل الداخلية ، وتقع إدارة المطبوعات تحت إشرافه . وما لبثت أن لاحظت أن هذه الإدارة ، التي كان عملها يختص بالإشراف على الصحافة، وتنفيذ قانون المطبوعات ، كانت تقع يومئذ تحت سيطرة الشوام ، من سوريين ولبنانيين ، أنها كانت تعسائي كثيرا من ضروب الفساد على يد هذه العصابة ، من اقتضاء الرشاوى ، للسعى في تعيين الموظفين على اعتماد المصاريف السرية ، ومن مختلف الصحف لمدها بمختلف الامتيازات، ولا سيما الاعلانات الحكومية . وكان رئيسها الأعلى ، أو

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وكيلها ، وهو يومئذ سوري درزي يسهل لبرؤوسيه كل شيء ، ويؤمهم في تلك الاعمال ، وكانت الصحف الأجنبية هي أكثر الصحف انتفاعا في ظل هذا الفساد . وكان من نصيبي بعد فترة من الوقت أن أتولى شئون هذه الصحف الأجنبية ، من فرنسية وانجليزية ، ورومية ، تصدر بالقاهرة والإسكندرية ، وكان من بينها صحف مرموقة ، كالبورص اجبسيين ، والجورنال دي كير ، والجازيت بالقاهرة ، والزنيفورم وغيرها بالإسكندرية . وكانت هذه الصحف الأجنبية كلها ، تخاطب المطبوعات بالفرنسية الفرنسية أو الإنجليزية فراعنتي هذه الحال ، وبدأت أطلب من هذه الصحف ، وأنصحها ، أن تكتب طلباتها بالعربية الى جانب اللغة الأجنبية ، وبعد معارك ومشادات مستمرة ، انتهى الامر بأن بدأت تكتب العربية الى جانب الفرنسية أو الإنجليزية . ولما رقيت بعد ذلك الى منصب وكيل ادارة المطبوعات ، كنت أرفض كل طلب يكتب بالفرنسية الأجنبية . وانتهى الامر بعد صراع طويل الى تحقيق هذا الاصلاح ، وأدرك كثير من أصحاب هذه الصحف ، والمسؤولين فيها ، اننى محق في طلبه ، وانه مطلب عادل يجب النزول عنده . وكان يسهل على العمل في هذه الادارة - ادارة المطبوعات - انها مستقرة بالقاهرة . وليست لها فروع في أية مدن أخرى ، وبذلك استمر عملي بها أعواما طويلة ، دون ازعاج ، الا ما كان في أوائل الحرب الثانية ، حينما نظمت الرقابة على الصحف ، وطلب الى في وقت ما ، أن أتولى أعمال الرقابة بالإسكندرية ، فاعتذرت ورفضت رفضا باتا تولية هذا

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

العمل ، وأندرت بتقديم استقالتي ، وعندئذ عدل عن هذا الطلب .

وكانت إدارة المطبوعات ، طوال الوقت ، هدفا للتغييرات الحزبية من وفدية ودستورية وسعدية ، يوتي إليها في كل حكومة جديدة ، بطائفة من الموظفين الذين لا عال لهم ، على اعتماد المصاريف السرية . وكنت بالرغم من عدم تعاطفي مع حزب الوفد ، أتصرف دائما في حدود ما أعتقد انه الحق والصواب ، ولم تكن تحدوني أية أغراض حزبية أو شخصية . وكنت اذا ما وجهت بأى طلب أو مازق حزبي لا ارتأى صوابه ، أرفع أمره الى وكيل الوزارة ، حسن رفعت باشا ، فكان يقوم بتصريفه بمنتهى اللباقة ، وينتهي الامر بسلام .

وكنت خلال عملي بإدارة المطبوعات ، امثل وزارة الداخلية في لجنة قبول الصحفيين بمحكمة الاستئناف العليا ، وكانت هذه اللجنة ، تنعقد وفقا لقانون المطبوعات الجديدة ، تحت رئاسة رئيس محكمة الاستئناف العليا ، وكان رئيسها يومئذ المرحوم محمد محمود باشا ، وكان مستشارا بارعا ، جم الذكاء والادب ، وكنت سعيدا بالعمل معه . وقد ساعدت بمعلوماتي وتوصياتي الشخصية في اللجنة في قبول عدد كبير من الصحفيين والصحفيات .

وفي خلال هذه الفترة ، من عملي الحكومي ، الذي استمر بإدارة المطبوعات نحو اثنتي عشر عاما قمت خلال أجازاتي الصيفية بعدة رحلات الى ألمانيا وفرنسا ، وإيطاليا والنمسا ، سوف أتحدث عنها في مواضع أخرى .

نادى القلم الدولي

كان أول من دعى الى تأليف فرع لهذه الهيئة الادبية الدولية بمصر ، المرحوم الدكتور طه حسين . وكان ذلك ذات مساء كنا فيه بمنزل آل عبد الرازق . وكان موجودا الى جانبه المرحومين على عبد الرازق ، والدكتور محمد كامل حسين وأنا ، وقد اقترح الدكتور طه ، فيما يبدو بناء على رسالة تلقاها من مركز نادى القلم الدولي بلندن ، الـ P. E. N. ، ان تنشئ شعبة لهذه الهيئة الادبية بالقاهرة . فتم الاتفاق بيننا على ذلك ، وتكونت منا هيئة للدعوة والتنظيم ، وندبني الزملاء ، لأقوم بأعمال السكرتارية ، وأتولى إرسال الدعوات لمن يقترحهم طه ، وكان ذلك حسبما أذكر في أوائل سنة ١٩٣٦ . وتولى الدكتور طه الاتصال بمن يدعون من الاجانب المقيمين بمصر للانضمام الى هذه الشعبة . وأرسلت الدعوات الى عدد من الادباء والكتاب المعروفين ، فلم يلبسها سوى القليل . ولبي دعوة الدكتور طه من الاجانب عدد منهم مستر سكيف الاستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ومسيو برنار ميشيل الاديب السويسرى ، وهو فى نفس الوقت من رجال الاعمال ، ومسيو جورج فوشنيه مراسل جريدة جورنال دى جنيف ، وهو سويسرى أيضا ، ومستر جون كنتل الكاتب القصصى السويسرى . وكان يقيم يومئذ بمصر ، والسيدة مدام خير وهى سيدة سورية اديبة من الطبقة الممتازة ، وكانت تشتهر بحسنها واناقتها . وكان نشاط الجماعة يقتصر على الاجتماع كل شهر على عشاء فى احد المطاعم الانيقة . وكان يتولى أمانة الصندوق زميلنا

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

المرحوم الدكتور كامل حسين ، وكنت أنا أتولى أعمال السكرتارية ونجتمع نحن كل أسبوع في صفة لجنة إدارية . وكنا على اتصال بمركز القلم الدولي العام بلندن وسكرتيره الكاتب المسرحي هرمون أولد . وكانت ترد المكاتبات باسمي ، فأتلقاها وأتولى عرضها على اللجنة الإدارية ، ثم أقوم بالرد عليها وفقا لما يقع عليه الاتفاق ، وكنا نتولى أحيانا دعوة بعض الأصدقاء من العلماء والخاصة من غير الأعضاء إلى العشاء معنا ، واستمر الأمر على ذلك حيننا ، وكان من هؤلاء الأدبية الكبيرة الأنسة مي زيادة . وكان هذا ثاني لقاء بيني وبين هذه الأدبية الكبيرة ، التي سمعت الكثير عن نبوغها وخلالها الرفيعة ، وعن صالونها الأدبي ، الذي يتردد عليه أعظم العلماء والكتاب . وبالرغم من أنها لم تكن رائعة الحسن ، إلا أن السحر ينفث حولها من عينيها ومن حديثها . وقد اتصلت بها فيما بعد ، وعرفتها عن كثب ، وتبادلت معها الأحاديث والرسائل ، وذلك حسبما أشير إليه فيما بعد .

وكان ممن دعونا من أكابر الكتاب الأوربيين الذين يفدون على مصر ، الكاتب الفرنسي الكبير مسيو جول رومان ، وقد استقبلناه في حفل عشاء تكريم . وألقى خطابا ممتعا . وكان خطابا طويلا ورائعا . وكان ممن استقبلناهم أيضا ، الشاعر الإسباني القطلوني السنيور ألومار ، وكان يقيم يومئذ في القاهرة ، لاجئا من نظام الحكم الفاشستي في إسبانيا ، وقد ألقى بيننا بعض مقطوعاته الشعرية باللغة القطلانية . وكان منهم أيضا العلامة المستشرق الأستاذ ليفي بروفنسال . وكان مستر كنتل القصصي السويسري يحضر معنا في معظم الأحيان

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

على العشاء مع زوجته الانجليزية . وكان يشيع فينا البشر والضحك بنكاته المختارة . وكان مما حدث أيضا خلال اجتماعاتنا الشهرية ، أن خصص منها مساء متكريم صديقنا العلامة الراحل الاستاذ أحمد أمين ودعى الى هذا الحفل المرحوم الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، وألقى في الحفل كلمة جميلة مؤثرة ، أشاد فيها بخلاله وعلمه وروعة إنتاجه . ثم توالى دعوات الشعبة الى بعض الشخصيات البارزة ، فدعونا المرحوم الدكتور حافظ عفيفى الى حفل العشاء ، وحضرت فى نفس الليلة ، بناء على دعوتنا المرحومة السيدة قوت القلوب الدمرداشية ، وقد حضرت الى الحفل سافرة ، وكان هذا يومئذ مما يعتبر حادثا اجتماعيا ولا سيما بالنسبة للسيدة الدمرداشية ، وقد دعوتنا السيدة قوت القلوب فيما بعد الى حفل غداء ضخم فى حدائق ضيعتها الكبيرة بالقبة ، وهى التى صودرت فيما بعد ، فيما صودر من أملاكها . ثم دعوتنا بعد ذلك الى حفل عشاء بقصرها الذى كان يقع بجوار وزارة الخارجية القديمة على مقربة من كوبرى قصر النيل ، وقد أزيل اليوم . وكان ذلك فى فاتحة الحرب العالمية الثانية . وكان الحفل حسبا فهنا ، لتكريم زائر انجلىزى كبير يدعى مستر سل بيتون ، وكان يتسم بأنه من هواة التصوير . وكان قليل الكلام كثير الاستماع . وقد شعرت أنا يومئذ أنه شخصية غامضة ، وخطر بذهنى أنه إنما كان على الاغلب من رجال المخابرات البريطانية .

واستمر نشاط شعبة نادى القلم على هذا النمط ، نحو عامين آخرين ، ثم ضعف نشاطها ، وقلت اجتماعاتها ، وتفرق معظم أعضائها الاجانب ، وشغل كل منا بنفسه .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وكان من آخر تصرفاتها ، أن بعثت اللجنة الادارية مذكرة الى هيئة جوائز نوبل بالسويد رسالة ترشح فيها الدكتور طه حسين ، لنيل هذه الجائزة فى الادب ، فكانت هذه صرخة من صرخات عديدة ، فى هذا السبيل ، لم يكن لها أى صدى .

وأخيرا روى أنه لا محل لاستمرارها ، واقترح علينا الدكتور كامل حسين أن نعتبرها منتهية ، وأن توجه ما تبقى من رصيد اشتراكاتها ، الى صندوق الطلبة بجامعة عين شمس ، وكان الدكتور كامل حسين ، قد عين مديرا لها ، فحبلنا رأيه . وكان هذا فصل الختام فى أمرها ، وأخطرت بذلك مستر أولد سكرتير المركز الدولي بلندن .

الآنسة مى زيادة

سبق أن أشرت فيما تقدم ، الى انى التقيت بالآنسة مى زيادة لأول مرة ، لقاء عابرا فى حفل شاي لدى أحمد شفيق باشا ، ثم لقيتها بعد ذلك ببضعة أعوام ، فى احدى حفلات عشاء نادى القلم . وكان لهذا اللقاء اثر كبير ، فى تقديرى لهذه الآنسة الكاتبة الادبية ، النابغة ، ورفيع خلالها . وكنت أقرأ مقالاتها فى الاهرام وغيرها من الصحف والمجلات باهتمام ومنتعة . ومضت على ذلك أعوام قبل أن تسمح لى الظروف برؤيتها والاتصال بها . ثم كان هذا الاتصال لمناسبة أدبية لا أتذكرها ، وتوثقت بيننا الصلات الادبية والفكرية تباعا ، وشعرت منها انها تأنس باجتماعنا وأحاديثنا ، وكنا نجتمع دائما بشقتها الجميلة الملاصقة لجريدة الاهرام . وكان ثمة بيننا كثير من النواحي والمعارف المشتركة واجادة اللغات الاجنبية .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وكنا حين تعوق المشاغل اجتماعاتنا ، نتصل تليفونيا ونتبادل بعض الأحاديث . واستمرت صلاتنا على أتم مودة وصفاء ، وتقدير متبادل . ثم كان ذات يوم شعرت فيه بتغير أحوالها ، وتصرفاتها ، وكانت تمتنع عن الطعام ، فكنت أتضرع اليها ان تأكل ، وآكل معها أحيانا لأشجعها على تناول الطعام . وعندئذ عرضت عليها أن أدعو لها طبيبا لفحصها ، وتقدير أسباب متاعبها فوافقت ، واستدعيت لهذه المهمة المرحوم الدكتور عانوس الإخصائي في الامراض النسائية ، فلبى مرحبا وقام بفحصها فحصا دقيقا . ثم كتب لها بعض الادوية ، وطمانها ببعض العبارات . ثم صحبته حين غادر شقتها ، وسألته على حدة عما انتهى اليه الفحص ، فقال ان حالتها تنحصر في أنها بلغت السن الذي تختفى فيه بعض الاجهزة عند المرأة ، وتقع لها من جراء ذلك اضطرابات عصبية ، ويحسن بها أن تنتقل الى مصحة خاصة يعتنى فيها بأمرها ، ولم أقل لى شيئا من ذلك . ولبثت أتردد عليها للاطمئنان على صحتها . ولكن حالتها كانت تسبب سوء يوما بعد يوم . وأخيرا علمت أنها غادرت القاهرة ، وسافرت الى موطنها الاصلى فى لبنان . ولم أعرف ظروف هذا السفر ، ولا من تولى أمر اصطحابها . ثم سمعت فيما بعد أنها قد أصيبت بعارض عقلى ، وأودعت مصحة للعلاج . وقد رآها فيما بعد بعض الاصدقاء القدماء ، الذين زاروا بيروت على تلك الحالة ، وكان منهم صديقى المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وكتب عن زيارته لها مقالا مؤثرا ، ذكر فيه أنها رآها ، وقد ابيض شعرها حتى صار لون الثلج . وكان لذلك كله فى نفسى ألم

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وقع ، وقد علمت فيما بعد أنها توفيت فى أكتوبر سنة ١٩٤١ ، عفا الله عنها ، وطيب ثراها . وأنه ليسعدنى أن قد احتفظت ببعض رسائلها ، ومنها الخطاب الذى يرى القارىء صورته هنا .
هذا ، وقد تركت مى عددا من الكتب والرسائل الأدبية الممتعة منها : الجزر والمد . وإبتسامة ودموع (مترجم عن الألمانية) . ظلمات وأشعة ، كلمات وإشارات ، وعائشة تيمور ، وهو من أمتع بحوثها .

موقفى من المسرح والسيثما

ولم أكن منذ شبابى من عشاق المسرح المصرى . أجل شهدت بمسرح رمسيس فى العشرينات عدة قطع جيدة ، واستطعت أن أقدر مواهب بعض ممثليه فى هذا الوقت ، وفى مقدمتهم الممثل النسابة المرحوم حسين رياض ، والمرحومة السيدة روز اليوسف . ولم يكن لى بعد ذلك إقبال على مسرح الريحانى وتمثيلياته المشهورة « كشكش بك » وما إليها ، لانى كنت أشعر بالرغم مما كان يحدوها من الاغراض النقدية والاجتماعية ، بأنها تذهب فى الهذر مذهبا يزهد فيه أهل الجد والوقار ، ثم لما توالى زيارتى لمدينة فيينا عاصمة النمسا منذ بداية الثلاثينيات ، وكثر ترددى على الاوبرا النمساوية ، وبهو الموسيقى القيسى ، أعجبت كثيرا بالاوبرات التاريخية العظيمة وما كان يتخللها من موسيقى رائعة : بيتهوفن ، شتراوس ، فردى ، روسينى . . . الخ . وأصبحت من عشاق المسرح الغنائى الاوروبى . ونسيت المسرح المصرى بتاتا . وكنت أرحب بمشاهدة كل فرق أوروبية عظيمة تحضر للتمثيل أو

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

شجاع عليون رقم ١٤

القاهرة في ٥ نوفمبر ١٩٢٤

صل أنته ناتم عليخ ، يا استاذ ؟

واني اتريب غنينة الحامين وبجاعة رازا جمد بين الحمامة والادب . وبرجوه
اخترت في سوق كذا حيث يتلوقون جميعاً في شجون الاستاذ عنان الكاتب
الحق والورع اللودعي

انتة لمت في الاستياء قليلاً لاني ابلات كثيراً في تقديم الشكر على
الدية الثمينة ، مجردة لثباته من كتب القيمة . ولكن أنت لست دافعا ، اذنا
مذنبه اذا كانت موفوقها كتب رحيمة منقحة لا حدود يا ابن الونثون
والذ تصورا مرة بدرة ، شجنته في دائرة العارف مثلاً ؟ هذا ، فضلاً
عن النور المسوق التي نشرها في الجلات ، وأفرودها جميعاً طابرة "الرور
والاستفادة معاً

اذا رأيت في هذا ذنباً فأما رحت بأني عازمة على اعترافه لا
أبني التربة . وعلى ذلك ستمكون ناتم عليخ يدك العر ... مستوباً
ولكنك ، على كل حال ، لمن تأبى قبول شكري الذي تأخرت
في إعلانه دون أن تأخر في الشعور به . هذا مع خالص الاعجاب بتلك الشبان

« نتم »

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

للعرض في أوبرا القاهرة لا سيما الفرق الفنائية : كما كنت أواظب على شهود الفرق الأوروبية التي كانت تحضر للتمثيل بمسرح الكورسال دالباني ، وكان منها فرق رائعة مثل الفرقة الراقصة الإسبانية : « نساء وزهور اسبانيا » **Les femmes et les fleurs d'Espagne** وفرقة بافلوفا **Pavlova** : أعظم راقصة في هذه القرن ، وزميلها الراقص البارع شاليابين ، وقد شهدتها مرتين متواليتين على مسرح الكورسال ، وأعجبت أعظم اعجاب برقصتها العالمية الشهيرة « موت البجعة » وكان لثولها بالقاهرة ، يومئذ ، أعظم صدى ، وكان مسرح الكورسال هذا ، وما يظهر عليه من الفرق الأوروبية الموسيقية ، أو التمثيلية الشهيرة من محاسن القاهرة العديدة ، التي قضى عليها النظام الناصري ، وكان يبذ مسرح الأوبرا بما يفد عليه من الفرق التمثيلية اللامعة . وقد صقلت هذه الموسيقى ، وهذه المناظر الفنية الرائعة ، التي واظبت على مشاهدتها في فيينا وغيرها من العواصم الأوروبية ، ذوقى الفن ، فأضحى بميوله واتجاهاته يقف عند هذه النواحي ، وانصرفت بذلك انصرافا نهائيا عن الاهتمام بالمسرح المصرى حتى يومنا . وأما السينما ، فقد كنت منذ صباى وشبابى من عشاقها ، وقد كنت أواظب على مشاهدة الافلام العالمية التي تعرض في القاهرة . وكنت منذ أيام دراستى ، أذهب الى السينما كل يوم خميس ، وكانت تجذبني بنوع خاص افلام تشارلى شابلن الفكاهية التي كنت أشاهدها بانتظام منذ صباى ، والتي لبثت طول حياتى أعجب بها . هذا الى جانب الافلام العالمية الاخرى ، التي كانت تعرض في دور سينما القاهرة بانتظام . وكان منها افلام تاريخية

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ودرامية عظيمة أذكر منها : كليوباترا كوفاديس . العربية رقم ١٣ . الجانى لكوبيه . فردى . كاروزو وغيرها . كما كنت أواظب على مشاهدة هذه الافلام العالمية فى الخارج حيثما كنت فى باريس . فيينا او برلين . او مدريد أو غيرها ، وأما الافلام المصرية ، فلم أكن فى البداية متحمسا لها أو مقبلا عليها ، ولم أبادر الى مشاهدتها إلا فيما بعد حينما ارتقت الشاشة المصرية ، وظهرت فيها افلام متقنة جادة ، وكنت أواظب بصفة خاصة على رؤية الافلام التى تضطلع ببطولتها فاتن حمامة ، أو عماد حمدى ، حسين رياض ، أو المليجى ، أما الافلام الفنائية ، فلم تكن تجذبنى ، وقد أخذ هذا الميل الى زيارة السينما فى دور القاهرة يفيض لدى شيئا فشيئا ، ولا سيما حينما انحطت مستويات الجماهير المصرية فى العهد الاخير . ثم غاضت هذه الرغبة بعد ذلك بتاتا ، فلم ادخل دارا للسينما فى القاهرة ، منذ أعوام طويلة ، وكنت أستعيز عن ذلك بزيارة دور السينما الاوربية خلال وجودى بالخارج ، ولا سيما فى فيينا ومدريد . وكنت أفضل رؤية الافلام المصرية الممتازة أو الاجنبية ، بمنزلى على شاشة التليفزيون مع أفراد عائلتى . وما زال هذا رأى حتى كتابة هذه السطور . كما أنى هجرت زيارة مقاهى القاهرة ومنتدياتها ، فى العهد الاخير بتاتا ، بعد أن انحطت مستويات هذه المقاهى ، وانحطت مستويات زوارها الى حدود تنفر منها النفوس الكريمة ، مكتفيا فى ذلك بالاجتماعات الجماعية المحترمة ، خلال المناسبات الرسمية ، أو المؤتمرات العلمية وامثالها وفى نظرى أن مدينة القاهرة العظيمة غدت مع شديد الاسف فى عهدنا

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الحاضر مدينة موحشة مبتذلة من النواحي العمرانية والاجتماعية والجمالية ، ولم تبق بها معاهد أو منتديات تصلح للطبقات المحترمة ، التي كانت تعمر القاهرة القديمة والمنتديات القديمة .

أما عن برامج الاذاعة والتلفزيون ، فانه يؤسفني ان اقول انها لم تكن غنية ، ولا جدابة فانه لم يكن بها الكثير من الاحاديث أو المواد المفريية بالأصفاء والمشاهدة ، وقد كنت قبل العهد الحالي اقدم لبرنامج الاذاعة الثقافي بعض الاحاديث التاريخية والتذكارية بتكليف منها ، ولبثت على تقديمها في الاعوام الاولى من العهد الحالي . ثم جاءت دعوة العروبة ثم الاشتراكية فغطت في الاذاعة على كل شيء ، وانقطعت عن المساهمة في الاذاعة بأى نوع من أنواع المشاركة ماعدا قرص قليلة كنت ادعى فيها مع بعض الزملاء لمناقشة موضوع أو كتاب تاريخي . ومن جهة أخرى فاني لم اقبل أى دعوة من التلفزيون ، لاننى كنت اعتبره كالاذاعة لسان الدعوة للنظام القائم . ومن ثم فقد اعتزمت أن لا أستجيب لأية دعوة من جانبه . وكم كنت آسف حينما أشاهد بعض برامج التلفزيون الانجليزية عند ولدى الدكتور محمود بانجلترا وأشعر بالاهتمام والمتعة لما أشاهده من المناظر والاحاديث المختارة واللقطات الجميلة ، وأذكر ما يعتور برامجنا في القاهرة من الضعف والنقص المغيب ، وكيف أنها ترصد معظم نشاطها للاحاديث والدعايات المفرضة ، مما يزهد في متابعتها .

وأستطيع بهذه المناسبة أن أقول كلمة عما كانت عليه القاهرة ، قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية ، وهو العهد

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الذى بلغت فيه قمة البهاء ، وال عمران . فقد كانت القاهرة يومئذ مدينة عظيمة جميلة نظيفة تفص شوارعها الكبرى بالمحلات التجارية الكبرى ، وبالمقاهى والبارات الارستقراطية الجميلة ، ومنها مقهى « صولت » ، وقد كان افخر مقاهى فؤاد ، ونظير محلات جروبى ، فى الرقى والفخامة ، وكان يقع فى المكان الذى يشغله اليوم محل « أوريكو » التابع لشيكوريل . وكان يوجد بنفس الشارع مقهى فنش الالماني ، وهو محل بيرة ومطعم على الطريقة الالمانية . ويوجد بشارع عماد الدين مقهى ومطعم الاوبلسك ، كما كان يوجد بشارع ألفى على مقربة من الكورسال ، ملعب ومنتدى « البيلوت باسك » الشهر ، الذى تجرى فيه بالليل على الاضواء الساطعة هذه اللعبة الاسبانية المشهورة ، بين طرفين من لاعبيها الاسبان ، ويفص عندئذ بالمتراهنين والفيد من مختلف الجنسيات . وكان مترو مصر الجديدة يتبدى عندئذ من شارع عماد الدين بحذاء الكورسال ، ثم يفارقه قبيل نهايته ، وينطلق فى طريق المحطة فى مساره العادى . وكان عماد الدين يحتوى على معظم المسارح والكباريهات الشهيرة ، وبالاخص كباريه مدام مارسيل . وقد كان مدى أعوام أنجح المنتديات الاثيقة وأزخرها ، وفيه كانت تعرض الرقصات والأغاني من أشهر نجوم مختلف البلاد الاوربية ، ويؤمه عليه القوم من مختلف الطبقات .

قصة الوسام الهترى

هذا ، ولا بد لى أن اذكر هنا حادثا هاما ، وقع لى فى صيف سنة ١٩٤٩ ، قبيل الحرب بفترة وجيزة ، وكان

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

له أشد الوقع في نفسى . ويجب ان اذكر أولا ، اننى بالرغم من محبتى للثقافة الالمانية ، واتصالى بها بانتظام أيام عملى الصحفى ، كنت من أشد خصوم النظام النازى ، وأشد خصوم زعيمه الدموى أدولف هتلر . وقد زرت ألمانيا مرارا قبل قيام النظام النازى ، ثم زرتها مرتين بعد قيامه ، وشهدت الكثير من مظاهره المروعة ، فى التنفيذ والعمل ، وكان يسهل على الوقوف على أحوال ألمانيا ونظمها معرفتى الجيدة للغة الالمانية . وقد كتبت منذ قيام النظام النازى ، وتوالى تطوراته ونظمه العنيفة ، الكثير ضده فى حملات وفصول ملتهبة ، ولا سيما فى مجلة الثقافة . وقد مر على إدارة المطبوعات ، قبل قيام النازية وبعدها ، بعض الصحفيين الالمان ، وكنت أقدم اليهم من المساعدات والتسهيلات ما أقدمه لسنسائر الصحفيين الاجانب ، دون التأثير بصفاتهم وجنسياتهم .

فى ذات يوم حول منتصف يوثية سنة ١٩٣٩ ، علمت من مصدر لا أذكره اليوم ، أنه قد ورد لى ولصديقى وزمىلى الاستاذ حسن يوسف (باشا) الذى كان مديرا لقسم الصحافة بوزارة الخارجية ، ثم فيما بعد مديرا للرقابة ، لكل منا وسام : تقديرى من حكومة الريخ الثالثة (الحكومة الهتلرية) . فسألت فى الحال صديقى المرحوم الاستاذ ابراهيم الدسوقى ، الذى كان يومئذ السكرتير الشرقى بالسفارة الالمانية فأكد لى صحة الخبر ، وذكر لى أن الوسامين قد وردا فعلا ، وأن السفارة على وشك أن تقدم فى شأنهما مذكرة رسمية الى وزارة الخارجية .

وقد انزعجت لهذا الخبر ايما انزعاج ، وكأنى تلقيت

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

في قلبي طعنة اليمية ، وبادرت في الحال بالاتصال تليفونيا بالسفارة الألمانية . وطلبت محادثة السفير الألماني أومستشار السفارة ، فقبل لي أن السفير غير موجود ، وتذكرت عندئذ ماقراته منذ وقت قريب من أن السفير الألماني (الهيروا خندروف) ، قد غادر السفارة فارا إلى الشرق الأقصى ، لأنه لم يكن متفقا مع الحكومة النازية . وعندئذ طلبت محادثة المستشار ، ولما اتصلت به رجوت منه أن أقبله فورا لمسألة خطيرة أود محادثته في شأنها ، وكان ذلك في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، ففضل بدعوتي إلى رؤيته في الحال . فذهبت مسرعا إلى السفارة الألمانية ، واستقبلني المستشار بمنتهى الودعة . وفي الحال ذكرت له مايلفني من خبر الوسام الممنوح لي من حكومة الريخ الثالثة ، وهو خبر أكد لي صحته ، وقلت له بمنتهى الصراحة أن هذا الأمر يدهشني أعظم الدهشة ، لاني من أشد خصوم الحركة النازية والنظام النازي ، وقد كتبت ضده ، وضد زعيمه الكثير من المقالات العنيفة ، فكيف يمكن أن تقدم حكومة الريخ على أن تمنحني وساما ينطوي على تقديرها . فأجابني المستشار بأن حكومة الريخ تقدر ماقيمتم به من الخدمات والتسهيلات الودية للصحفيين الألمان ، فقلت له أن هذه الخدمات والتسهيلات تمنح لسائر الصحفيين الأجانب . وأنا لم أقم نحو الصحفيين الألمان إلا بواجبي . واني أزيد على ذلك بأنني رجل ديمقراطي حر ، ولا يمكن أن أقبل أي تقدير مهما كان نوعه من حكومة الريخ الثالثة الدكتاتورية ، فأجابني المستشار ، ونحن كذلك في ظل حكومة الريخ الثالثة شعب ديمقراطي حر ، فأجبتة بحزم وصراحة ، اني أعتذر

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

أشد الاعتذار عن عدم قبول هذا الوسام بأية صفة ، وقد جئت لأطلعك على رأي واعتداری عن هذا الرفض ، وذلك قبل أن تقدم السفارة في شأنه مذكرتها إلى وزارة الخارجية . وقد رأيت ذلك من واجبي حتى لا تقع في ذلك أزمة لا تحمد ، فقال المستشار ، انى أشكرك جزيل الشكر على هذه الصراحة ، وهذا المسعى ، وسوف تحقق رغبتك في عدم الكتابة إلى وزارة الخارجية ورد الوسام إلى حكومة الريخ ، مشفوعا باعتذارك عن قبوله . وشهد المستشار على يدي بحرارة مودة ، وغادرت السفارة ، وأنا لا أكاد أصدق ما حدث ، ولا أكاد أحتفظ بتوازنى ، وكأننى نجوت من سهم مسموم كان مصوبا إلى صدرى ، وقمت في الحال بكتابة تقرير مفصل عن هذا الموضوع ، وقدمته لرئيس الوزارة ووزير الداخلية . وقد كان يومئذ محمد محمود باشا . ولم أخطر أحدا بهذا الحادث ، ولم أتصل في شأنه بأية صحيفة ، وآثرت كتمانها واعتباره سرا خاصا .

وانى لأعتبر هذا الحادث الدبلوماسى من أهم الاحداث التى وقعت فى حياتى ، ويسعدنى أن عشت حتى استطعت أن أودعه هذه المذكرات .

وانى لأعتبره شرفا عظيما لى أن أرفض بهذه الطريقة الجريئة الحاسمة وسام تقدير من حكومة « الريخ الثالثة » أعظم وأقوى وأعنف الحكومات الأوروبية يومئذ ، وانه لكذلك أسطع شاهد بحرية قلمى ، ورسوخ مبادئ الديمقراطية الحرة ، التى كان هذا الرفض أعظم تقييم لها ، وأعظم دفاع عنها .

وقد علمت فيما بعد أن تقديم هذا الوسام ، قد ألقى كذلك فيما يتعلق بزيملى الاستاذ حسن يوسف (باشا) .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وحدث بعد ذلك بأسابيع قلائل أن سافرت ، فى أواخر شهر أغسطس سنة ١٩٣٩ ، الى سويسرا ، ثم سافرت منها الى ألمانيا ، وكنت فى هذه المناسبة ، مدعوا لحضور مؤتمر نادى القلم الدولى باستوكهلم عاصمة السويد ، وكان من المتفق عليه أن أتسلم تذاكر السفر إليها فى برلين . ولكنى حينما قصدت الى ألمانيا ، بالسكة الحديدية عن طريق شافهاوزن كان جو الحوادث الدولية مكفهرًا ، وكانت نذر الحرب ، موضع الحديث فى كل مكان . ولما وصلت الى برلين فى أواخر أغسطس أرسلت تليفرافا الى استوكهلم للأستفهام عن مصير مؤتمر نادى القلم ، فجاء الرد بأنه ألقى نظرا للظروف الدولية . وكنت خلال اقامتى ببرلين التقى كل يوم بصديقى المرحوم أمين بك رستم ، وكان يومئذ قنصلنا ببرلين . ولم تمض على ذلك بضعة ايام ، حتى أعلنت ألمانيا الحرب على بولونيا ، على اثر مطالبتها بدانزج وذلك فى أول سبتمبر ، وفى الثالث منه أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا وبدأت بذلك الحرب العالمية الثانية ، فبادرت بالتفكير فى مغادرة برلين ، قبل أن يقع لى حادث مكدرد ، واستطعت بعد البحث ، أن أستقل آخر قطار من محطة انهالت ببرلين متوجها الى ميونخ ، وكان يحمل سائر الدبلوماسيين الذين قضت ظروفهم أن يغادروا برلين . ووصلنا الى ميونيخ صباح اليوم الثانى ، ونزلت فى فندق قريب من المحطة تديره جماعة من الراهبات ، وأخذت أترقب فرصة للسفر الى فيينا ، واستطعت بالاتصال بسلطات المحطة أن أسافر الى فيينا فى قطار بضاعة كان متوجها إليها . ورأيت الاحوال متغيرة فى فيينا ، وكان الاجانب المقيمون

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بها يمنحون بطاقات تموينية ، ولكنى لم أرد الحصول على هذه البطاقة ، وآثرت الاختفاء والاكل المستمر بالمطاعم المتاحة ، واتصلت عندئذ بسفيرنا في فيينا ، وكان يومئذ صديقى الاستاذ عبد الكريم صفوت ، فلما قابلته ، رجاني أن أصطحب معى فى العودة السيدة حرمه وولده الصغير ، فوافقنا على القيام بتلك المهمة الاخوية . وبعد بضعة أيام سافرنا معا بالسيارة الى الحدود النمساوية المجرية ، وسهل الله لنا بالمرور من نطاق بوليس الحدود النازى ، ووصلنا سالمين الى بودابست . ثم سافرنا منها بقطار الشرق الى ائينا ، وكان مازال يعمل بانتظام فى اواسط أوروبا ، فوصلنا اليها فى اليوم التالى . ثم وقفنا الى السفر الى الاسكندرية على ظهر باخرة رومانية كانت ترسو فى المياه اليونانية ، ووصلنا بسلامة الله ، وحمده الجزيل الى أرض الوطن . وكان وصولى الى منزلنا بالقاهرة مفاجأة سارة لعائتى ، التى كان يساورها أشد القلق على مصرى .

التدريس فى معهد الصحافة بكلية الآداب

فى سنة ١٩٤٠ ، انشئ بكلية الاداب بجامعة فؤاد الاول (القاهرة فيما بعد) معهد الصحافة العالى ، وندب للاشراف عليه صديقى وأستاذى المرحوم الاستاذ محمود عزمى ، فدعاني الى معاونته . وتوليت فى البداية تدريس تاريخ الصحافة المصرية والاوربية لطلابيه ، وكانوا عندئذ عددا قليلا من الطلاب والطالبات ، وكنت ألقى دروسى مرتين فى الاسبوع . ثم نما المعهد بسرعة ، وكثر الاقبال عليه من الطلاب حملة الليسانس فى الاداب والبكالوريوس

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

في العلوم ، وتفاهمت مع أستاذي الدكتور عزمي ، على ادراج مادة جديدة في برنامج المعهد ، هي مادة المذاهب الاجتماعية ، نظرا لما حدث في وقتنا من قيام النظام الفاشستي بايطاليا ، ثم النظام النازي بألمانيا ، هذا الى جانب النظام الديمقراطي ، والنظامين الاشتراكي والشيوعي ، وهي كلها مواد يجب على الطالب الصحفي ان يدرسها دراسة جيدة ، ليكون ملما بأوضاع العصر ومشاكله ، وكنت قد زرت ايطاليا في ظل النظام الفاشستي غير مرة ، وكذلك زرت ألمانيا مرتين بعد قيام النظام النازي ، ووقفت من الناحية العملية على كثير من أوضاع هذين النظامين العنيفين ، وحصلت عنهما على مصادر ووثائق كثيرة . وكانت الفكرة ناجحة ، وأقبل الطلاب بشغف على استماع محاضراتي في هذه المادة التي غدت فيما بعد من أهم مواد الدراسة في معهد الصحافة العالي . ثم جمعت محاضراتي فيما بعد في كتاب وضعته للطلاب بعنوان «المذاهب الاجتماعية الحديثة ، وتطوراتها القانونية والدستورية» ، فتلقاه الطلاب بشغف ، وطبع غير مرة ، وهو اليوم ما يزال بين أيدي القراء في طبعته الخامسة ، بعد أن زيدت مواده زيادة كبيرة ، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وما ترتب عليها من النتائج والتطورات الخطيرة في تقسيم أوروبا ، وشئونها وأوضاعها . وانفردت بتدريس هذه المادة لطلاب الصحافة بضعة أعوام ، وتركت مادة تاريخ الصحافة ليتولاها غيري من الزملاء . ولم يكن جو التدريس بالمعهد دائما صافيا . بل كان عرضة للدسائس المستمرة من جانب معيبد وغد حقود ، كان يلتمس الى نفوذه وشق طريقه خدمة بعض عمداء الكلية في

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الدعاية للانتخابات وغيرها . ولكنى لبشت مع ذلك فى القيام بالتدريس فى المعهد حتى سنة ١٩٤٨ ، ثم تركته . وكان أستاذى الدكتور محمود عزمى قد تركه أيضا لتعيينه نائبا بمجلس الدولة ، ثم ضمه فيما بعد الى وفد مصر لدى هيئة الامم المتحدة .

ومما هو جدير بالذكر ، ومما يدعو الى الاسف فى نفس الوقت ، ان خريجى معهد الصحافة العالى ، بالرغم مما حصلوا عليه فى المعهد من المؤهلات الممتازة ، لم يجدوا حين سعيهم فى الالتحاق بالصحف الكبرى ، بقصد التمرين العلمى ، ما كان واجبا أن يلقوا من ترحاب وتشجيع ، بل بالعكس ، لقوا من المسئولين ، ومن زملائهم العاملين ، معاملة جافة ، خالية من المجاملة ، لان هؤلاء العاملين ، ومعظمهم لا يحمل مؤهلات محترمة ، كانوا يشعرون الى جانب خريجى المعهد ، بالفيرة والتوجس ، من تفوقهم العلمى والمهنى ، ومن ثم فانه لم ينجح سوى القليل من أولئك الخريجين فى مواولة العمل الصحفى فى هذا الوسط الشائك .

ولقد كنت على الرغم من المتاعب التى ألقاها فى التدريس بالمعهد ، وضالة المكافآت التى أحصل عليها ، كنت سعيدا بهذه المهمة ، التى اتصلت خلالها بأفواج لامعة من الشباب الجامعى ، ووقفت خلالها على الكثير من أحوال كلية الاداب وشئوننا ، وانى لانتهاز هذه الفرصة لاذكر انه كان يقوم بالتدريس بكلية الاداب ، اساتذة ليست لهم مؤهلاتى الدراسية والعملية ، ولم يكن بعضهم يتجاوز فى تعليمه المرحلة الابتدائية ، ومع ذلك فقد تولوا التدريس ، ووقوا الى عمادة الكلية ، بحكم توليهم بعض الوظائف الكبيرة من

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

قبل ، وبحكم الروتين والمحسوبة على انى لم اكن أسفا على مثل تلك الحالة ، ولا غيرها من الاحوال الوظيفية ، لانى ادركت خلال عملى فى الوظيفة الحكومية مبلغ ما ينطوى عليه الوسط الوظيفى من الوضاعة والانحلال الاخلاقى والادبى ، والركود الفكرى وانعدام الضمير والشعور بالمسئولية ، وهو ما يبدو اليوم ، وانا اكتب هذه السطور بعد ثلاثين عاما من ترك الوظيفة الحكومية ، فى أشد صورته بالادارات الحكومية .

عودة الى شئون الوظيفة

قضيت أعوام الحرب العالمية السبعة قائما بعملى فى ادارة المطبوعات ، حتى انتهت الحرب بسحق المانيا النازية وإيطاليا الفاشستية ، وفرضت شروط النصر على المانيا النازية ، ومزقت أشلائها ، وقامت هيئة الامم المتحدة لتشرف على شئون عالم ما بعد الحرب . وكنت خلال ذلك تساورنى فكرة الاستقالة من العمل الحكومى ، خشية ان يؤثر هذا المدى الطويل فى انتاجى الفكرى . على اننى من الناحية الاخرى كنت حريصا أشد الحرص على متابعة نشاطى الفكرى ، ومتابعة اخراج مؤلفاتى ، وذلك حسبما اذكره فيما بعد فى الفصل الخاص الذى أعقده لذلك الموضوع .

وفى سنة ١٩٤٨ ، حدث ما لم اكن اتوقعه من اقالتي من عملى بادره المطبوعات لنزعة طارئة لوزير حقوق جهول . وذلك انه حدث أن نشرت احدى الصحف الاسبوعية المضمورة مقالا ضد الاستاذ العقاد ينطوى على سب شديد مقدع . فاستدعانى رئيس الوزارة ووزير

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الداخلية يومئذ النقراشي ، وطلب منى أن أبعث من إدارة المطبوعات ببلاغ الى النيابة العمومية للتحقيق في هذا القذف مع كاتب المقال . ولما كان مثل هذا العمل ، ليس من شأن إدارة المطبوعات ، وليس من اختصاصها أن تتولى وكالة التبليغ الجنائي في المسائل الشخصية البحتة، فقد اتصلت في ذلك بوكيل الداخلية المرحوم حسن رفعت باشا ، وأبلغته ما طلب الى الوزير ، وشرحت له وجهة نظري فأقرها ، وطلب منى أن أقدم له مذكرة بذلك ، فقدمت اليه المذكرة المرغوبة ، ووافق عليها . ويجب أولا أن أذكر أنه كانت تربطني بالنقراشي صداقة قديمة ، من وقت ان كان معلما بأسسيوط ، وعرفني به تلميذه المرحوم الدكتور عبد الرازق السنهوري . وكنا طول الوقت على مودة منتظمة ، ومن ثم فقد كنت أعتقد أنه سوف يقتنع بوجهة نظري ، وسلامة نيتي .

استدعاني النقراشي بعد يومين الى مكتبه ، وسألني عما فعلت في مسألة تبليغ النيابة ، فشرحت له وجهة نظري باختصار ، وأفهمته أن هذا ما وافق عليه وكيل الداخلية ، فتجهم وجهه ، ولعت نظرتة ، وصاح بي « هو دا يا فندي مبلغ طاعتك الأوامري » . اذهب الى مدير الأمن العام لكي تتلقى أوامره .

وعلمت بعد قليل من مدير الأمن العام ، وقد كان يومئذ المرحوم عبد الرحمن عمار ان الوزير أمر بنقلي من إدارة المطبوعات الى مكتب وكيل الوزارة . وقال لي ان الوزير صديق للأستاذ العقاد ، وهذا سر غضبه . .

ويجب أن أذكر بهذه المناسبة ، انني لم أكن أتعاطف مع العقاد ، ولم أكن أذهب في تقدير أدبه الى المدى الذي

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

يذهب اليه كثير من الشباب الذين يلتفون حوله ، ويحضرون ندواته . والعقاد كاتب كبير بلا شك ، ومؤلف خصب وافر الانتاج . ولكن معظم كتبه التي بدأها بالفصول النقدية والعبقریات الخالية من كل مادة علمية حقيقية ، ثم أعقبها بسلسلة طويلة من الكتب المختلفة ، التي لم تكن على الأغلب سوى خلاصة لما يهضمه من قراءة بعض المؤلفات الأجنبية الحديثة ، ولم تكن تجذب اهتمامي ، وأسلوبه بالرغم من سلامته العربية ، أسلوب جاف ، بعيد عن الجزالة ، التي يمتاز بها أسلوب زميله وصديقه المازني وإشراقه . أضف الى ذلك ما كان يتسم به العقاد من التعالي والفتوسة والغرور الذي لا نهاية له . وهذا كله مما كان يبعثني عن التعاطف معه .

على أن هذا الرأي الخاص بالنسبة للعقاد وأدبه ، لم يكن له أية علاقة بالتصرف القانوني السليم ، الذي اتخذته في موضوع التبليغ الى النيابة للتحقيق مع الجريدة القاذفة ، ولكن النقراشي كان يرى ان رأيه هو القانون ، وأن رغباته يجب أن تنفذ مهما كانت مخالفته للنظام والقانون . وماذا عليه أن يسخر القانون وسلطات الدولة لتحقيق أهوائه . ومن ثم فقد عز عليه ان يقوم موظف مثلي من التابعين لرياسته وسلطاته بالوقوف ضد رغبة من رغباته .

وأذكر بهذه المناسبة انني ذهبت لمقابلة صديقي المرحوم الدكتور حافظ عفيفي باشا مدير بنك مصر ، ورئيس مجلس ادارته . وقصصت عليه ما فعله النقراشي معي ، فقال لي أن النقراشي رجل حقود (وقالها بالفرنسية Rancunier) طول حياته ، وأنا مستعد لأن آخذك

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

للعمل معى فى البنك ، وأعطيك ادارة من اداراته الثمانية تكون مديرا لها ، وهى ادارة السكرتارية ، فتأثرت لوفائه ونجدته ، ووعدت بدراسة اقتراحه . وقد فكرت طويلا فى هذا العرض الكريم ، وقد كان عرضا سخيا سواء بمكانته أو مرتبه . ولكنى بعد التفكير ، خشيت أن يكون وجودى فى المنصب المصرفى ، وفى هذا الوسط الجديد من الأعمال البعيدة فى نوعها عما ألفته ، مما يشغلنى عن أعمالى وجهودى الأدبية ، وقد استطعت حتى الآن ، أن أحافظ على مشابرتى فى معالجتها ، هذا فضلا عن أن هذه الوظيفة لم تكن لتتيح لى الأوقات الحرة التى تحتاجها رحلاتى الدراسية . ولست أعرف أن كنت قد أخطأت أو أصبت فى هذا التفكير . ولكن الذى حدث هو أنى اعتذرت عن قبول هذا العمل ، وإن كان يسعدنى دائما أن أتعاون مع هذا الصديق الشهم الوفى .

والخلاصة أننى لم أر بعد صلف النقراشى ، ووضع تصرفه ، إلا أن أترك وزارة الداخلية ، فذهبت لمقابلة صديقى المرحوم الدكتور عبد الرازق السنهورى ، وكان يومئذ وزيراً للمعارف ، وأبلغته بما حدث ، فعرض على أن أنتقل تحت رعايته فى وزارة المعارف ، فقبلت هذا العرض ، وثم نقلت إلى المعارف بإدارة الثقافة العامة ، رئيساً لقسم الترجمة ، وقد كنت حين وجودى بالداخلية مرشحا وحيدا للترقية إلى الدرجة الثانية ، وكنت أظن أن النقل من وزارة إلى أخرى لا يضع حقى فى هذه الترقية . ولكن الدكتور السنهورى قال لى أنه ليس بوسعك أن يحقق لى هذه الأمنية خشية « أن يثور ضده المعلمون » . فتركت الأمر وفى نيتى أن أترك خدمة الحكومة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

متى توفرت لى مدة الخدمة التى تعطينى الحق لى المعاش .
بيد أنه حدث بعد ذلك بنحو عام ونصف أن تولى صديقى
المرحوم الدكتور طه حسين وزارة المعارف ، فى وزارة
الوفد الأخيرة ، فعرضت عليه موضوعى ، فبادر بإصدار
القرار بترقيتى الى الدرجة الثانية ، التى كنت أستحقها
منذ عامين ، وتعيينى مراقبا بإدارة الثقافة العامة ، ولما
عرضت عليه رغبتى فى تولى إدارة دار الكتب قال بالحرف
الواحد « أنها من نصيب فلان ، وهذه رغبة السراى
بالأمر » . وانتهى تجوالى فى الوظائف عند هذا الحد ،
فلبثت أترقب الفرصة لمفادرة هذا الوسط الحنكومى
البفيض المتعفن .

وقد سنحت هذه الفرصة غير بعيد عقب الحدث الخطير
الذى وقع فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . فى العام التالى
صدر قانون يجيز للموظفين اعتزال الخدمة بشروط معينة
مقرونة ببعض المزايا ، وحفظ حقهم فى قبض مرتباتهم
حتى بلوغ سن المعاش . فى الحال قدمت طلبى باعتزال
الخدمة ، وكان وزير التربية (المعارف) يومئذ صديقى
المرحوم الاستاذ اسماعيل القبانى ، فبعث الى صديق
الطرفين المرحوم الاستاذ فريد أبو حديد يطلب منى التريث
فى ترك الوظيفة ، انتظارا لترقية سريعة مؤكدة . فبعثت
اليه بخالص شكرى واعتذارى . وتم الأمر ، وغادرت
الوظيفة ، مفتبطا سعيدا ، باسترداد حريتى ، والتفرغ
لبحوثى التاريخية (ديسمبر سنة ١٩٥٣) . وكانت فى
الواقع خطوة حاسمة مباركة ، كان لها أكبر الأثر فى انتاجى
التاريخى الذى كنت أخطط له منذ أعوام طويلة سابقة ،
وكانت تعرفنى الوظيفة عن تنفيذها . وكان المفروض أن

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

معظم دراساتي وبحوثي سوف تجرى معظم الوقت ، بعيدا عن مصر ، في المكتبات والمخطوطات الخارجية . وكان هذا في ذاته مزية كبيرة ، لأنني كنت أشعر شعورا عميقا ، بأن جو العهد الجديد وظروفه بمصر ، لا تحمل على الاطمئنان النفسى . وكنت بعد لحظة قصيرة من التفاؤل الذى غمر الشعب عند وقوع الانقلاب ، انظر الى الدكتاتورية العسكرية الجديدة ، واتجاهاتها بتوجس وتشاؤم ، أثبتت الأيام فيما بعد ، اننى كنت صادق الحس ، بعيد النظر فى فهمه وفى تقديره .

هذا ، وسوف أفرد فى مكان آخر ، فصولا خاصة للتحديث عن هذا الموضوع ، وعن انطباعات هذا العهد وخواصه ، أما الآن ، فانى سوف أمضى فى استعراض جهودى العلمية والدراسية التى استطلت فى المكتبات والمحفوظات الاسبانية ، والخزائن المرفئية ، وعدد آخر من المكتبات والمحفوظات الأوربية ، زهاء عشرين عاما ، وأسفرت بحمد الله وتوفيقه عن اخراج موسوعة التاريخ الأندلسى .



بيد انه يجدر بى قبل ذلك أن أشير هنا الى امكنة أقامتى بمدينة القاهرة خلال هذا العهد الطويل ، الذى أسطر حوادثه .

كانت عائلتى المتواضعة خلال أيام دراستى تنتقل فى السكنى فى أحياء القاهرة الشعبية التى يسهل منها الوصول الى مدرستى . وكنت أثناء دراسة الحقوق ، أقيم بمفردى فى شقة أرضية متواضعة بالحارة التى توصل

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بين شارع الخليج المصرى (بور سعيد الآن) وشارع جامع هابدين . ومنذ عدت من الاقاليم خلال حياتى العملية بالقاهرة ، تنقلت فى السكنى بين حى السيدة زينب وبركة الفيل . ثم سكنت هقبا زواجى سنة ١٩٣٠ فى منزل خاص يقع قرب وزارة المالية خلف مدرسة الخديو اسماعيل ، وبه ولد ولدى الأكبر الدكتور محمود ، وانتقلت منه الى شبرا تبعا لنصح الطبيب ، ورعاية لصحة ولدى ، فى حى طلق الهواء . وكانت شبرا يومئذ ما زالت ، فى اواخر أحيائها ، خالية فسيحة الأرجاء . فسكنت هناك فى فيلا جميلة ، ذات حديقة . ولما اشتد ولدى قليلا ، هدت الى المدينة ، وانتقلت الى الحلمية الجديدة فى منزل عائلى كبير من منازل الباشوات القدامى ، يقع فى شارع الهامى ، وكانت جل منازلهم يومئذ من الفيلات الخاصة ، وتسكنه طائفة من العائلات المحترمة ، ومنها منزل المرحوم محمد نسيم باشا ، وقد حول فيما بعد الى مدرسة . واستطالت اقامتى فى هذا المنزل نحو عشرين عاما ، وكبر به اولادى الثلاثة . وتخرج فيه ولدى محمود من كلية طب قصر العينى ، وتخرجت ابنتى سعاد من كلية الآداب بجامعة القاهرة . وعندئذ ، وحينما تحولت معظم منازل الشارع الى عمارات سكنية حاشدة ، رأيت أن أنتقل الى منزل آخر أكثر جدة وهدوءا ، وفى حى أرستقراطى . واستقر الراى العائلى ، على أن يكون ذلك فى ضاحية المعادى ، وكان ذلك فى سنة ١٩٥٨ . وكانت هذه الضاحية ما تزال يومئذ على رونقها وفخامتها التى أسبغتها عليها خططها الارستقراطية ، وسكانها الأجانب ، وكانوا يومئذ كثرة بها . ولم يكن قد أصابها الاهمال التدريجى ، والفرو

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الشعبى المبتدل . فنزلت بها فى دور كبير فخم ، هو الدور الأول من فيلا جميلة ، تقع فى شارع ٩ ، وبه غرفة كبرى تتسع لمكتبتى الكبيرة ، وبهذا المنزل تخرج ولدى حسين من كلية الحقوق . وما زلت أقيم مفتبطا بهذا المنزل الجميل الساحر ، حتى كتابة هذه السطور ، وذلك بالرغم من أنى أملك فى المعادى نفسها فيلا فخمة ، يسكن بها ولدى حسين وعائلته ، ويتولى شئونها ، وبالرغم مما طرا على المعادى من تغير كبير فى مستوى سكانها ، وما أصابها من الفزو الشعبى المؤذى ، وما تقاسيه من أهوال المواصلات التى لا تليق بأى مجتمع متمدن . والله الأمر من قبل ومن بعد .

الدراسات الإسبانية والمغربية

انى أعتقد أن هذه الفترة الطويلة ، من دراساتى التاريخية ، أو بعبارة أخرى دراساتى الأندلسية ، والتى كان مسرحها بالأخص فى اسبانيا والمغرب ، هى ألمع ما فى حياتى العلمية . وقد بدأت هذه الفترة بصدور الطبعة الأولى من كتابى . دولة الإسلام فى الأندلس ، فى سنة ١٩٤٣ . وقد كانت محاولة متواضعة ، ولم أكن حين صدورها قد وفقت الى دراسة أية من المصادر الأندلسية المخطوطة ، التى ظفرت بالكثير منها فيما بعد ، وقد بدأت زيارتى لشبه الجزيرة الإسبانية فى سنة ١٩٥٠ ، بعد أن استقرت الأحوال ، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية فدرست اللغة الإسبانية ، وقد بدأت بتعلمها بالمركز الثقافى الإسباني بالقاهرة على يد معلمنا السنيور سواريس ، وكنا فصلا صغيرا بحدود العدد . وحصلت فى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

دراستى على بعض الشيء . ولكنى مدين بدراستى الحقيقية ، وتقدمى فى تعلم الاسبانية الى استاذتى السيدة دونيا كارمن دى كامبوس ، حيث درست معها مدى فترات طويلة متوالية خلال اقاماتى بمدريد ، وهى سيدة أندليسية الاصل ذات ثقافة عالية ، وقد درست الادب الفرنسى فى باريس ، وقد كانت موظفة بمعهدنا المصرى بمدريد ، ثم اقبلت منه لبعض الوشايات . فالى هذه السيدة يرجع الفضل فى تقدمى الحقيقى فى اللغة الثقافية الاسبانية واجادتها دراسة وحديثا ، دون عيب فى النطق ، حتى انتهيت الى القاء العديد من محاضراتى التاريخية بمعهدنا بمدريد باللغة الاسبانية . وكان يشجعنى على ذلك حسبما اشرت اليه فى موضعه ، صديقى الدكتور حسين مؤنس ايام رياسته لهذا المعهد الجليل وقمت من سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٧٤ بأربع عشرة رحلة دراسية الى اسبانيا ، وقمت بعشر رحلات الى اقليم الاندلس زرت فيها الحواضر الاندلسية الشهيرة ، قرطبة ، وجيان ، واشبيلية ، وغرناطة ، ومالقة ، ورنده ، والمرية مرارا وتكرارا ، وهذا عدا ما قمت به من زيارة سائر قوائد اسبانيا المسلمة القديمة فى شمال الاندلس ، وفى شرقها ، ووسطها ، وغربها ، وفى الشمال ، فى الثغر الاعلى ، برشلونة وسرقسطة ، ولاردة ، ووشقة ، وتظيلة ، وطرطرشة ، وطركونة . وفى الشرق ، بلنسية ، ودانية ، وشاطبة ، ولقنت ، ولوريولة ، ومرسية ، وقرطاجنة ، ولورقة ، وفى الوسط ، مدينة سالم ، ووادى الحجارة ، وآبله ، وظيفلة ، وشلمنقة ، وفى الغرب ، بطليموس ، وقلمرية ، وباردة ، وشنترين ، واشبونة ، ولبلة ، وولبة ، وغيرها ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وغيرها . وما قمت به من زيارة سائر قواعد اسبانيا النصرانية التي لها علاقة بتاريخ اسبانيا المسلمة ، من حواضر قشتالة القديمة ، وقشتالة الجديدة ، وجليقية ، وليون ، وارانجون ، ونبرة . وقد استغرق هذا الطواف المستمر بأنحاء شبه الجزيرة الاسبانية زهاء أربعة أعوام من سنة ١٩٥١ الى سنة ١٩٥٤ . وكانت ثمرة هذا المجهود الكشفي الشامل ، اخراج كتابي « الآثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال » .

والى جانب ذلك ، فقد قمت بدراسات طبوغرافية وتاريخية لعدد من ميادين المعارك والوقائع الحربية الاخرى التي اضطرت بين الاندلس المسلمة واسبانيا النصرانية ، ولا سيما معركة الفتح الاولى بجبهة شريش ، ومعركة الصخرة ، او كسوفادونجا ، التي صمدت فيها فلول القوط أمام المسلمين ، وكان فيها مولد المملكة الاسبانية النصرانية ، ومعركة الزلاقة بجبهة بطليوس ، ومعركة الأرك بجبهة سانتا ماريا دي الاركوس على مقربة من ثيوداد ريال ، ومعركة العقصاب الكبرى في وديان سيرا مورينا ، وفي قرية سانتا ايلينا ، على مقربة من أبدة . كما زرت عددا كبيرا من أطلال الحصون الاسلامية القديمة . وقد كان لهذا التجوال الشامل في شبه الجزيرة الاسبانية ، ولهذه الدراسات التاريخية والجغرافية العميقة للمواقع والأطلال والآثار ، أكبر الأثر في تكييف دراساتي التاريخية ، وفي القاء الضوء على كثير من نواحيها الغامضة .

وأود أن أسجل بادىء ذي بدء ، أنى قمت بهذه الرحلات الدراسية كلها ، وغيرها ، الى المغرب ، وإيطاليا

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وانجلترا ، والتي كلفتني مبالغ طائلة ، خلال عشرين عاما ،
قمت بها على نفقتي الخاصة . ولم التمس بل ولم أكن
لأقبل أية معاونة مادية من أية جهة حكومية أو أية هيئة
علمية ، ضنا بحريتي في البحث والتفكير ، وحرية قلبي ،
التي كنت أضعها دائما طول حياتي ، موضع التقديس ،
واستطعت بحمد الله أن أحتفظ بها دائما ، وفي كل
الظروف .

هذا ، وقد كان مجال الدراسات الاندلسية في اسبانيا
غزيرا واسع المدى ، ففي مدريد ، توجد المكتبة الوطنية
الكبرى ، وهي بمحتوياتها المخطوطة والمطبوعة ، تعتبر من
أعظم دور الكتب في أوروبا . وإلى جانبها دار المحفوظات
التاريخية ، وهي تحتوى على وثائق أندلسية عديدة عربية
ومدجنية ، ثم هنالك مكتبة أكاديمية التاريخ ، وبها
مجموعتان من المخطوطات العربية النفيسة ، هما مجموعة
جاينجوس ، ومجموعة كوديرا ، هذا الى مجموعة من
مخطوطات الالخمياو الموريسكية .

وعلى مقربة من مدريد توجد بقصر الاسكوريال الملكى
El Escorial مكتبة الاسكوريال الشهيرة ، وهي المكتبة
الملكية السابقة ، وهي تضم الى جانب ما تضمنه من
المجموعات النفيسة ، المخطوطة والمطبوعة ، مجموعة
المخطوطات الاندلسية والمغربية الشهيرة ، وعددها نحو
الفى مخطوط ، ومن بينها عدد كبير من بقايا مخطوطات
المكتبة الزيدانية المغربية الشهيرة (مكتبة السلطان مولاي
زيدان) التي استولى عليها الاسبان قسرا في عرض البحر ،
في المياه المغربية ، في سنة ١٦١٢ م ، وضمت الى مكتبة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الاسكوريال الملكية ، وكانت مجموعة المخطوطات الاندلسية والمغربية بالاسكوريال ، تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط . ولكن ثبت النار في الاسكوريال في سنة ١٦٧١ ، والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم يبق منه سوى الألفى مخطوط التي سبق ذكرها ، وقد وضع العلامة ميخائيل الفزيري اللبناني المعروف في الغرب باسم ، فهرسا علميا جامعا لهذه المجموعة باللغة اللاتينية ، صدر في مجلدين كبيرين (سنة ١٧٦٠ - ١٧٧٠) . ثم قام المستشرق الفرنسي هارتفيج ديرنبور في أواخر القرن الماضي بوضع فهرس جديد بالفرنسية للمجموعة الاندلسية المغربية وتوفي قبل اتمامه ، قائمه بعض تلاميذه من مذكراته ، وهو الذي يرجع اليه معظم الباحثين .

ويوجد بين مجموعة الاسكوريال العربية ، عدد كبير من المصادر التاريخية والأدبية التي تلقى أضواء كثيرة على التاريخ الأندلسي . وقد أنفقنا خلال الأعوام المتوالية ، منذ سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٧٠ ، زهاء عشرين عاما ، أوقاتا عديدة في الاشتغال بهذه المكتبة التالدة ، وزرناها عشرات المرات ، وحصننا على الكثير من صور مخطوطاتها النفيسة ، وما زلنا حتى اليوم نتردد عليها كلما سنحت لنا الظروف بزيارة مدريد .

ومكتبة الاسكوريال ، وهي حسبما أشرنا ، المكتبة الملكية السابقة ، يقوم بإدارتها الآباء الأوغسطينيون ، ومديروها من هؤلاء الآباء الأفاضل ، وقد كانت تربطني بهم دائما روابط مودة صادقة ، ولا أذكر أنهم أهملوا قط في تحقيق أية رغبة من رغباتي خلال الاوقات العديدة ، التي كنت أشتغل فيها تحت رعايتهم وجميل مفادتهم .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وأما عن دور المحفوظات والوثائق ، فهناك أولا دار المحفوظات الإسبانية العامة **Archivo general de Simancas** في سيمانكا وهي من أعظم دور المحفوظات في العالم ، وهي تقع في سيمانكا **Simancas** على مقربة من مدينة بلد الوليد **Valla Dolid** في قلب قشتالة القديمة ، على بعد أربع ساعات بالقطار من مدريد ، وتضمها قلعة إسلامية قديمة ضخمة ، قد جددت ونظمت ، وبها أبهاء عديدة تفص بالمحفوظات والوثائق الثمينة ، ومن بين أبهائها ، أكثر من بهو يضم مجموعات كبيرة من الوثائق العربية ، الأندلسية والمغربية ، وبها عدة أبهاء تضم وثائق ديوان التحقيق **Inquisicion** وقد زرناها واشتغلنا بها مرارا ، وصورنا هذه المكتبة الملكية السابقة . ويعتبر الاسكوريال من أضخم وأفخم الصروح الملوكية ، أنشأه فيليب الثاني ملك إسبانيا تخليدا لذكرى انتصاره على الفرنسيين في موقعة سان كاتان (سنة ١٥٥٧ م) ، وتنوينا بذكر القديس لورنزو الذي استمد فيليب الثاني عونه في تلك الموقعة . واستغرق بناؤه اثنين وعشرين عاما . وهو يضم قصرا ملكيا وكنيسة وديرا ، ومكتبة ، ومعهدا دينيا ، ومدفنا ملوكيا . وتفص أبهاء الجناح الملكي بالصور والبسنت الفاخر والتحف النادرة . على أن الذي يهم الباحث المتطلع من قصر الاسكوريال هو جناحه الأيمن . ففي هذا الجناح تقع المكتبة الملكية الشهيرة ، وإلى جانبها تقع الكلية الدينية التي يديرها الآباء الاوغسطينيون ، وهم الذين يشرفون

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

على المكتبة . وتضم المكتبة (١) . بهوا شاسعا فحما به سقفه بالحنايا المعقودة ، وتعرض فيه اليوم ، طائفة من المخطوطات النادرة التي تحتويها المكتبة . ومنها مصحح أندلسي ملوكي من القرآن الكريم ، كان ملكا للسلطان أحد المنصور ملك المغرب ، زينت صفحاته بنقوش ذهبية رائعة ومنها مخطوط عربي مصور عنوانه : « السلوانات مسامرة الخلفاء والسادات » ، ويحتوي على طائفة مصور من قصص الخلفاء ، وهو من تأليف محمد بن ظف الصقلي . ومخطوط آخر مصور أيضا من كتاب « مناد الحيوان » من تأليف ابن الدريهم الموصلية . ونسبة خطية قشتالية من كتاب الفونسو العالم في الفلك ، و الكتاب الذي عاون في تأليفه بعض علماء الأندلس .

ومكتبة الاسكوريال ليست غنية من الناحية الرقمية فهي تضم نحو ستين ألف مجلد فقط . منها خمسمائة ألف مجلد مطبوعة . ولكنها غنية بالأخص بما تحتويه نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها ويبلغ ما تحتويه اليوم من المخطوطات العربية ثمانية آلاف مخطوط .

ولهذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية قصص مشجبة ، خلاصتها أن الكتب العربية بدأت تود في المكتبة الملكية بقصر الاسكوريال منذ انشائها ، وكما معظمها من المخطوطات الاندلسية التي جمعت من قواء الاندلس المفتوحة . وكانت يومئذ تبلغ عدة آلاف

(١) واسم هذه المكتبة الرسمي هو : « المكتبة الملكية لدير القديس لورنزو بالاسكندرية »

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وقع بعد ذلك حادث ترتبت عليه أن ضوعف عدد المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال . هو استيلاء الاسطول الاسباني على المكتبة الزيدانية المغربية في عرض البحر ، وهى مكتبة السلطان مولاي زيدان ابن السلطان أحمد المنصور . وكان مولاي زيدان قد اضطر تحت ضغط الفتن واشتداد ساعد خصومه ، أن يفـادر عاصمته مراكش ، وأن يحمل معه أمواله وذخائره ومكتبته الثمينة ، وكانت تحتوى على نحو ثلاثة أو أربعة آلاف من نفائس الكتب المغربية والاندلسية والمشرقية ، فى عدد من السفن استأجرها لكى تحمله مع ذخائره شمالا فى اتجاه ثغر أغادير ، وقد فاجأها الاسطول الاسباني فى عرض البحر ، واستولى عليها . وكان ذلك فى سنة ١٠٢١ هـ - ١٦١٢ م . وحملت هذه المكتبة الثمينة غنيمة لتودع فى المكتبة الملكية بقصر الاسكوريال ، وارتفع بذلك عدد المخطوطات العربية فى المكتبة الملكية الى نحو عشرة آلاف مخطوط . وكانت أعظم وأثمن مجموعة من نوعها ، ولا سيما لما كانت تحتويه المكتبة الزيدانية من نوادر الكتب التى جمعها صاحبها السلطان الأديب العسالم مولاي زيدان ، وكان من عشاق نفائس الكتب .

واستمرت هذه المجموعة النفيسة الضخمة من الكتب العربية بقصر الاسكوريال ، حتى وقع به الحريق الكبير فى سنة ١٦٧١ . وامتد هذا الحريق المدمر الى المكتبة فأتى على معظم الكتب العربية ، ولم يبق من هذه المجموعة العظيمة سوى نحو ألفى مخطوط هى التى ما زالت تثوى الى اليوم بدير الاسكوريال .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وما زالت هذه المجموعة العربية بالرغم مما نزل بها من النكبة الفادحة ، تجذب أنظار الباحثين في المشرق والمغرب ، وما زالت تضم عددا كبيرا من الكتب النفيسة النادرة ، ومنها نحو مائة مخطوط من محتويات المكتبة اليزيدانية السابقة .

وكانت الحكومة الإسبانية أثناء هذه العصور تحرص كل الحرص على اخفاء هذه المجموعة العربية ، عن نظر كل باحث ومتطلع ، كأنما كانت تخشى أن تبث روح التفكير الاسلامي في تفكير اسبانيا النصرانية ، بعد أن بذلت لقتل هذه الروح كل جهد ووسيلة ، وكان الكتاب الاسبان انفسهم تحملهم نزعة الدين والجنس ، يعرضون عن كل بحث وتنقيب في هذه المصادر النفيسة التي تلقى أكبر ضوء على تاريخ اسبانيا المسلمة ، وعلى حضارتها وثقافتها . ولا يرجعون في هذا القسم من تاريخ بلادهم الى المصادر النصرانية وحدها ، ومن ثم كانت كتبهم في هذه العصور تفيض بالتحسامل والتعصب . ولم تفق الاسبانية من جمودها ، ولم تفكر في تنظيم تراث الاندلس والتعريف به قبل اواسط القرن الثامن عشر . فعندئذ رأت أخيرا أن تقوم باحصاء المجموعة العربية والتعريف بواسطة فهرس علمي جامع يوضع لها . ووقع اختيارها للقيام بهذه المهمة على عالم يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، وهو الحبر الماروني السوري ميخائيل الفزيري ، الذي يعسرف في البحوث الغربية باسم فاسـتدعته الى مدريد في ١٧٩٩ ، وعينته

مديرا لمكتبة الاسكوريال ، وعهدت اليه منذ البداية بالمهمة الرئيسية التي دعتة الى القيام بها ، وهي دراسة المجموعة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

العربية بالاسكوريال والتعريف بها . وكان الفزيرى رجل المهمة ، فقد درس العلوم الدينية واللغات الشرقية واللغة اللاتينية واللاهوت والفلسفة بالشرق ورومة ، وقضى زهاء عشرة أعوام فى دراسة المجموعة العربية بالاسكوريال ، واتبع فى وضع فهرسه قاعدة التركيز والتحليلات ، وجرى على أسلوب الاقتباسات الموجزة والمطولة فى إبراز قيمة المخطوطات ذات الأهمية الخاصة ، وترجمة هذه الاقتباسات الى اللاتينية . وفى سنة ١٧٦٠ ، أصدر الجزء الاول من فهرسه اللاتينى الشهير بعنوان : المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال - **Bibliotheca Arabico**

Hispana Escorialensis محتويا على ابواب النحو والبلاغة والشعر والكتب اللغوية والمعاجم والفلسفة والاخلاق والسياسة والطب والتاريخ الطبيعى والرياضيات ثم اللاهوت فالعقائد ثم الكتب النصرانية ، ومنتها بالرقم ١٦٢٨ .

ومضت بعد ذلك عشرة أعوام أخرى قبل ان يستطيع الفزيرى اصدار المجلد الثانى من فهرسته وقد صدر فى سنة ١٧٧٠ باللاتينية أيضا وبنفس العنوان « المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال » . وهو يفتتحه بقسم الجغرافية مبتدئا بالرقم ١٦٢٨ . ثم يليه قسم التاريخ . وبعد قسم التاريخ ، يستعرض الفزيرى طائفة متنوعة من المخطوطات المختلفة المواضيع والصفات مما لم يدخل من قبل فى الاقسام التى سبق ذكرها ، ويصل بتعداد هذه المخطوطات الى الرقم ١٨٥١ . ثم يلى ذلك كشاف عام بالاعلام والكتب يستغرق نحو النصف الاخير من المجلد الثانى .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وقد كان صدور فهرس « المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال » فتحا جديدا فى ميدان البحوث الاندلسية ، اتجهت اليه انظار الباحثين ، وألقوا فيما يعرضه من المراجع والوثائق كنوزا من الحقائق والمعلومات التى لم يسبق أن ظفروا بها عن تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها وعلومها وفنونها . فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر لا يعرف من تاريخ اسبانيا المسلمة سوى ما تعرفه الروايات النصرانية من شذور مفرضة . وكانت مئات الحقائق ، تغمرها حجب التعصب والتحامل والكذب . فجاءت وثائق الاسكوريال تبديد هذه الحجب ، وتقدم الادلة القاطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا ، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الاندلسية ، وظهرت كتب عديدة جديدة فى هذا الموضوع تستقى كثيرا من مادتها من المراجع المخطوطة التى كشف عنها فهرس الفزيرى ، وفى مقدمتها مؤلفات اندرين وماسدى وكوندى ودوزى وغيرهم .

ولبت معجم الفزيرى أكثر من قرن مرجعا فريدا للمجموعة العربية الاسبانية فى الاسكوريال ، حتى قام المستشرق الفرنسى هارتفج ديرنبور بتكليف من وزارة المعارف الفرنسية بدراسة جديدة لمحتويات هذه المجموعة فأنفق فى هذه المهمة أعواما وأخرج أول جزء من معجمه « **Les Manuscrits Arabes de l'Escorial** » (المخطوطات العربية بالاسكوريال) . وبالرغم من انه يبدى فى مقدمته ريبة فى قيمة الجهود التى بذلها سلفه ، والى تبيان طائفة من أخطائه ، فانه لم ير مع ذلك بدا من اتباع طريقته فى التنظيم والتبوت والترقيم مع تغيير

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

يسير . وقد عشر ديرنبور فى زوايا الاسكوريال على نحو
مائة مخطوط عربى اخرى لم يذكرها الفزيرى . كما أنه
لم يعثر على بعض مخطوطات ذكرها . وقد اختفى فى
الواقع كثير من آثار هذه المجموعة خلال الاحقاب المتوالية ،
وانتهى ديرنبور فى تعداده الى الرقم ١٩٥٥ والفزيرى
يقف حسبما قدمنا الى الرقم ١٨٥١ التى تعادل ١٨٥٦
من ترقيم ديرنبور . فهو يزيد على الفزيرى بأكثر من مائة
أثر جديد عشر بهسا . واستطاع ديرنبور أن ينجز فى
فهرسه أقسام اللغة والبلاغة والشعر والادب والاخلاق
والسياسة ثم توفى سنة ١٩٨٥ . وقام باتمام مهمته
الاستاذان ليفى بروفسال ورينو ، وذلك من واقع
المذكرات التى تركها ديرنبور . وبذلك أصبح للمجموعة
العربية الاسبانية فى الاسكوريال فهرسان كاملان ، يرجع
اليهما فى دراسة محتويات هذه المجموعة النفيسة
النادرة .



ويوجد بين مجموعة الاسكوريال العربية ، عدد كبير
من المصادر التاريخية والادبية التى تلقى أضواء كثيرة على
التاريخ الاندلسى ، وقد أنفقنا خلال الاعوام المتوالية ،
منذ سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٧٠ ، زهاء عشرين عاما
أوقاتا عديدة فى الاشتغال بهذه المكتبة الثالثة ، وزرنا
عشرات المرات ، وحصلنا على الكثير من صور مخطوطاتها
النفيسة . وما زلنا حتى اليوم نتردد عليها كلما سنحت
لنا الظروف بزيارة مدريد .

وقد كانت تربطنى خلال عملى بمكتبة الاسكوريال

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

روابط مودة وثيقة بمديريها المختلفين من الآباء الأوغسطينيين . وكانت تربطني هذه المودة بنوع خاص في أعوامي الأوائل بمديرها المغفور له الأب مسيو موراتا الاستاذ بالمعهد الديني ، والمستشرق البارع والاحصائي في فلسفة ابن رشد . ولا أذكر أنه قصر أية مرة في تحقيق أية رغبة من رغباتي . وكان رغم شيوخوته وضعفه يحمل الى بنفسه أحيانا المخطوطات التي اطلبها .



وأما عن دور المحفوظات والوثائق ، فهناك أولا دار المحفوظات الإسبانية العامة **Archivo general de Simancas** في سيمانكا **Simancas** أو بالعربية شنت منكش ، وهي بلدة إسبانية صغيرة ، تقع على مقربة من جنوب غربى مدينة بلد الوليد **Valladolid** في قلب قشتالة القديمة ، على بعد أربع ساعات بالقطار من مدريد . وإلى جانبها قلعة إسلامية قديمة ضخمة ترجع الى القرن التاسع الميلادى . وقد تقرر اتخاذ هذه القلعة منذ عهد الامبراطور شارلوكان سنة ١٥١٧ دارا للمحفوظات الإسبانية العامة ، ولكن هذا القرار لم ينفذ الا في سنة ١٥٦٣ في عهد ولده الملك فيليب الثانى ، وذلك بعد أن أدخلت على القلعة التعديلات الهندسية اللازمة على يد أعظم مهندسى ذلك العصر . وهي تحتوى على ستة وأربعين بهوا وغرفة كبيرة ، تفص بالمحفوظات والوثائق الثمينة ما بين محفوظات رسمية ، ومحفوظات خاصة . ومن بين أبعائها ، أكثر من بهو يضم مجموعات كبيرة من الوثائق العربية والاندرلسية والمغربية . وبها كذلك عدة أبعاء تضم وثائق ديوان التحقيق ومحسناكم التحقيق الشهيرة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

Inquisiolon . وبها جناح لسكنى الاساتذة
الباحثين **Casa de los profesores** كان وقت
ترددى عليها منذ عشرين عاما يدفع فيه اجر زهيد للاقامة
والطعام ، وهو ستون بيسيتا فى اليوم ، وهو اجر لا يكاد
يصدق اليوم . وقد زرناها واشتغلنا بها مرارا ، وحصلنا
على صور الكثير من وثائقها الاندلسية والمغربية
والقشتالية القديمة . ومنها عدد منشور بكتابنا « نهاية
الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين » .

وثانيا ، توجد بمدينة برشلونة مجموعة وثائق التاج
الارجونى ، **Archivo de la Corona de Aragon**
وهى تختص بحفظ وثائق مملكة اراجون الملكية ، من
اندلسية وغيرها . وبها مجموعة كبيرة من الوثائق المصرية
المملوكية ، التى كان يرسلها سلاطين مصر الى ملوك
اراجون . وقد حصلنا على صور الكثير من وثائقها .
وثالثا ، توجد فى اشبيلية وقرنطة وبلنسية ،
مجموعات هامة من الوثائق الاندلسية والقشتالية ، التى
تلقى ضوءا على تاريخ الاندلس ، وتوجد بالمجموعة
القرنطية بالاحص وثائق عديدة ، عن سقوط قرنطة ،
وعن دخول الملكين الكاثوليكين اليها .

فى هذا الميدان الفياض بترات المراجع والوثائق
الاندلسية ، العربية والقشتالية ، عملت أعواما طويلة ،
بحماسة وهمة ومثابرة ، لم يشبها أى ضعف أو تخاذل ،
ولم اترك منها جهة أو مصدرا الا عكفت على دراسته ،
واستخراج نفاثته ، وكنت فضلا عن العمل فى هذه
النواحي الرئيسية ، أطرق بعض الجهات الثانوية الاخرى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

كالاديار والكنائس والبلديات . فقد استطعت ان احصل على صورة وثيقة مدجنية هامة من بلدية بنبلونة ، وعلى صور من وثائق مدجنية عديدة من كاتدرائية سرقسطة ، ومن دير سانت كلمنتى بطليطلة ، وغيرها . وكان اتقانى يومئذ للغة الاسبانية ، التى بدأت دراستها ، قبل ذلك بأعوام طويلة ، تمدنى بتسهيلات كثيرة فى أسفارى وتنقلاتى واتصالاتى وبحوثى ، أينما ذهبت ، وأينما تجولت فى أنحاء شبه الجزيرة الاسبانية .

ولن أنسى أن اسجل هنا ما لقيته خلال دراساتى الطويلة فى اسبانيا ، من معاونة معهدنا المصرى بمديره « معهد الدراسات الاسلامية » . فقد أسدى الى كثير من المعاونات لدى مختلف الهيئات العلمية ، وقد كنت أجد فى مكتبته الغنية عديد المصادر النفيسة العربية والاجنبية . وقد لقيت بالأخص من صديقى وزميلى فى البحوث الاندلسية ، الدكتور حسين مؤنس ، الذى شغل منصب المدير لهذا المعهد الجليل أعواما طويلة ، والذي عمل بجهوده المتوالية على اغناء مكتبة المعهد وتزويدها بأهم المصادر الاندلسية العربية والاجنبية ، لقيت منه كل مودة وعون ومجاملة ، وقد كان يدعونى بصفة منتظمة لالقاء محاضراتى بالمعهد ، وهو الذى شجعنى على القائها باللغة الاسبانية ، بعد أن كنت ألقيا بالانجليزية والفرنسية .

وقد بدأت ثمار هذه الدراسات والبحوث ، تبدو فى كتبى الاندلسية ، منذ سنة ١٩٥٥ ، حيث ظهرت الطبعة الثانية من « دولة الاسلام فى الاندلس » ، ثم طبعته الثالثة فى سنة ١٩٦٠ ، ثم الرابعة فى سنة ١٩٦٩ ، وكل طبعة منها تضم وثائق واطافات جديدة ، مستخرجة من

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

مختلف المراجع والوثائق المخطوطة ، الاندلسية او المغربية . وقد كان أهم ما تضمنته هذه الطبعة الرابعة طائفة من الوثائق التاريخية الهامة ، استخرجت من قطعة كبيرة من كتاب المقتبس لابن حيان عمدة مؤرخي الاندلس . وقد وجد هذا المخطوط ، وهو الوحيد في العالم ، ضمن محتويات الخزانة الملكية ، وكانت ما تزال يومئذ حبيسة في أماكنها بمدينة فاس . وقد سعت الى الاطلاع على هذا المخطوط ، فسمحت لي سلطات الديوان الملكي بذلك ، وأحضرت الى المخطوط من فاس لأطلع عليه بأحد مكاتب الديوان ، وكان ذلك في سنة ١٩٦٥ ، وكنت اول من حظى باستعراض هذه القطعة النفيسة من مؤلف ابن حيان ، وهي قطعة ضخمة تقع في مائة وثمانين ورقة كبيرة . وكانت يومئذ قبل ترميمها في حالة مؤسفة من التمزق والتلف . وقد وصفت في نهايتها بأنها السفر الخامس من « المقتبس » . وتتضمن الحديث عن حوادث الثلاثين سنة الاولى من حكم عبد الرحمن الناصر ، وتورد لنا معلومات شيقة عن أحوال البلاط والوزراء والعمال في تلك الفترة ، وبها طائفة من الوثائق السياسية والسلطانية الهامة ، مثل كتاب الناصر عن موقعة الخندق ، وصورة الامان الذي أصدره لمحمد بن هاشم أمير سرقسطة ، والامان الذي أصدره للشائر عمر بن حفصون عقب الصلح معه ، وصورة المرسوم الذي أصدره عن اتخاذه لقب الخلافة ، وغيرها من الوثائق الهامة . وقد نقلتها جميعا مع شذور وحوادث هامة أخرى ، وكانت القطع الممزقة تتساقط مع المخطوط بين يدي . وقد لبثت مدى أسبوعين كاملين لنسخ نفائس ما يقع لي ، وأدرجت هذه الوثائق النفيسة كلها

جروب معين التاريخ لأهل التأريخ

في الطبعة الرابعة من « دولة الاسلام في الاندلس » الصادرة في سنة ١٩٦٩ . وقد نشر هذا الجزء الضخم من تاريخ ابن حيان أخيرا بمعرفة المعهد الاسباني العربي بمدريد ، وذلك في سنة ١٩٧٩ . وقد انتفعت قبل ذلك بدراسة بعض قطع مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان وعثرت بما في خزانة القرويين الكبرى تتضمن شذورا هامة من السفرين الثاني والثالث ، وكانت في حالة يرثى لها من التلف . وقد نشرت هذه القطع فيما بعد بمعرفة صديقي الدكتور محمود علي مكي .

وحدث شيء من ذلك في كتاب « دول الطوائف » في طبعته الاولى سنة ١٩٦٠ ، ثم في طبعته الثانية سنة ١٩٦٩ ، وهو العصر الثاني من « دولة الاسلام في الاندلس » . ثم في كتابي الكبير « عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس (سنة ١٩٦٤ - ١٩٦٥) وهو العصر الثالث من دولة الاسلام في الاندلس ، وقد امتاز هذا الكتاب بالأخص بدراسة طبوغرافية عميقة لموقعة من أهم المواقع التي وردت به ، وهي موقعة العقاب الحاسمة التي اضطربت بين الجيوش الموحدية والجيوش النصرانية في سنة ٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م ، وهزم فيها الموحدون هزيمة ساحقة ، وذلك في وديان سيرا مورتيا بجوار قرية سانتا ايلينا الواقعة على مقربة من أبره . وقد انفتحت في هذه الدراسة أربعة أيام كاملة في المواقع التي اضطربت فيها هذه الموقعة الخطيرة بمعاونة زميلي السنيور سالباتور الدليل العارف بدقائق هذه الناحية ، وصعدت الى قمة أطلال حصن سلبطرة ، الذي كان فاتحة الموقعة وصعدت الى أعلى جبال سيرا مورتيا حيث كانت تعسكر الجيوش النصرانية ، وتجولت في

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الوادي المجاور حيث كانت تعسكر الجيوش الموحدية ،
وحضرت بيدي في هذا المكان بحثا عن أسهم الخيل ،
فعثرت بأربعة منها أبرزت صورتها في كتابي وقد لبثت
خلال هذه الرحلة الدهاسة بضعة أشهر في مدريد ، كتبت
فيها جزءا كبيرا من كتاب الموحدين . وكان ذلك في سنة
١٩٦٣ .

وأخيرا حدث نفس الشيء في كتاب « نهاية الاندلس
وتاريخ العرب المتصرين » في طبعته الثانية (١٩٥٦) ثم
الثالثة (١٩٦٦) وهو العصر الرابع والآخر من « دولة
الاسلام في الاندلس » . وقد تضمنت هذه الطبعة صور
عدد من الوثائق التاريخية الجديدة ، معظمها مستخرج
من دار المحفوظات الأسبانية العامة في « سيمانكا » ،
ومنها آخر صفحة من معاهدة تسليم غرناطة وقد ظهرت
بها توقيعات الملكين الكاثوليكين وسكرتهما فرناندو
دي ثفرا . وان المتبع لمراحل هذه الموسوعة في التاريخ
الاندلسي ، ومختلف وثائقها واطرافها المزينة ، يدرك
مدى الجهود المتوالية الشاقة ، التي بذلت في تزويدها
بهذه الكنوز الجديدة من الحقائق التاريخية ، تؤيدها
المراجع والوثائق المخطوطة ، التي لبثت عصورا دقينة في
مراقدها المحفوظة ، وهي اليوم تنشر أضواءها النفيسة
على جهود البحث الدائب الصابر الحثيث .

وأود أن أشير بهذه المناسبة ، الى بعض العلماء
والمستشرقين الأسبان الذين كان لي حظ الاتصال بهم ،
وتبادل الافكار معهم ، وأبدأ بذكر العلامة الكبير الاستاذ
رامون منديث بيدال R. M. Pidal (١٩٦٨ - ١٩٦٩)
اعظم مؤرخي أسبانيا في القرن العشرين ، ورئيس
الأكاديمية الأسبانية مدى خمسين عاما . وقد تعرفت

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

به منذ بداية بحوثى الاسبانية فى أوائل الخمسينيات ،
والفيت فيه عالما من أجل علماء العصر ، ومؤرخا من
أعظم مؤرخى العصر . وقد اشتهر بالأخص بكتابه
« اسبانيا فى عهد السيد » « La Espana del Gid »
وهو مؤلف نفيس ضخيم يقع فى مجلدين كبيرين . وقد
التقت به مرارا فى فيلته الجميلة بضاحية شمريت
بمدريد . وكنا فى كل مرة نتبادل الآراء فى بعض مسائل
التاريخ الاسباني ، وبالأخص تلك التى لها علاقة بالتاريخ
الاندلسى ، ومن هذه المسائل ، تقدير شخصية
« السيد » « El cid Campeador » (السيد الكنبيطور)،
الذى يعتبره الاستاذ بيدال ، فى كتابه المشار اليه « بطل
اسبانيا القومى » ، وأخالفه فى هذا الرأى ، وأعتبره ،
متفقا فى الرأى مع دوزى ، جنديا عظيما يبحث وراء
طالعه ، ومنها مسألة قيام اسبانيا النصرانية ، بهدم
معظم الصروح الاندلسية الاسلامية ، من مساجد ومدارس
وقصور ، وحصون ، وغيرها ومنها نماذج فريدة من
الفن المعمارى . ويبرز الاستاذ بيدال ذلك أولا ، بأن هدم
المساجد كان عملا منطقيا ، اذ لم يكن لوجودها مكان بعد
انتهاء دولة الاسلام فى الاندلس ، ولا بد أن تقوم مكانها
الكنائس ، وثانيا لان اسبانيا فى عهد البروتستانية (منذ
القرن الخامس عشر) . كانت بلدا متزمتا لا يطلب منه
أن يعتنق المبادئ التحريرية . ومنها معاملة اسبانيا
للموريسكيين أو العرب المتنصرين ، ومطاردة ديوان
التحقيق لهم ، ثم نفيهم بعد ذلك ، فان الاستاذ بيدال ،
ينسب شدتها وقسوتها ، كما ينسب النفى الى حركة
البروتستانية ، واضطرار اسبانيا أن تتبع من جانبها
سياسة كاثوليكية شديدة ، وان كانت سياسة عنيفة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

مفرقة . وهكذا كنا في كثير من الاحيان نتبادل الآراء في المسائل التاريخية المشتركة . ومع اننا لم نكن نتفق دائما ، فقد كان هذا الحوار ، مع مؤرخ من أعظم مؤرخي العصر له قيمته العلمية ، وكان بالأخص يلقي أضواء على كثير من مسائل التاريخ الاندلسي المشتركة بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية .

وقد سجلت آراء الاستاذ بيدال ، سواء تلك التي سمعتها منه ، أو استقيتها من مؤلفاته ، سجلتها في مواضعها من كتبي (ولا سيما كتابي « نهاية الاندلس ، والآثار الاندلسية الباقية ») . وقد توفي الاستاذ بيدال سنة ١٩٦٨ ، عن تسعة وتسعين عاما ، وتترك جملة كبيرة من المؤلفات التاريخية واللغوية . وأشهد بأنني تأثرت بكثير من آراء هذا العلامة الجليل ، وطريقته النقدية .

وقد كانت لي صلات علمية وثيقة باثنين من اعلام المستشرقين الاسبان المعاصرين ، أولهما العلامة المستشرق البلنسي الاستاذ أميروزيو هويشي ميرانده المتوفى سنة ١٩٧٣ ، بعد حياة علمية طويلة حافلة . وقد كنا نشترك في البحث في عصرين من عصور التاريخ الاندلسي ، الاول عصر الطوائف ، والثاني عصر المرابطين والموحدين ، وقد زرتة مرارا ببلنسية ، وتبادلت معه كثيرا من الآراء ، وانتفعت بكثير من آرائه وملاحظاته . وكان الاستاذ هويشي يحيط كتبي وبحوثي الاندلسية بكثير من التقدير ، وقد خصها بالذكر والثناء في مقدمته لكتابه الذي كتبه قبل وفاته بقليل « التاريخ الاسلامي لبلنسية » **La Historia Musulmana de Valencia** »

(سنة ١٩٧٢) . وكان يرى أن كتابي عن « دول

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ويعتزم ترجمته الى الاسبانية ، بتكليف من جامعة الطوائف « ، هو خير كتاب أخرج في هذا الموضوع ، بلنسية ، ولكنه مع شديد الاسف توفي قبل أن يتاح له تحقيق هذه الامنية ، وقد تولى الاستاذ هويشى نشر المجلد الثالث من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى ، وترجم تاريخه الى اللغة الاسبانية ، ووضع بالاسبانية كتابا ضخما عن تاريخ « الموحدين » ، وكتابا آخر عن مواقع الاسترداد العظيمة .

وثانيهما العلامة المستشرق الفرناطى الاستاذ سيكودى لموثينا ، المتوفى سنة ١٩٧٤ ، وقد كان ابرز علماء غرناطة المعاصرين ، وكانت له بحوث كثيرة في التاريخ الفرناطى . وله مجموعة قيمة من الوثائق الفرناطية ، التى اكتشف الكثير منها ، ونشرها تباعا بمجلة الاندلس ، ثم جمعها فى مؤلف تولى نشره معهدنا المصرى فى مدريد . وقد أهدانى الاستاذ سيكو كتابين نادرين بالاسبانية فى التاريخ الفرناطى ، أولهما مجموعة وثائق تسليم غرناطة ، وثانيهما تاريخ لافونتى القنطرة .

ثم كانت لى بمدريد علائق مودة وتقدير متبادل مع الاستاذ اوليفر آسين مدير المدرسة العربية . وقد أعجبت بالبحث الذى ألقاه عن العلامة الموريسكى الشهاب الحجري بندوة مالقة العربية الاسبانية التى سوف نتحدث عنها بعد ، وأطلعتة أنا على ما كتبه عنه فى كتابى « نهاية الاندلس » ، فاهتم به ، ووعد بدراسته ، وقد اقترح على أن تعمل معا فى بعض البحوث المتعلقة بهذا الميدان . ولكن الظروف لم تسمح لنا بتحقيق هذه الامنية .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ولن انسى ان اذكر الى جانب هؤلاء العلماء الاسبان ،
صديقى العلامة المستشرق الفرنسى الاستاذ ليفى
بروفنسال المتوفى فى سنة ١٩٥٨ ، وقد كان يجمع بيننا
البحث المشترك فى تاريخ اسبانيا المسلمة . وكنت التقى
بالاستاذ بروفنسال فى القاهرة ، وفى مدريد ، بانتظام ،
ونتبادل الراى والمعلومات فيما يتعلق بميدان بحوثنا .
وقد كتب الاستاذ بروفنسال بحوثا كثيرة فى تاريخ
المغرب والاندلس ، نشرت فى مختلف المجلات
الاستشرافية ، مثل هسبريس والاندلس . ونشر كثيرا
من الكتب والنصوص الهامة المتعلقة بتاريخ المغرب
والاندلس ، وانتهى بأن وضع كتابه عن « تاريخ اسبانيا
المسلمة » ، حتى سقوط الخلافة الاندلسية . وهو
مؤلف قيم ، ويعتبر فى نظرى ، افضل وأقيم من كتاب
العلامة دوزى « تاريخ مسلمى اسبانيا » لان مؤلفه
انتفع بكثير من المصادر والوثائق المخطوطة ، التى لم
يوفق دوزى فى عصره ، الى العثور عليها ، وقد تلقاها
الاستاذ بروفنسال عن العلامة المغربى المرحوم السيد
عبد الحى الكتانى .

جروب
معين التاريخ
لأهل التاريخ

الخزائن المغربية

ولا بد لنا ان نشيد هنا ، الى جانب ما تقدم من دور
الخزائن والمحفوظات الاسبانية ، بدور المجموعات المغربية
المخطوطة . وقد وقع اتصالى بالمغرب وخزائنه منذ سنة
١٩٥٨ ، اعنى منذ بداية عهد الاستقلال ، وزوال الحماية
الفرنسية . وكنت قبل ذلك ، كمعظم زملائى المصريين ،
ممنوعا من دخول المغرب ، اثناء قيام هذه الحماية .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وقمت من ذلك التاريخ بعدة رحلات دراسية الى المغرب . وكانت بحوثى مركزة فى خزانة الرباط العامة ، وخزانة القرويين الكبرى بفاس . ثم الخزانة الملكية فيما بعد . وقد كان من حسن الطالع أن ضمت معظم المجموعات الخاصة من المخطوطات عقب الاستقلال الى خزانة الرباط العامة ، مثل مجموعة الاوقاف ، ومجموعة الكتانى ، ومجموعة الجلاوى ، ثم ضمت اليها فيما بعد مجموعة زاوية ثماجروت ، وقد كان من بين نفائسها نسخة مزيدة ضخمة من المجلد الثالث من كتاب «البيان المغرب» ، الذى قام بنشره صديقى المفور له العلامة المستشرق أميروز يوهوئشى . وقد أنفقت أوقاتا طويلة ، فى خزانة الرباط العامة ، ثم فى خزانة القرويين الكبرى بفاس ، فى دراسة سائر المخطوطات التى لها علاقة بالتاريخ الأندلسى والآداب الأندلسية . وقد أسفرت بحوثى لحسن الطالع ، فى خزانة القرويين ، عن العثور ببعض النفائس المخطوطة ، وفى مقدمتها قطعتان عتيقتان ، من السفر الثالث من كتاب «المقتبس» لابن حيان ، وانتفعت بهما أعظم انتفاع ، بالرغم من تلفهما الى حد التلاشى ، وقد سلمت فيما بعد شريطهما المصور الى معهدنا بمدريد ، حيث قام بنشرهما بعد مجهود شاق صديقى الدكتور محمود على مكى . وعثرت كذلك فيما عثرت عليه ، فى قاعة الخروم (الدشت) على ورقتين من كتاب «البيان المغرب» يتعلقان بسقوط سرقسطة وموقعة كتندة ، وكانا ينقصان مجموعة بروفنسال ، التى وجدها قبلى بالقرويين ونشرها العلامة هوئشى فيما بعد بمجلة «هسبريس» .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وقد قام الاستاذ هويشى بترجمة هذه الصفحات الاربع الى الاسبانية مع تعليقات ونشرها في مجلة الاندلس ، فكان لها في الاوساط الاستشراقية وقع عميق . كما عثرت بقاعة الخروم على قطعة كبيرة مخطوطة من ديوان ابن دراج القسطلى ، وأخبرت بوجودها صديقى الدكتور محمود على مكى ، وكان يومئذ يعنى بالقياس بنشر ديوان هذا الشاعر الاندلسى الكبير ، ثم بعثنا باستخراج صورتها الى خزائن القرويين . وقد انتفع الدكتور مكى بهذه القطعة النفيسة في تحقيق ديوان ابن دراج اعظم انتفاع .

وكان من ائمن ما وقفت عليه ، وقمت بدراسته ، قطعة كبيرة مخطوطة من تاريخ ابن حيان « المقتبس » ، من مقتنيات الخزانة الملكية المغربية ، وكانت لم تفتح ابوابها للباحثين بعد ، فسعيت لدى المسئولين بالديوان الملكى للاطلاع عليها ، فتم الاذن بذلك ، وحملت الى المخطوطة بفرقة خاصة بالديوان . وكانت في حالة تلف شديد ، تتساقط من جوانبها القطع المتلاشية عند تحريك اوراقها ، وتتكون هذه المخطوطة النفيسة الوحيدة في العالم ، من مائة وثمانين لوحة كبيرة ، وهى حسبما ورد في خاتمتها عبارة عن « السفر الخامس » من « المقتبس » ، وتتعلق كلها بالثلاثين سنة الاولى من حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فمكفت على دراستها زهاء اسبوعين كاملين ، ونقلت منها شذورا جملة تتعلق بعصر الناصر واهدائه ، وخصائصه ، ادمجت فيما بعد في الطبعة الرابعة من كتابى « دولة الاسلام في الاندلس » ، ومن ضمنها عدة وثائق هامة ، وهى الآن ضمن محتويات

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

قسم التاريخ بالخزانة الملكية ، وتعتبر من أهم وانفس محتوياتها (١) .

ولم انس بالطبع أن أقوم بدراسة المخطوطات التاريخية، في خزائن الجزائر وتونس . ومن ثم فقد درست سائر المخطوطات التاريخية والأدبية بمكتبة الجزائر الوطنية . ولم أجد الكثير من المخطوطات التي وردت في فهرس فانيان **Fagnan** ، مما يدل على أن الفرنسيين قد سلبوا الكثير من محتوياتها . ومع ذلك فقد أطلعت فيها على عدد من المخطوطات الهامة ، ومعظمها نظائر لغيرها مما يوجد في الخزائن المغربية ، واستوقف نظري بصفة خاصة نسخة من رسالة الاعتذار الشهيرة التي وجهها أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس إلى السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الوطاسي ملك فاس ، مستجيرا به ، مستظلا بلوائه ، والتي كتبها الوزير محمد بن عبد الله العربي العقيلي على لسان مليكه أبي عبد الله ، وهي آية في التأثير والبلاغة ، وقد نقلها لنا المقرئ في «نفع الطيب» ، ولم ترد في غيره ، مما يدل على أن المقرئ قد ظفر بها خلال دراسته لمخطوطات مكتبة الجزائر ، إذ هي النسخة الوحيدة في العالم . ووقفنا كذلك على نسخة فريدة من كتاب القاضي أبي عبد الله محمد بن الأزرق « الإبريز المسبوك في كيفية أدب الملوك » ، وقد كان ابن الأزرق قد عبر البحر إلى المغرب قبل سقوط غرناطة بقليل ،

(١) كان من حسن الحظ أن نشر هذا المخطوط النفيس بمدرسة برعاية معهد الثقافة الإسبانية العربية وبتحقيق الدكتور بدوي تليمة تحت عنوان السفر الخامس في المقتبس « ١٩٧٩ » .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

واستقر حيناً بمدينة تلمسان ، وكتب بها بعض مؤلفاته ، ومنها هذا الكتاب .

وقمت كذلك بدراسة مجموعة مخطوطات جامع الزيتونة ، التي نقلت فيما بعد الى مكتبة تونس الوطنية الحالية ، وبها عدة مخطوطات تاريخية هامة . منها نسخة كاملة من كتاب « الاحاطة في أخبار غرناطة » . وقد درسناها بصفة خاصة ونقلنا منها نسخة مصورة ، نظراً لاشتغالنا بإخراج هذه الموسوعة الاندلسية الجليّة التي هي أهم مؤلفات الوزير أبي الخطيب . بيد أنه قد تبين لنا بالدراسة المقارنة ، أنها نسخة موجزة ينقصها الكثير من التراجم التي وردت في المخطوطات الأخرى من الاحاطة ، وبها كثير من التصحيف ، يذهب بكثير من قيمتها ، وذلك حسبما أشرنا اليه في مقدمة المجلد الأول من كتاب « الاحاطة » الذي وقفنا بحمد الله الى نشره كاملاً ، وتم ظهور مجلده الرابع والآخر في أواخر سنة ١٩٧٨ .

المكتبات الاوربية

وأمتدت دراساتي الى عدة من المكتبات الاوربية ، هي مكتبة الفاتيكان الرسولية برومة ، والمتحف البريطاني ، والمكتبة البودلية (اكسفورد) بانجلترا ، ومكتبة باريس الوطنية ، ومكتبة فيينا الوطنية ، ومكتبة ليدن الهولندية ، وغيرها حسبما تفصل بعد .

وقد زرت مكتبة الفاتيكان الرسولية مرارا ، ووقفت بها على أثرين هامين أولهما وثيقة هامة ونادرة ، هي خطاب الخليفة الموحدي المرتضى بالله ، الى البابا الوسان

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الرابع ، وثانيهما مذكرات المؤرخ والرحالة المصرى عبد الباسط بن خليل الملقى ، عن أحوال المغرب والاندلس فى أواسط القرن التاسع الهجرى ، أعنى أواخر العهد الفرناطى ، وهى الواردة فى رحلته التى يتضمنها كتابه « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » . وقد كانت هذه المذكرات من أقيم ما انتفعنا به فى تاريخ المرحلة الاخيرة من العهد الفرناطى .

ووقفت فيما درستته من مخطوطات القسم الشرقى بالمتحف البريطانى على نصوص ووثائق كثيرة مما يتصل بدراساتى الاندلسية ، وفى مقدمتها جزء من كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ، وانتفعت بها فى مواضع مختلفة من كتبى الاندلسية . ودرست فى المكتبة البودلية القطعة الخطية الوحيدة التى انتهت الينا من كتاب « المن بالإمامة » لابن صاحب الضلالة ، وهو المتعلق بتاريخ الموحدين ، وكانت من أهم المصادر فى كتابى عن عصر « المرابطين والموحدين » .

وقمت فى أواخر سنة ١٩٥٤ بزيارة دراسية لهولندا ، وطلعت بمدنها واهتمت بنوع خاص بزيارة مدينة لاهاى حيث يوجد مقر محكمة العدل الدولية ، ومنزل الفيلسوف الأشهر باروخ اسبنوزا . ومدينة ليدن حيث توجد جامعتها الشهيرة ومكتبتها الفنية وبها مجموعة من المخطوطات العربية ومنها جزء مخطوط من كتاب « الاحاطة » لابن الخطيب ، وقد كانت جامعة ليدن ، هى الجامعة التى كان العلامة المستشرق الكبير رينهارت دوزى ، امام التاريخ الاندلسى ، من اعلام أساتذتها .

وانتهزت هذه الفرصة فزرت دار بريل الشهيرة التى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

اشتهرت بنشاطها القديم في نشر معظم كتب اكابر المستشرقين من مختلف انحاء القارة الاوربية مدى زهاء قرنين وما زالت ادارتها قائمة في دارها التاريخية القديمة، وزرت مطبعتها التي تضم عمالا يعملون في جمع حروف سائر مختلف اللغات القديمة ، مثل اللاتينية والعبرية واليونانية والامهرية والسريانية والعربية ، ومختلف اللغات الشرقية ، مثل الفارسية والاوردو والهندستانية والصينية ، وهؤلاء العمال لا يفهمون حرفا واحدا من هذه اللغات القديمة التي يشتغلون بجمع حروفها ، ولكنهم مهرة في صف حروفها ، وجمع نصوصها .

وفي أبريل سنة ١٩٦١ ، قمت برحلة الى الدانمارك والسويد ، وزرت المكتبة الملكية في كوبنهاجن ، وبها قسم للمخطوطات العربية . وقد اطلعت هناك على عدة من المخطوطات العربية الهامة ، ومنها نسخة من كتاب « الجمان في اخبار الزمان » منسوبة للعلامة ابي العباس المقرئ ، ونسخة من كتاب « الانيس المطرب بروض القرطاس » لابن ابي زرع الفاسي ، و « ذيل على خريدة القصر وجريدة العصر » . وفي السويد ، زرت مكتبة جامعة اوبسالة ، وبها مجموعة كبيرة من المخطوطات والوثائق العربية ، ومنها نسخة من ريحانة الكتاب لابن الخطيب « ونسخة من « روض القرطاس » واطلعت بها على مجموعة كبيرة من الوثائق العربية ، ومنها عدد كبير من الرسائل التي بعث بها ملوك المغرب الى ملوك السويد . وقابلت في اوبسالة المستشرق الدكتور نيبرج ، الاستاذ القديم بجامعةها ، وهو الذي قام بتحقيق ونشر كتاب « الانتصار » لابن الراوندية ، الذي قامت باصداره لجنة التأليف والترجمة والنشر .

بعض أوجه نشاطاتي العلمية الأخرى في تلك الفترة

كانت دراساتي وبحوثي الأندلسية ، حتى سنة ١٩٧٠ . .
وخلال عشرين عاما هي مهمتي العلمية الرئيسية ،
وكنت أحرص أشد الحرص على متابعتها ، وكنت
أقوم برحلاتي الى اسبانيا والمغرب بانتظام ، لا تثنيني
عن ذلك أية عقبة . وحتى في الأيام العصيبة التي أصبحت
مصر فيها سجنا الأبنائها ، ولم يكن يسمح فيها بالسفر
الى الخارج ، الا للمبعوثين ورجال الدولة ، وأصبحت
تأشيرة الخروج عزيزة المنال ، كنت أتوصل الى
الحصول عليها ، بكل وسيلة ممكنة . وذلك بمعاونة
بعض أصدقائي القدامى ، من ذوى النفوذ ، من الوزراء
السابقين أو الحاليين . وأذكر من هؤلاء بجزيل الشكر
والعرفان صديقي العلامة الوفي ، الأستاذ أحمد نجيب
هاشم ، فقد ساعدني خلال توليه وزارة التربية ،
غير مرة ، على الخروج الى السفر بطرق رسمية جميلة ،
وكان لي خلال هذه الرحلات الدراسية ، نشاط علمي
في أبواب ومجالات أخرى ، تتصل بمهمتي الدراسية
الأصلية ، من لقاء المحاضرات التاريخية ، وشهود بعض
المؤتمرات والندوات العلمية .

فأما عن المحاضرات التاريخية فقد بدأت بالقاء
سلسلة من المحاضرات الأندلسية بالمغرب في سنة ١٩٥٨
عقب حصول المغرب على استقلاله ، وذلك بتكليف من

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وزارة المعارف المصرية ، واقامت السفارة المصرية بهذه المناسبة لى حفل تكريم كبير بفندق تور حسان اعظم فنادق الرباط يومئذ ، حضره كثير من الوزراء والكبراء والعلماء ورجال السلك السياسى . وكان سفيرنا يومئذ هو الدكتور عبد المجيد رمضان اول سفراء مصر فى المغرب المستقل ، وألقيت هذه المحاضرات فى حواضر المغرب المختلفة ، الرباط والدار البيضاء وفاس ومراكش وطنجة وتطوان ، وقد كنت خلال القائها ضيفا على وزارة الخارجية المغربية ، فغمرتنى بعنايتها واکرامها، وندبت لمرافقتى خلال هذه الدورة السكبيرة الاستاذ عبد المجيد بن جلون من موظفيها ، وقد عين سفيراً فيما بعد ، ومن حسن الحظ انه كان من تلاميذى بمعهد الصحافة العالى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وكانت بيننا مودة وثيقة ، فكان لى خير مرافق ومرشد . وقد نظم لى الى جانب القاء المحاضرات ، برنامج من المشاهد الاثرية خلال القطر المغربى ، فزرت مدينة صفرو الصيفية ، وسد مراكش وبلدة أغمات حيث يثوى المعتمد بن عباد وزوجته اعتماد الرميكية ، وأهم من ذلك فقد زرت منطقة الاطلس على بعد نحو مائة وعشرين كيلو مترا من مراكش ، وزرت هنالك بلدة تينملل التى خرجت منها دعوة المهدي بن تيمرت ، وزرت مسجده ، وقبره ، وشهدت بعض عوائد القبائل البربرية هنالك . والى جانب ذلك فقد تفقدت سائر معالم مراكش الاثرية، من مساجد وقصور وحدائق سلطانية ، ومنشآت صناعية وغيرها ، وألقيت عدة أحاديث بالاذاعة المغربية، وتعرفت بكثير من أعيان العلماء والوزراء المغاربة ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وبالجملة فقد كانت دورة علمية وسياحية هامة استغرقت نحو ثلاثة أسابيع .

ولقد حظيت بهذه المناسبة برؤية صاحب الجلالة ، المرحوم المبرور ، الملك محمد الخامس وسعدت بالاستماع الى عبارات العطف والتقدير الكريمة وشعرت أننى أقف أمام ملك عظيم نبيل يؤمن بحقوق بلاده ، وقد شاء القدر أن يكون هو بطل استقلالها ، وان يحقق بزعامته وفي عهده حريتها واستقلالها ، وقد أصدر لي جلالته فوق ذلك عن طريق مدير ديوانه خطابا يصفى فيه على شرف التكريم والتقدير للمحاضرات التاريخية التي ألقيتها .

ثم قمت بعد ذلك بإلقاء العديد من المحاضرات التاريخية والاندلسية بنوع خاص ، وذلك أولا بمعهدنا المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، بعضها بالانجليزية والفرنسية ، وبعضها باللغة الإسبانية . وكان يشجعنى على القاها بالإسبانية حسبما سبق أن أشرت صديقى الدكتور حسين مؤنس ، مدير المعهد فى تلك الحقبة ، إذ أن معظم المثقفين الإسبان ، لا يعرفون سوى لغتهم القومية ، ويندر منهم من يعرف لغة أجنبية أخرى . وألقيت كذلك محاضرات عديدة بالانجليزية وأحيانا بالعربية ، بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية التابعة لجامعة لندن : « School of Oriental and Afr . Studies » وبكلية بمبروك بجامعة كامبردج ، كما أقيمت عدة أحاديث تاريخية بالبرنامج الثقافى بدار الإذاعة البريطانية ، وأقيمت محاضرات

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بالفرنسية في جنيف ، ومعهد نابولي الشرقى . كما أقيمت محاضرات بجامعة بنغازى ، وجامعة تونس ومختلف حواضر المغرب العربى ، حسبما تقدم وفى مناسبات عديدة أخرى ، وفى الجمعية التاريخية المصرية .

وأما عن المؤتمرات العلمية ، فقد شهدت خلال هذه الحقبة عدة منها ، أولها مهرجان الاحتفال بالذكرى التسعمائة لوفاة الإمام الفيلسوف ابن حزم القرطبى ، وقد نظم بمدينة قرطبة مسقط رأسه سنة ١٩٦٣ ، من ١٢ مايو الى ١٨ منه ، وقد أقيم هذا المهرجان تحت الرئاسة الفخرية لرئيس الدولة الاسبانية القائد الاعلى الجنرال ف . فرانكو ، ورعاية هيئة شرفية ، مؤلفة من وزير الخارجية الاسبانية ، ووزير التعليم وسفراء الدول العربية فى مدريد ، والحاكم المدنى لمدينة قرطبة ، ومديرى جامعات مدريد وبرشلونة وغرناطة واشبيلية ، واشتركت فى تنظيمه بلدية قرطبة ، ومعهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، ومدرسة البحوث العربية بمدريد ، والمعهد الاسبانى العربى للثقافة ، والمجمع الادبى الملكى لقرطبة . وشهدته جمهرة كبيرة من الشخصيات الرسمية البارزة ومن السفراء العرب ، ومن العلماء والمتخصصين فى الدراسات الاندلسية ، من مختلف البلاد الغربية ، والجامعات الاسبانية ، ومختلف دوائر المستشرقين .

واستمر المهرجان ، أسبوعا كاملا ، من الثانى عشر من مايو ، الى الثامن عشر منه ، وهو يحفل كل يوم فى الصباح ، وفى المساء ، بطائفة من الندوات العلمية

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

والتاريخية والادبية ، والشعرية ، والمظاهر الفنية والاجتماعية الرائعة .

وقد افتتح المهرجان ، فى صبيحة يومه الاول ، يوم الاحد ، ١٢ مايو ، بحفل فخم ، رفع فيه الستار عن التمثال الطبيعى المتخيل الذى اقامته بلدية قرطبة لابن حزم ، امام مدخل باب اشبيلية ، بحضور جمهور من الصفوة من علماء وسفراء وحكام ، وألقى السنيور رينا عمدة قرطبة خطابا مؤثرا بالاسبانية قال فيه « ان مدينتنا لتتشرف بأن تكرم شخصية واحد من ابنائها العظام ، هو أبو على بن حزم ، الذى تخطت عبقريته الحدود ، ولم يعيش فقط فى زمنه التاريخى ، ولا فى مكانه المحدود ، ولكنه نثت روحه الى العالم كله ، وفى الانسانية كلها » . ومن المعروف من حياة ابن حزم ، أنه كان يجتاز هذا الباب - باب اشبيلية - الذى كان يسمى فى العهد الاسلامى « باب العطارين » كل يوم فى طريقه الى المسجد الجامع ، ومن ثم كان اختيار هذا المكان لاقامة التمثال فيه . وقد نقش حول قاعدته بالخط الكوفى ما يأتى : « لمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاة العلامة أبى محمد على بن حزم القرطبى مهدى بلدية قرطبة هذا التمثال تخليدا لذكراه » .

وعلى أثر رفع الستار عن التمثال ، سارع رهط من السيدات والأنسات ، وفى أيديهن سلال الورد ، ينثرن الورد ، وأغصان الورد ، فى مجرى الماء الواقع أسفل التمثال ، والذى يتصل بنهر الوادى الكبير ، وذلك لكى يحمل تيار النهر هذه الورد ، نحو الغرب ، فى اتجاه مصبه على مقربة من الاقليم الذى يرقد فيه ابن

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

حزم رقدته الأبدية في إحدى قراه ، وقد كانت تسمى باسمها العربي « منت ليشم » وتسمى اليوم باسمها الإسباني Casa Montijo

ثم ذهبنا بعد ذلك الى القصر المواجه للمسجد الجامع لنشهد في قاعته التساربخية الكبيرة حفل الافتتاح الرسمي للمهرجان العظيم . وقد قام بافتتاحه حاكم ولاية قرطبة ، بحضور ممثلى مختلف السلطات والهيئات والجامعات والسفراء ، والعلماء ، وأقيت به بعد ذلك كلمات من ممثلى مختلف الهيئات الإسبانية والعربية والأجنبية ، ومعظمها يدور حول هذه المناسبة التاريخية والمعاني الجليلة التى تنطوى عليها .

ولقد كانت أعمال المهرجان تتألف من شقين ، كلاهما حافل بالأحداث والمناسبات ، وكان الشق الأول يضم طائفة من الندوات العلمية والأدبية والشعرية ، وتعقد عادة فى الصباح . وقد أقيت فى هذه الندوات التى عقدت جميعها بنادى الصداقة القرطبى ، وهو من أفخم الأندية التى شهدناها ، عددا كبيرا من البحوث القيمة ، حول مختلف نواحي التفكير لابن حزم ، من فقهية ولفوية وفلسفية وأدبية وتاريخية وشعرية ، وغيرها ، وعن كتب ابن حزم ورسائله ، وعن قرطبة والمجتمع القرطبى ، فى عصره ، وأقيت هذه البحوث بالإسبانية والعربية والفرنسية ، واشترك فى القائها لقيت من العلماء وأساتذة الجامعات الإسبان والعرب والفرنسيين . وأقيت أنا فيها بحثا تاريخيا عنوانه « ابن حزم ومجتمع الطوائف » . وكان أبرز ما فيها تبيان ما تنطوى عليه عقلية هذا الفكر العربى المسلم العظيم من آفاق شاسعة ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ومجالات مختلفة بعيدة المدى .
وخصصت عدة جلسات للشعر ، وأقيمت فيها
بالاخص مقطوعات شعرية أندلسية ترجع الى عصر ابن
حزم ومجتمعه ، وكانت القصائد العربية تترجم فى كل
مناسبة الى اللغة الاسبانية وتلقى بها .

وأما الشق الثانى من المهرجان وهو الشق الاجتماعى،
فقد كان مليئا بالزيارات والمناسبات والحفلات الشائقة
وان المقام ليضيق عن الاسهاب فى وصف تلك المناسبات
الخلافة الممتعة التى نظمتها لجنة المهرجان خلال هذه
الايام المشهودة ، والتى كانت تمتاز جميعا بحسن
الاختيار وسلامة الذوق ، ووقرة المجاملة والكرم
والترحاب .

ولقد كان من هذه المناسبات ، زيارة المسجد الجامع،
وهو على الرغم من بقائه على حالته الاسلامية ، يعتبر
كنيسة قرطبة الجامعة « كاتدرائية » . وزيارة احياء
قرطبة بالليل ، وقد كانت مناسبة ساحرة زرنا فيها
عددا من بيوت قرطبة القديمة وشهدنا فيها بعض
الرقصات الاندلسية ، وزيارة ضاحية الرصافة البديعة،
وهى تقوم فوق موقع الرصافة القديمة ، رصافة
عبد الرحمن الداخل . وزيارة « حى القصر القديم »
الذى يقوم اليوم مكان بلاط مفيث « وهو الحى الذى
ولد فيه ابن حزم ونشأ . وقد احتفل خلال هذه الزيارة
برفع الستار عن لوحة تذكارية اقيمت لذكرى ابن حزم
ابن هذا الحى امام مدخل كنيسة سان لورنزو والتى
اقيمت فوق موقع المسجد القديم الذى كان يسمى أيام
ابن حزم مسجد المنية ، ويتوسط بلاط مفيث .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وكان من امتع وأروع المناسبات الحفلة الاستعراضية الكبرى ، التي نظمتها البلدية في مسرح حدائق القصر ، وعزفت فيه فرقة « الفيلا موتس » الإسبانية .

ومناسبات ومشاهد عديدة أخرى لا يتسع المقام لذكرها .

ولقد كان هذا المهرجان العظيم الذي أقيم للاحتفال بذكرى ابن حزم ، في ذاته ، وما اقترن به من المظاهر والمشاهد العظيمة التي وصفناها ، وما بدا خلاله من اعتزاز مدينة قرطبة وسلطاتها المدنية والعلمية بذكرى هذا العلامة الأندلسي المسلم - ابن قرطبة - كان ذلك كله اسطع دليل على هذا التطور العظيم المستنير الذي طرأ على التفكير الإسباني ، وعلى نظرته الى الأمة الأندلسية ، والى تراثها الحضاري العظيم .

وهذا ما نحياه بمنتهى الاكبار والاجلال .

ثم شهدت في ديسمبر سنة ١٩٦٧ (رمضان ١٣٨٦) جلسات الدورة الثقافية العربية الإسبانية التي عقدت في ثغر مالقة ، واشتركت في أعمالها الى جانب حشد من الزملاء العرب والأسبانيين والانجليز والفرنسيين وغيرهم . وكانت ندوة زاخرة بالمحاضرات والبحوث المتعلقة بتاريخ الأندلس وآدابها وحضارتها . ولقد كانت هذه الندوة العربية الإسبانية تعقد « بدار الثقافة » ، وهي تقع بجوار قصبة مالقة الشهيرة ، وهي من أعظم الآثار الأندلسية الباقية . وقد استمرت منذ التاسع من ديسمبر الى السابع عشر منه . وأقيمت فيها بحوث قيمة عديدة منها بحث عن « تلخيص كتاب النفس

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

— لابن رشد ، وبحث العمارة المالقية ، وآخر عن العصر المدجنى فى مالقة ، وعن ابن حزم المنطقى ، وعن منشآت التحصينات فى قشتالة فى عصر الخلفاء ، وعن فلاحه البساتين الاندلسية ، وعن قصر بنى صمادح بالمرية ، وعن سليمان بن جلجل وكتابه — طبقات الاطباء — وعن الزرقالى وبعوثة الفلكية وغير ذلك من البحوث الاندلسية الهامة ، وألقيت أنا بها بحثا عن — الممالك الاندلسية — التى قامت بمالقة .

ومما هو جدير بالذكر انه كانت معنا من أعضاء الندوة الثقافية المالقية سيدة اسبانية لا اذكر اسمها . وقد ذهبنا ذات يوم فى زيارة لميناء مالقة وكانت معنا هذه السيدة ، وكانت تقول انها تقرأ رسوم الكف ، فتقدم اليها بعض أعضاء الندوة من رجال وسيدات ، وقرأت كفوفهم وقدمت لهم عند قراءتها بعض اقوال الآمال والتمنيات ، وقدمت أنا كفى لتقراه ، فتأملته مليا ثم صاحت بالاسبانية :

أعنى حياة طويلة جدا ، وقد كان ذلك فى عام ١٩٦٧ ، وها نحن اليوم فى سنة ١٩٧٩ ، بعد أكثر من عشر أعوام من ذلك التاريخ ، وما زلت على قيد الحياة ، وفى صحة جيدة . والله يمنح طول البقاء لمن يشاء .

وفى سنة ١٩٦٩ ، كان الإحتفال العظيم الفخم بعيد القاهرة الالفى . وقد عقد بمدينة القاهرة المعزية منذ السابع والعشرين من مارس الى الرابع من ابريل سنة ١٩٦٩ ، وذلك تحت رعاية الحكومة المصرية . وقد شهدت هذا الحفل التاريخى العظيم ، الذى شهده حشد كبير من العلماء والمؤرخين والاثريين من مختلف

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

البلاد الشرقية والاوربية والامريكية . وكانت جلساته تعقد بالبهو الكبير بالقصر الضخم الذى بناه الخديو اسماعيل على شاطئ النيل لاستضافة الامبراطورة اوجينى ، وقت الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، وحول فيما بعد الى فندق سياحى عظيم باسم عمر الخيام ، ثم تم هدمه مع شديد الاسف فى ايامنا هذه ١٩٦٩ .

وقد أقيمت بهذه الندوة الدولية العظيمة ، بحوث عديدة عن مدينة القاهرة وخططها وتاريخها وعصورها المختلفة نذكر منها ، منازل الفسطاط كما تكشف عنها حفائر الفسطاط . حى الجمالية منذ قرن مضى . احدى نواحي نشاط الازهر فى القرنين السابع والثامن عشر . انجازات العصر الفاطمى . مباني القاهرة العثمانية القاعة العربية فى المنازل القاهرية . سفارة بيدرو مارتيرى ، سفير الملكين الكاثوليكين الى السلطان الفورى . الادارة القبطية فى عهد المماليك . مدينة القاهرة كما يصفها الادريسي . العلاقات بين القاهرة والأستانة فى العهد العثمانى . نساء القاهرة فى عصر سلاطين المماليك . القاهرة كمركز للحركة الاسماعيلية . القاهرة فى الادب الشعبى . امتداد للقاهرة من عصر الفاطميين الى عصر المماليك . دور الازهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ابان الحكم العثمانى . جمال الدين الافغانى فى القاهرة . الحياة الادبية فى مدينة القاهرة . وصف مصر عن كتاب السفرنامه لناصرى خسرو ، وغيرها وغيزها . وأقيمت أنا فى محاضرة عن « العلائق الدبلوماسية بين القاهرة والممالك الاسبانية النصرانية فى العصر المملوكى » وقد جمعت سائر البحوث التى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

أقيمت فى الندوة وطبعت فى مؤلف ضخيم من ثلاثة مجلدات . نشرت بعناية وزارة الثقافة تحت عنوان « أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة » (سنة ١٩٧٠ - ١٩٧١) . كما أصدرت وزارة الثقافة عن القاهرة أطلسا تاريخيا طبوغرافيا مصورا نشر باللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية ، أهدى الى سائر العلماء الاجانب الذين شهدوا الندوة ، دون زملائهم المصريين . كما نظمت بهذه المناسبة عدة حفلات اجتماعية ورحلات اثرية .

وشهدت بمدينة نيودلهى عاصمة الهند « مؤتمر التاريخ الاسيوى » ممثلا للحكومة المصرية مع صديقى المرحوم الدكتور عزت عبدالكريم ، وذلك منذ الثامن من ديسمبر الى الثالث عشر منه سنة ١٩٦١ ، وتعرفنا فيه على عدد من اكابر علماء الهند وساستها ، وفى مقدمتهم الزعيم الكبير الراحل جواهر لال نهرو ، وهو الذى قام بافتتاح المؤتمر ، بعد كلمة وزير المعارف الافتتاحية ، بخطاب بليغ . وتلاه فى حفل الافتتاح العلامة الكبير سردار بانىكار مدير جامعة كشمير ، وقد كان سفيرا للهند بالقاهرة ، بخطاب رنان . وتحدث آخرون من اعلام الهند . وقد خطب هؤلاء جميعا باللغة الانجليزية العالية التى يندر ان يتحدث بها آخرون من غير الانجليز . وكان اتصالنا بأعضاء المؤتمر من الهنود دائما بالانجليزية ، وهم يتقنونها جميعا . وشعرنا من جو المؤتمر ، والايام التى عشناها فى نيودلهى ، واتصلنا فيها بمختلف الهيئات والبيئات أن « الثقافة الانجليزية ، هى ائمن ما خلفه الانجليز وراءهم للهند بعد استقلالها .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وعلمنا أن اللغة الانجليزية هي لغة التخاطب والاتصال بين الهنود « الهندوس » من مختلف الطوائف والمناطق ، إذ لكل منطقة وطائفة لهجتها القومية . وتبلغ اللهجات الهندوسية ، حسبما علمنا نحو المائتين والانجليزية هي علاج هذا المشكل ، وهي لغة التخاطب بين المثقفين من سائر البلاد الشرقية والعربية والاوربية . وألقيت فيه محاضرات تاريخية عديدة ، وألقيت أنا بالانجليزية محاضرة عنونها « روايات عربية عن حياة تيمورلنك » . وكانت فرصة سانحة شهدنا فيها كثيرا من معالم دول الفول الاسلامية الاثرية في الهند ، وفي سائر مقدمتها قبر « التاج محل » الشهير بمدينة أجرا . كما شهدنا بعض المعابد والاماكن المقدسة الهندية .

وشهدت بالجزائر عدة مؤتمرات لمتلقى الفكر الاسلامي ، الذي يعقد بها كل عام ، والتي يشرف على تنظيمها ودعوتها منذ البداية صديقنا السيد الاستاذ مولود قاسم وزير الشؤون الدينية . وكان أول مؤتمر حضرته منها مؤتمر سنة ١٩٧٢ ، الذي عقده بمدينة الجزائر ، بقصر الصنوبر ، وشهده عدد كبير من علماء البلاد العربية والمستشرقين ، وعلماء القطر الجزائري . وحضرت المؤتمر الثاني من متلقى الفكر الاسلامي بمدينة تيزي أوزو في سنة ١٩٧٤ ، والثالث ١٩٧٥ ، بمدينة تلمسان ، والرابع في سنة ١٩٧٦ ، بمدينة عنابة « بونه » ، والخامس في سنة ١٩٧٧ ، بمدينة ورجلة بالصحراء الجزائرية ، والسادس في سنة ١٩٧٨ ، بمدينة باتنة (وهو من الناحية العددية يعتبر المتلقى الثاني عشر) لاني لم أخضر المتقيات من بدايتها . وكان يشارك في كل

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ملتقى (أو مؤتمر) من هذه الملتقيات ، رهط كبير من علماء البلاد الشرقية ، والافريقية ، والمستشرقين من مختلف البلاد . هذا عدا ما يحضره من مئات الطلبة والطالبات . وتلقى فيه محاضرات عديدة ، في موضوعات مختلفة ، كلاسيكية وعصرية ، وفقا لما يحدد من النقاط والموضوعات في برنامج كل ملتقى . ومعظمها يتصل بالاسلام وثقافته وتاريخه ومشكلاته الاصلاحية . وكنت في كل مؤتمر من هذه المؤتمرات ألقى محاضرة في إحدى النقاط التي يحددها الملتقى في برنامجه ، وتقع فيها التعقيبات والمناقشات . وأستطيع أن أخص هنا بإيجاز بعض المسائل التاريخية ، التي دارت حولها المناقشات ، والمناقشات العنيفة أحيانا ، مما ورد في بعض محاضراتي التي ألقيتها ، في الملتقيات :

أولا - فيما يتعلق بسيرة أمير البحر خير الدين بارباروس ، فقد لاحظت أن اخواننا علماء الجزائر يحيطون اسمه بهالة تدنو من القداسة ، ويعتبرونه منقذ الجزائر من محاولات الاسبان الاستيلاء عليها ، وسمعت أحدهم يقول في تعليقه على محاضرتي ، انه لولا خير الدين لما بقى في الجزائر مسلم واحد ، وقد حاولت جاهدا في أكثر من مناقشة ، وأكثر من رد على هذه التعليقات المفرقة ، أن أضع أمامهم الحقائق التاريخية الواضحة ، وخلصتها أن خير الدين ، كان فعلا من اعظم أمراء البحر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، ولكنه لم يكن مجاهدا ، ولم يكن يصدر في حملاته ومعاركه البحرية ضد الاسبان يصدر عن أية نزعة جهادية ، وإنما كان يحاول أن يوطد سيادته في تلك المنطقة ، منطقة الجزائر

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

التي بسط عليها سـلطانـه منذ سنة ١٥٣٩ ، وعينه السلطان سليم حاكما عليها ، باعتبارها من الفتوحات التركية ، وانه كان في غاراته البحرية ضد الشواطئ الاسبانية ، يعمل على انقاذ الموريسكيين ، أو العرب المنتصرين من الحكم الاسباني ، ويحملهم على سفنه الى الشواطئ الاسلامية لقضاء أجور عالية ، وان ولده حسن باشا ، الذي خلفه في حكم الجزائر ، كان يقاتل الاسبان باسم السلطان ولحسابه ، لا باسم الجزائر ، وانه انتصر عليهم في معركة بحرية عنيفة في سنة ١٥٤١ انتهت بتحطيم أسطول شارلكان ، والخلاصة أن خير الدين لم يكن سوى أمير بحر مفامر يعمل لحسابه ، ثم فيما بعد لحساب السلطان ، على مثل أمراء البحر الانجليز ، الذين انطلقوا ، بعد ذلك بنحو نصف قرن يجوسون خلال المحيط الاطلنطي ، ويضربون السفن الاسبانية والقوى البحرية الاسبانية أينما استطاعوا ، ومنهم أسماء لامعة مثل السير فرنيس دربك ، والسير والتر رالي ، والسير جون هوكنز وغيرهم .

لبيت جاهدا أشرح في الملتقيات ، هذه الحقائق التاريخية ، عن خير الدين كلما عرضت سيرته ، وأعتقد انه بمضى الزمن وتكرار الشرح ، قد تغيرت الفكرة الجزائرية ، في تقدير شخصيته ، وزالت هالة القداسة التي كانت تضيفها على سيرته .

ثانياً - أن الدولة العثمانية ، زعيمة الاسلام «وحاميته» في القرنين ، الخامس عشر والسادس عشر ، لم تقم بأية محاولة عملية لمعاونة الاندلس « مملكة غرناطة » المتحضرة ، ولم تقم بعد سقوط الاندلس في يد اسبانيا

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

النصرانية بأية مجهود عملي لمعاونة الموريسكيين أو العرب المنتصرين ، وانقاذهم من عنف اسبانيا ومطاردتها الدموية ، وذلك بالرغم من رسائل الاستغاثة العديدة ، التي بعث بها الموريسكيون الى بلاط قسطنطينية ، وقد كان في استطاعتها ، وهي على ما كانت عليه يومئذ من ضخامة القوى البرية والبحرية ، أن تفعل الكثير في ذلك السبيل ، ولكنها شغلت بفتوحاتها الاوربية ، وتركت بقية الامة الاندلسية الى مصيرها المحزن .

ثالثا - ألقى أحد المستشرقين في ملتقى سنة ٢٩٧٢ ، بحثا عن المستشرق الالماني الكبير الدكتور كارل بروكلمان، وعن مؤلفاته ، وثار في الملتقى جدل عنيف حول بعض آرائه المتعلقة بالاسلام وتاريخه ، واشتدت عليه حملات علماء الجزائر ، فطلبت الكلمة ، وقلت ان بروكلمان قد اشتهر بالاخص ببحوثه الفيساضة في تاريخ الادب العربي المقارن ، وان كتابه الضخم عن « تاريخ الادب العربي » ، عمل يبعض على أعظم التقدير والاعجاب . وهو مؤلف لم يصدر مثله أو ما يقاربه حتى يومنا بالغة العربية . واعتقد أنه سوف تمضي أعوام طويلة ، بل قد يمضي نصف قرن أو أكثر ، قبل أن نستطيع أن نخرج مؤلفا يضارعه في قيمته العلمية ، وبعوثه الفهرسية الزاخرة .

رابعا - ورد في محاضرتي التي أقيمتها في ملتقى باتنة (سبتمبر ١٩٧٨) عن نشأة الجامعة العلمية الاسلامية، وتحدثت فيها عن تاريخ الجامع الأزهر كجامعة علمية رائدة ، وأعظم الجامعات الاسلامية على الاطلاق ، جاء ما يأتي : « لما وقع الفتح العثماني لمصر في سنة (١٢٢ - ١٢٣ هـ) ، انهار صرح الحضارة العظيم الذي شادته

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

دول السلاطين الشامخة بمصر ، كما أصيبت الحركة الفكرية كلها بالتدهور والانحلال ، فاضطربت أحواله (أى الأزهر) ونضبت موارده وانخفض عدد طلابه وأساتذته الى أدنى الحدود .

وقد ثار لهذه الفقرة عدد كبير من زملاء ، وفى مقدمتهم الزملاء الترك ، وهم خمسة وقاموا بالتعليق عليها ، وشساركهم فى ذلك زملاء آخرون من تونس وسوريا ، ورماني أحد الزملاء ، الترك بآنى أصدر عن نزهة قومية ، ورماني زملاؤه بآنى متحامل على الدولة العثمانية متعسف فى الحكم عليها . الخ ، وتحسث آخرون عن دولة الخلافة وخدماتها للاسلام . الخ .

ولهذه المشادة سوابق قديمة ، ونظرتى فى تاريخ الترك العثمانيين ، نظرية ثابتة لا تتغير ، مبنية على دراسات وثيقة ، وهى أنهم أمة عسكرية غازية ، وليست منشئة لآية حضارة ، بل بالعكس أمة هدامة للحضارة . وأنه من الصعب على أى مؤرخ أن يدافع عن حكمها فى أى البلاد التى فتحتها ، لأنها لم تترك وراءها دائما سوى الانحلال والخراب ، والامر أشد فى ذلك واضح فى نتائج الفتح العثمانى لمصر ، ويكفى أن نراجع يوميات الفتح حسبما دونها المؤرخ المصاصر ابن آياس ، لنرى ما ارتكبه الفاتحون من المذابح المروعة ، والتخريب الشامل ، حين دخولهم القاهرة . ثم يكفى أن نذكر ، أن سكان مصر ، وقد كانوا عند الفتح نحو ثمانية عشر مليون ، قد انخفضوا فى ظل الحكم العثمانى ، من أثر الظلم والفقر والجوع والمرض ، الى خمسة ملايين ، وأن طلاب الأزهر انخفضوا من اثنى عشر ألفا الى ألفين وهلم تجرا .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ونكتفى بالنماذج المتقدمة من المسائل التاريخية ، التي
ثار حولها الجدل والنقاش في حومة الملتقيات الإسلامية
المتعاقبة .

وكان آخر المؤتمرات التي مثلت بها ندوة تاريخ شبه
الجزيرة العربية ، التي عقدت بمدينة الرياض بالملكة
العربية السعودية ، تحت رعاية جامعة الرياض ، وذلك
في شهر ابريل سنة ١٩٧٧ ، وأقيمت فيها عدة محاضرات
بالعربية والانجليزية ، تتصل بمختلف نواحي تاريخ
الجزيرة العربية وأوضاعها وقد تفضلت هيئة الندوة
مشكورة بدعوة من يشاء من أعضاء الندوة الى القيام
بأداء رسوم العمرة ، وسنحت لنا بذلك أنا وبعض الزملاء
المصريين والمغاربية الفرصة لاداء هذه الفريضة الدينية
الجميلة . وقد قامت هيئة الندوة بتنظيم زيارتنا
أولا للمدينة المنورة ، فزرنا المسجد النبوي الشريف ،
واجتلينا روضة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونعمنا
بقراءة الفاتحة واستمداد الدعاء والبركات . وكانت هذه
هي المرة الثانية التي أسعد فيها بزيارة المسجد النبوي
والروضة الشريفة . وكانت زيارتي الأولى للمدينة المنورة
في ديسمبر سنة ١٩٦١ عقب عودتي من الهند بعد
انتهاء مؤتمر التاريخ الاسيوي ، فمررت بالملكة العربية
السعودية ، استجابة لدعوة هيئة العلائق العامة لشركة
الارامكو بمدينة الظهران ، بالقاء بعض الاحاديث التاريخية
بتليفزيون الأرامكو . وعقب انتهاء هذه المهمة سافرت الى
مكة المكرمة ، ثم الى المدينة المنورة وتشرفت بزيارة المسجد
النبوي الشريف لأول مرة ، وقرأت الفاتحة وسألت
الدعوات أمام الروضة المكرمة ، ولم يتح لي في هذه
الزيارة العابرة أكثر من ذلك . فلما سنحت فرصة القيام

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بتأدية العمرة ، لبيتها سعيدا مع زملائي ، وسافرنا من المدينة المنورة الى جدة ، ومنا من أحرم ، ولكنى انتظرت الاحرام حتى وصلنا الى جدة ، وهناك ارتديت ثوب الاحرام . وكان الليل متأخرا حينما ركبنا السيارة الكبيرة الى مكة ونحن محرمون ، وذلك بعد منتصف الليل بقليل . وجزنا على الاثر من الفندق المقابل الى الحرم الشريف ومعنا المطوف المكلف بقيادتنا . وفي نحو الفجر بدأنا رسوم العمرة بالطواف أولا حول الكعبة الشريفة ، وتلاوة مختلف الادعية سبع مرات . وقبلنا الحجر الاسود غير مرة . ثم انتقلنا الى موقع الصفا والمروة في الناحية الاخرى من الحرم وقمنا بالطواف والدعاء بينهما كذلك سبع مرات اخرى . وهى مهمة شاقة على امثالى من الشيوخ ، ولكنى قمت بها بحمد الله على افضل وضع وأنشطة . وقد علمت السلطات السعودية المعنية على ادخال الصفا والمروة ضمن ساحة الحرم الشريف بعد ان كانتا في الطريق العام خارج الحرم ، وبنت بجوارها مسجدا . وكان هذا من المشاريع الاصلاحية العديدة التى قامت بها السلطات السعودية المختصة داخل الاماكن المقدسة وحولها ، وهى مشاريع عديدة بمكة والمدينة ، كان من اثرها تحقيق تسهيلات كثيرة لجموع الحجاج التى تضاعف عددها فى العهود الاخيرة بصورة هائلة ، ثم عدنا بعد أداء العمرة الشريفة الى جدة فى الصباح الباكر استعدادا للسفر . وكانت فرصة سعيدة من فرص العمر التى لا تنسى والحمد لله على ذلك كثيرا . وكان أداء العمرة على هذا النحو يوم الجمعة ١١ من جمادى الاولى سنة ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٩ من ابريل سنة ١٩٧٧ .

الاعمال الصحفية البارزة

تناولت فيما سبق قصة حياتي الصحفية الاولى بجريدتي السياسة والسياسة الاسبوعية ، وما وقع خلالها من القيام برحلاتي الصحفية الاولى الى الخارج في فلسطين وسوريا والعراق وتركيا . ثم اشرت الى مساهمتي ببحسوثي في مجلات الرسالة والهلال والثقافة .

ولم تنقطع مساهمتي في الصحافة الادبية خلال عملي الحكومي ، هذا الى جانب بعض فصول خاصة ، وقصص مترجمة ، كنت اؤثر بها جريدة المصري ، لما كان يربطني بصاحبها المرحوم الاستاذ محمود ابو الفتح من المودة ، وقد كان والده المرحوم الشيخ احمد بك ابو الفتح استاذي في الشريعة الاسلامية بمدرسة الحقوق .

وقد بدأت منذ سنة ١٩٥٠ ، وقبيل اعتزالي خدمة الحكومة بقليل ، بالقيام بعدة مهام صحفية بارزة ، في مختلف انحاء القارة الاوربية اسجلها فيما يلي :

كانت سنة ١٩٥٠ ، سنة حافلة فيما يتعلق برحلاتي ومهامي الصحفية . وقد حظيت فيها اولا بمقابلة قداسة البابا بيوس الثاني عشر ، بمناسبة حلول السنة المقدسة ، وشهود مظاهر وحفلات هذا الموسم الديني العظيم . وقيمت فيها باجراء الاحاديث الصحفية مع الدكتور

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

هويس ، أول رئيس لمانيا الاتحادية والهير هوفمان ،
المدوب السامى لمنطقة السار ، والدكتور ليوبولد فجل
مستشار النمسا .

كما قمت بزيارة منطقة الرور الصناعية ، وزيارة برلين
الفربية لأول مرة ، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية .

وصلت الى رومة في العشرين من يونية سنة ١٩٥٠ .
وكانت مدينة القياصرة ، منذ أواخر العام المنصرم ،
مقصد الرواد من سائر أنحاء العالم ، وكانت تموج بلا
انقطاع بهذه الجموع الزاخرة من الرواد . وكان هذا
السبيل المنهر من الجموع ينحدر باستمرار الى مدينة
الفاتيكان ، أو الدولة البابوية الصغيرة ، إذ كان هذا
العام ، هو عام السنة المقدسة **Anno Santo** ، التي
يجرى الاحتفال بها كل خمسة وعشرين عاما ، وكان
ميدان القديس بطرس الشاسع ، يموج كل يوم ، من
الصباح الى المساء ، بجموع لا تحصى من الرجال والنساء
والاطفال ، تقصسد الى الكنيسة العظمى ، كنيسة
القديس بطرس ، للزيارة أو اجراء مراسم الحج ، أو
تتكسد فى الميدان ساعات طويلة لشهود الموكب البابوى،
وتتدفق من الناحية الاخرى على قصر الفاتيكان ، الوف
من الزوار ، تنساب كالسيل الى أروقتة المختلفة ،
لتشهد متاحفه وكنوزه الفنية الرائعة التي لا حصر لها .

ولقد شهدت خلال زيارتى هذه لرومة - وكنت قد
زرتها من قبل مرارا - طائفة من هذه المشاهد التاريخية

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الفريدة ، واستطعت أن أتأمل ووعتها وجلالها ساعات طويلة ، ولكنى أشهد بأن قلمي ليعجز حقا عن أن يرسم صورة معبرة لهذه المناظر الرائعة ، مناظر عشرات بل مئات الألوف من البشر ، رجلا ونساء ، من مختلف الأمم والنحل ، تجتمع هادئة ، خاشعة في أتم نظارة ، لتحظى برؤية الحبر الأعظم - البابا - أو تستمع لعظاته ، أو تتلقى بركته الرسولية ، وهى تهتف له هتافا يشق أجواء الفضاء .

وكان من أهم أحداث هذه السنة المقدسة ، مما يتصل بتصميم موضوعها وبرنامجها ، حادثان ، كان لهما أعظم وقع في العالم المسيحي ، وهما تقديس الفتاة الإيطالية « ماريّا جوريتى » **Maria Goretti** ، وإعلان المجمع المقدس صعود السيدة مريم العذراء الى السماء .

ولقد كنت من شهود الاحتفالات الكبرى التى أقيمت لتقديس « ماريّا جوريتى » فى يومى ٢٤ و ٢٥ يونيه وماريا هذه فتاة قروية من أهل أنكونا ، ولدت سنة ١٨٩٠ ، فى أسرة فقيرة ، ولكنها كانت حسناء فاتنة ، فلما بلغت الثانية عشرة ، هام بها فتى من أهل القرية ، ولكنها لم تبادله هواه . وفى ذات يوم فاجأها وحيدة أمام منزلها وروادها عن نفسها ، وهددها بسكين فأبت فانها لى عليها بسكينه طعنا ، وحملت الى المستشفى بين الحياة والموت ، ثم توفيت بعد يوم ، واعتبرت شهيدة النقاء والطهر ، واحتفل فيما بعد بنقل رفاتها الى كنيسة أنشئت خصيصا لتخليد ذكراها . ثم نقلت رفاتها الى روما ، وأعلن البابا تطويبها فى سنة ١٩٤٧ ، ثم احتفل خلال السنة المقدسة ، بنظمتها فى سلك القديسين فى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

احتفالين رسميين عظيمين أقيم أولهما في مساء يوم السبت ٢٤ يونيه ، في ميدان القديس بطرس ، وشهده زهاء مائة ألف ، واحتشد في الناحية الأخرى من المنصة ، الكرادلة والسفراء ، وسائر المدعوين من مختلف الهيئات ، وأقبل البابا في موكبه التاريخي إلى منصة أقيمت أمام واجهة الكنيسة ، وجلس على عرشه ، ومن حوله الكرادلة بأثوابهم القانية . وألقى البابا بالاطالية ، خطبة ضافية ، أعلن فيها تقديس « مارييا جوريتي » ، ونوه بسمو الفضيلة والطهر والنقاء فيها .

وفي صباح يوم الأحد التالي ، أقيم قداس حبرى في كنيسة القديس بطرس ، وغصت الكنيسة بعشرات الألوف من المدعوين والزوار ، وقام البابا بالمراسيم الدينية ، وأتم ما بدأه بالأمس من اجراءات تقديس الفتاة الشهيدة ، وكان احتفالا بالغ الروعة والجلال .

وأما الحادث الثانى ، فهو اعلان المجمع المقدس المنعقد برياسة البابا ، نظرية جديدة ، تتعلق بالسيدة مريم العذراء ، وهى أنها لم تمت ، بل ارتفعت بجسدها وروحها إلى السماء . واعتبار هذه النظرية ، من أصول العقيدة الكاثوليكية . وقد أثار هذا القرار فى كثير من الدوائر الدينية فى مختلف انحاء العالم ، جدلا ، لا نرى موضعا للخوض فيه .



وفى خلال ذلك كله ، كانت تساورنى أمنية ملححة ، هى أن أحظى بمقابلة البابا ، وكان يومئذ حسبما أشرنا ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

هو الحبر العلامة بيوس الثاني عشر ، وباسمه القديم (أوجنيو باتشيللي) . ولم يكن هذا الحبر الجليل غريبا عني ، فقد سبق أن قابلته وحادثته قبل ذلك بعشرين عاما - في سنة ١٩٣٠ - بصفتي صحفيا مصريا ، بمكتبه بقصر الفاتيكان . وكان يومئذ يشغل منصب معاون البابا بيوس الحادي عشر ، ومستشاره السياسي . وكان قد نال رتبة الكردينالة في سنة ١٩٢٩ ، وشغل قبل ذلك منصب استاذ الدبلوماسية الدينية بجامعة رومة . وجرى الحديث يومئذ بيني وبينه عن معاهدة لاتران ، التي عقدها الكرسي الرسولي مع الحكومة الإيطالية ، وزعيمها يومئذ موسوليني ، وانشئت بمقتضاها مدينة الفاتيكان ، واستردت البابوية نفوذها الديني ، وسلطتها الزمنية ، على الدولة البابوية الجديدة ، التي تتكون من قصر الفاتيكان ، وميدان القديس بطرس وكنيسته ، وكنيسة سان جوفاني دي لاترانو داخل رومة ، وكنيسة القديس بولس ، وقصر كاستل جندلفو خارج رومة ، وقد رجوته يومئذ أن أزور قصر الفاتيكان زيارة علمية تاريخية ، فتفضل بالتجوال معي في سائر أنحاء القصر العظيم ، وهو يشرح لي كل كبيرة وصغيرة من آثاره ورواياته . وكنت أحمل لهذا الحبر الجليل كثيرا من التقدير والاعجاب لصفته البارزتين ، الأولى علمه الفزير وتضلعه في اللغات ، إذ كان يتحدث فيما علمت بعشر لغات أو تزيد . والثانية خصومته للنازية الهتلرية ومبادئها العدوانية ، وذلك منذ كان مستشارا لسلفه بيوس الحادي عشر . وهو الذي وجه الفاتيكان يومئذ الى مقاومتها والتنديد بها . ولما اضطرت الحرب العالمية الثانية ظهرت خصومته للنازية

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

على أشدها ، وتوالت حملاته عليها ، وتنديده بما كانت
تضمره ، « من سبق الإصرار والعدوان المتعمد ، واحتقار
الحرية والحياة البشرية ، وما يقترن بكل ذلك من أعمال
تصرخ الى الله بطلب الانتقام » .
وكان البابا خلال السنة المقدسة ، يشهد سيلا لا ينقطع
من الحفلات الدينية الباذخة ، ويستقبل الوفود
والاشخاص من سائر أنحاء الارض ، ويلقى مئات الخطب
والعظات ، ويضفي بركته الرسولية على الملايين من
البشر ، جماعات وأفرادا .

مقابلتي لقداسة البابا بيوس الثاني عشر

ففي هذا البحر الخضم من الحفلات والرسوم
البابوية ، أتيج لي أن احظى بلقاء البابا بيوس الثاني
عشر ، وكان سفيرنا يومئذ في رومة الأستاذ العمري بك،
قد نصحني بالأقبال يد البابا أسوة بزواره من
المسيحيين ، وبأن أكتفي بالمصافحة والانحناء التامة .
وكان ديوان قداسته ، قد تفضل بواسطة السفارة المصرية ،
أن يدعوني الى مقابلة خاصة لقداسته ، في صباح يوم
الخميس ٢٩ يونيه سنة ١٩٥٠ .

ففي هذا الصباح ، ذهبت الى قصر الفاتيكان ،
وصعدت الى الجناح البابوي ، وفقا للخطة الموضوعة ،
وكانت مقابلات قداسته تبلغ يومئذ زهاء العشرين ،
ما بين ساسة وأخبار ، وراهبات ، وكانت مقابلتي
لقداسته بصفتي من العلماء المصريين .
وكان البهو البابوي الفخم الذي أخذنا اليه ، مزينا

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بالنقوش والفريسات التاريخية الرائعة ، والستائر الحمراء ، واللون الأحمر هو اللون الغالب في ألبسة الفاتيكان . فالستائر والمقاعد والزخارف تميل كلها الى الحمرة القانية ، والعرش البابوي نفسه ، مكلل بالستائر الحمراء والكرسي الرسولي الذي يجلس عليه قداسته ، أينما نصب ، مكسو بالحبر الاحمر .

وبعد الساعة الحادية عشرة بقليل دعينا الى بهو آخر ، يقع قبالة الجناح البابوي ، ثم رتبنا أفواجا مستقلة ، واعتبرت أنا وحدي ، فوجا مستقلا . وكان ترتيبى الاول ، بعد رجال الدين ، وهم من الكرادلة ذوى الأردية الحمراء . وكنت اقف قبالة المكتب البابوي ، وهو يبدو من خلال بهوين آخرين . فلمحت قداسته يخرج من مخدعه الى البهو الذى فيه الكرادلة . وبعد أن حياهم وحادثهم ، انتقل الى البهو الذى يليه ، وكان به فوج من الراهبات . فحياهن وحادثهن ، وكان كل فوج يخرج بعد التحية ، وتقبل البركة ، بإشارة من كبير التشريفات ، الذى يسير وراء قداسته .

ثم جاء دورى ، وأقبل قداسته نحوى رشيقا ، خفيف الحركة باشا . وأشهد حين أقبل أنى رأيت أمامى نفس الرجل الذى رأته منذ عشرين عاما ، لم تغير فيه السنون ، ولم يرتسم على وجهه غضن ، وان كان يومئذ أميل الى النحافة . وكان قداسته يرتدى حلة بيضاء داكنة . وعلى كتفه محرمة من نفس اللون ، وينتمل خفا أحمر ، وعلى رأسه قلسوته التقليدية ، فأنحنيت أمام قداسته انحناءة تامة ، وتناولت يده مسلما . فسألنى بالفرنسية ، هل أنت من مصر ، فأجبت نعم

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

يا ذا القداسة ، وقد كان لي شرف رؤياكم والاجتماع بكم منذ عشرين عاما . فابتسم قداسته ، وقال ، يسرنى ان اراك ثانية . ودار بينى وبين قداسته حديث قصير ، أعربت خلاله لقداسته عما يشعر به العالم الاسلامى ، من العطف والاعجاب ، نحو الكفاح الباسل ، الذى يشهره قداسته فى خطبه ضد المبادئ الهدامة ، والنزعات الالحادية . وقد رد قداسته ، بأن أبدى ارتياحه وشكره . ثم قال « انى أباركك ، وأهديك ميدالية » ثم مد يده مسلما ، فانحنيت مرة أخرى انحناءة كاملة . وحييته بعنتهى الاحترام . وغادرنى قداسته لمقابلة من يلينى من المدعوين . وتسلمت الميدالية البايوية من كبير التشريفات ، وهى ميدالية السنة المقدسة ، وعلى وجهها صورة قداسته ، وهى ما تزال عندى تذكارا لهذا اليوم المشهود .

وقد كان البابا بيوس الثانى عشر ، حسبما قدمت على جانب عظيم من العلم والفصاحة المؤثرة ، وقد سمعته فى ذلك اليوم يتحدث ، الى جانب الايطالية ، لغته الأصلية ، بعدة لغات منها الانجليزية ، والفرنسية ، والالمانية ، والاسبانية ، والبرتغالية . هذا عدا ما عرف من براعته فى اللغة اللاتينية ، وهى التى يلقي بها خطبه الدينية الكبرى .

وقد ولد البابا بيوس الثانى عشر بمدينة فتربو على مقربة من رومة سنة ١٨٧٦ ، وتوفى سنة ١٩٥٨ (١) .

(١) تجد مقالا بقلمى عن حياة البابا بيوس الثانى عشر ، فى مجلة الهلال ، فى عددها الصادر فى نوفمبر سنة ١٩٥٨

مقابلتى لرئيس ألمانيا الاتحادية ورحلاتى الى الرور والسار وبرلين الغربية

وغادرت رومة الى اسبانيا فانجلترا ، فألمانيا ، حيث وصلت الى مدينة كولونيا فى الثانى من أغسطس ، وكانت يومئذ ركاما وخطاما شاملة ، وليست بها أية طرق منتظمة أو مباني قائمة . ولم يكن قائما بها سوى الكاتدرائية الكبرى ، تقف أمامها ، وقد أحيطت من جميع نواحيها بالأخشاب العريضة ، تسندها ، وتقويها على الصمود . وسافرت تورا الى بون ، حيث وصلت فى اليوم التالى ، وفى الخامس من أغسطس حظيت بمقابلة الدكتور تيودور هويس أول رئيس ألمانيا الاتحادية ، وجرى لى معه حديث مستفيض استمر نحو الساعة . وسألته رأيه فى مختلف المشاكل ، التى كانت تواجهها ألمانيا يومئذ ، نتيجة لهزيمتها الساحقة فى الحرب العالمية الثانية ، مثل مشكلة التعويضات التى فرضها الحلفاء الظافرون عليها ، وسألته الرقابة التى فرضت على منطقة الصناعات الثقيلة (منطقة الرور) ، ومسألة اقليم السار وفصله عن ألمانيا ، ومسألة احتلال قوات الحلفاء لألمانيا ، وتقسيمها الى مناطق ، تحتل كل منها منطقة بعينها الى ذلك من مسائل الساعة . والدكتور هويس كاتب ومؤرخ ، وكانت ايجاباته لى ، تتسم بتحليل المؤرخ ، ودقة فى عرض المسائل .

وفى اليوم السابع من أغسطس قمت بزيارة منطقة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

لرور الصناعية بتصريح من وزارة الخارجية ، وقد نددت
مرافقتي في هذه الرحلة ، الدكتور كارل ملينباخ ، رئيس
القسم الاقتصادي بمكتب الصحافة ، وخصصت لنا
سيارة للتجوال بها حيثما أردنا . وكانت منطقة الرور
تقع يومئذ في منطقة الاحتلال البريطاني ، وتشمل ولايتين
من ولايات الرين ، هما رينلاند ووستفاليا ، ويخترقها
نهر الرور فرع الرين ، وباسمه سميت المنطقة كلها .
وتعتبر منطقة الرور أعظم مناطق الصناعات الثقيلة في
العالم . وهي ذات طبيعة خاصة ، ففيها تمتد البساتن
الخضراء اليانعة على ضفتي نهر الرور ، ولسكنك متى
سرحت البصر في الأفق ، فإن العين لا تقع الا على المداخن
والافران العالية ، وفوهات المناجم ، تعلوها الآلات
الضخمة وتظللها جميعا سحب الدخان ، ومن وراء ذلك
كله تلال خضراء نضرة .

وقد طفت برفقة الدكتور ملينباخ ، عدة من مدن الرور
الصناعية ، مثل ديسلدروف وايسن ، ودوينز برج ،
ورينهاوزن ، وميلهايم ، وغيرها ، وأتيح لي لأول مرة في
حياتي أن أرى طائفة من مناجم الفحم والمنشآت الصناعية
الكبرى ، وبدأنا بزيارة مدين ايسن ، أعظم مراكز الرور
الصناعية ، وبها مصانع كروب الشهيرة . وطفنا أرجاء
منجم تسول فراين أعظم آبار الفحم في العالم ، وهبطنا
إلى قاعة بالمصعد ، على عمق سبعمائة متر تحت الأرض ،
ورأينا النفق الهائل الذي يؤدي إلى مكان الفحم الخام في
باطن الأرض ، وهو يمتد نحو ميلين ، وتسير إليه العربات
الصفيرة على قضبانها ، ثم تأتي محملة بأحجار الفحم ،
وترفع بعد ذلك إلى أعلى . وزرنا في دوينز برج مصانع

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

صهر النحاس . ثم أتيت لنا فرصة في راينهاوزن للتجوال في مصانع الصلب الكبرى ، وشهدنا بها الافران العالية ، وتبعت عملية صهر الحديد الخام ، وتنقيته ثم صبه في قوالب ليكون كتلا نارية ، توضع في أتون عال وتصهر ثم تنقى ، وتحمل بعد ذلك كتلا صلبة ضخمة في قطارات خاصة الى مصنع التكييف . ورائنا غير ذلك من المصانع المختلفة والآلات الضخمة . وتلقينا شروحا ضافية من المختصين لكل ما رأينا ، وعند اختتام زيارة مصانع كروب برينهاوزن عرض على مدير مصنع التكييف عقب انتهاء الغذاء بمنتهى المصنع ، هدية تذكارية ثمينة ، هي عبارة عن مسدس جميل من صنع كروب . فأجبتته شاكرا أنه يتعذر على قبول هذه الهدية لأن حمل السلاح بمصر يقتضى ترخيصا رسميا وله إجراءات معقدة . فذهب واتى لى بمطواة جيب فاخرة لامعة من النوع الذى لا يصدأ قط فتقبلتها منه شاكرا وهى ما تزال معى الى اليوم بعد ثلاثين عاما تذكارا ثمينا أحمله فى سائر أسفارى وما زالت تحتفظ بلمعائها وجدتها . وقضينا فى هذه الرحلة الصناعية الهامة ثلاثة أيام ، وتركنى الدكتور ميلنباخ فى ديملدورف ، حيث غادرتها فى اليوم التالى الى بون .

وفى الحادى عشر من أغسطس ، سافرت الى منطقة السار ، وقصدت الى عاصمتها : « ساربروكن » . وكانت يومئذ تحت الاحتلال الفرنسى . ثم قابلت الهير هوفمان مندوبها السامى ، وحادثته فى أوضاع اقليم السار ، وما يمكن أن يتوقع فى شأنه ، وفى احتمال عودته القريبة الى سيادة ألمانيا صاحبها الشرعية . وقد كان الهير هوفمان

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

متحفظا معي في حديثه واجاباته .
وفي يوم ١٣ أغسطس سافرت بالطائرة الى برلين الغربية لزيارتها بدعوة من وزارة الخارجية . وقضيت بها بضعة أيام في ضيافة مكتب الصحافة بها التابع لحكومة بون ، وكانت برلين عاصمة «الريخ القديمة» قد قسمت وفق اتفاق الصلح الى قطاعين ، هما برلين الشرقية ، وهو يتبع ألمانيا الشرقية ، وبرلين الغربية ، وهو الذي يحتله الحلفاء الغربيون ، أمريكا وبريطانيا وفرنسا ، لكل منها منطقة خاصة ، وكانت برلين وقت زيارتي لها ما زالت تسودها الخرائب والركام ، وقد زرت في قطاعها الشرقي ، خرائب وزارة الخارجية القديمة (الفيلهم شتراسه) وجدارها الباقي من المستشارية القديمة التي كان يشغلها هتلر ، كما زرت انقاض الريخستاج (البرلمان الألماني) وانقاض (اللوست جارتن) وغيرها من معاهدتها القديمة . وكان الزائر لبرلين يومئذ يستطيع أن ينتقل من قطاعها الغربي الى قطاعها الشرقي دون صعوبة . وكان كثير من سكان القطاع الشرقي يفرون الى القطاع الغربي ، وقد شاهدت في برلين الغربية ، معسكر اللاجئين اليها منهم ، وكانوا يتكدسون فيه ، في مناظر مؤلمة ، ولا سيما المتزوجون منهم وأطفالهم الصغار . وقابلت في برلين الغربية زعماء الاحزاب المختلفة ، وتحادثت معهم في شئون برلين وعلاقتها مع حكومة بون ، كما تحادثت مع وزير الدولة الهير فوكل في كل هذه الشئون .

وعددت من برلين الغربية الى فرانكفورت . ثم سافرت الى ميونيخ ، وعبرت الحدود الألمانية من روزنباخ الى سويسرا ، وسافرت الى امارة لختنشتاين الصغيرة الواقعة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

في أقصى غرب النمسا ، وشمال شرقي سويسرا ، وقضيت ليلة بعاصمتها فادوز (٢٠ أغسطس) وزرت قصر أميرها ، وعانيت به مجموعات الصور والتحف النادرة ، وتحادثت مع كبيرة أمناء القصر الكونتة بالفى ، وتلقيت منها سائر المعلومات الخاصة بالإمارة وأميرها . وكتبت عنها فيما بعد فصلا نشر في عدد الصيف الذى أصدرته جريدة الاهرام .

وسافرت بعد ذلك الى فيينا ، وأقمت بها بضعة أيام ، وأجريت مع مستشارها الدكتور ليوبولد فجل ، حديثا عن المشاكل ، التى تواجهها النمسا ، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وما تعانیه من متاعب الاحتلال الاجنبى . ونشر حديثى بجريدة المصرى . وعدت على أثر ذلك الى القاهرة فى السابع والعشرين من شهر سبتمبر .

وهكذا كانت هذه السنة - سنة خمسين - عامرة بالرحلات والدراسات الصحفية المثمرة .



وسافرت الى برلين الغربية مرتين أخريين ، الاولى فى فبراير سنة ١٩٦٠ ، وكانت قد عدت عندئذ مدينة جديدة ، واستحالت أحيائها القديمة ، من خرائب وركام مؤذية الى مدينة من أعظم المدن الأوروبية ، تفص بالأحياء الفخمة والصروح العالية المجدثة والشوارع العريضة والمنشآت والمتاجر العظيمة من كل ضرب ، وقد خلعت عنها الثوب البروسى القديم ، الذى خلعتة مدن المانية كثيرة أخرى جددت بعد الحرب . وتعتبر برلين الغربية اليوم ، من حيث الانتاج والنشاط من أعظم مدن ألمانيا

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الصناعية ، ويبلغ سكانها أكثر من مليونين من الأنفس .
وكذلك زرت برلين الشرقية ، وقد قام الروس فيها
كذلك بأعمال التعمير ، ولكن بنسبة تقل بكثير عن نظيرتها
في القطاع الغربي . وأعظم أعمال التعمير الروسية ، هو
إقامة شارع ستالين الشاسع (وهو اليوم شارع كارل
ماركس) على أنقاض شارع فرانكفورت القديم ، وهو
أفخم شوارع المنطقة الشرقية ، وكان الروس قد أحاطوا
برلين الشرقية بسور قوى من الأسمنت يفصلها عن برلين
الغربية منها لحوادث الفرار المتوالية منها ، وكانت تبدو
يومئذ كمدينة تحت الحصار ، شوارعها راكدة هادئة
والمرور بها قليل . ومعظم مساكنها مغلقة النوافذ ،
ومنتدياتها ومقاهيها خالية . وهذا بخلاف برلين الغربية
التي تفص بالمارة والحركة ، وتبدو فيها الحياة بأسحة
ناشطة . وفي هذه المرة أتيج لي لقاء عمدة برلين الغربية
يومئذ الهيرفيللي برانت ، زعيم الحزب الديمقراطي
المسيحي ، الذي غدا فيما بعد مستشارا لألمانيا الاتحادية ،
وجرى لي معه حديث طويل عن أوضاع برلين الغربية
وأحوالها ، وعلاقتها بالحكومة الاتحادية . وقد نشر هذا
الحديث في وقته بمجلة المصور .

ووقعت الزيارة الثانية في يونية سنة ١٩٦٣ . وكانت
العلائق قد توترت يومئذ بين برلين الشرقية وبرلين
الغربية ، وزاد الروس في تعليه أسوار برلين الشرقية ،
وشردوا في اغلاق مداخلها ، ومع ذلك فقد زرت برلين
الشرقية مرة أخرى ، واحتجزت سلطات الدخول جواز
سفري وسائر أوراقى وآلة التصوير التي كانت معي .
وقضيت اليوم أتجول في أنحائها ، وقد كانت ما تزال
على ما كانت عليه من الفقر والسكون الموحش ، وكانت

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

منازلها كما سبق أن شهدتها من قبل ، ما تزال مغلقة النوافذ والابواب ، لا تكاد تحس بها حسيبا . وغادرتها نحو المساء ، واستعدت جوازي وأوراقى والكوداك ، وخرجت أحمد الله على السلامة ، وأخذت في هذه المرة كثيرا من الصور خارج الاسوار ، وأمام أبواب الدخول ، وأتبع لي يومئذ أن أذور متحف دالهم ، وأن أشاهد تمثال نفرتيتى البديع ، وقد وضع به في بهو خاص ، يفد عليه الزوار بكثرة ، ويتأملونه دهشين معجبين .

وفي مساء يوم الثلاثاء ١٨ فبراير سنة ١٩٦٤ ، توفيت المرحومة والدتى السيدة نبيهة على عبد الاله عن نحو تسعين عاما ، إذ كان مولدها حسيبا سبق أن أشرت اليه في سنة ١٨٧٤ . وكانت وفاتها بمنزلها الذى كنا نملكه بالعلية . وحملت في ظهر اليوم التالى ، بعد الصلاة عليها فى الجامع المواجه لمنزلنا ، لكي تدفن مباشرة فى مدن السائلة بالإمام الشافعى ، وذلك دون اقامة سرادق أو تشييع جنازة ، تجنباً لبعض الاجراءات التى كانت تعمل بالنسبة لوفيات الاشخاص ذوى المكائة الخاصة . ونشر النعى فى اليوم التالى بجريدة الاهرام وأحييت ليلة الماتم بمنزلنا بالمعادي ، بيد أنه وقعت المفاجأة ، وكانت الدهشة حينما وردت فى اليوم التالى برقية تعزية من السيد الرئيس جمال عبد الناصر ، وبرقيات أخرى من بعض رجال الدولة ، مثل السيد كمال الدين حسين ، وغيره وبالرغم من أننى قمت بما ظننت أنه يسندل ستارا على الحادث من الاجراءات ، ويجنبنى هذه المجاملات وأمثالها ، إلا أن هذه المجاملات الكريمة ذاتها كان لها فى نفسى أطيّب وقع ، واقتضى أن ذهبت الى رئاسة الجمهورية وقيدت اسمى للشكر بدفتر التشريفات .

النشاط العلمى المحلى

كنت لما اعتزلت خدمة الحكومة فى سنة ١٩٥٣ ، افكر فى العود الى الاشتغال بالمحاماة محاميا لدى القضاء العالى ومجلس الدولة ، وكنت انوى ان اقصر نشاطى على نوع معين من القضايا . وهى القضايا التى تقع فى حيز القانون الدولى الخاص ، والتى تمثل ضروب النزاع بين المصريين والاجانب ، وبين الاجانب المختلفى الجنسية . وتحسدت فى ذلك مع بعض زملائى القدامى ، فأبدوا لى ان هذا التفكير ياتى متأخرا جدا ، وان تقدير العمل فى القضايا المختلطة ، لم يبق له موضع فعلى ، لان معظم الاجانب العاملين ، قد بدأوا يفادرون البلاد تحت وطأة النظام الجديد ، ولن يلبثوا حتى يجلون عن آخرهم . ومن جهة أخرى فان مهنة المحاماة فى ذاتها ، قد أضحت مشكوكا فى مستقبلها وضماناتها . ومن ثم فانه يجب استبعاد التفكير فى العمل فيها .

وقد اقتنعت يومئذ بهذا الراى ، وشعرت شعورا قويا بان العمل فى أية مهنة محلية ، يباعد بينى وبين مشروعى الذى انشويه من تكريس سائر نشاطى لبحوثى التاريخية ، والاندرسية بنوع خاص ، ومسرحها الاساسى كما اوضحت من قبل ، يوجد فى الخزائن والمحفوظات الاسبانية والمغربية ، والعمل فيها يقتضى معظم الوقت ، فلم تك ثمة أية فرصة متاحة ، لمزاولة أى عمل آخر .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ولم أفكر على الإطلاق ، أن اشتغل بصحافة العهد الجديد ، مهما كانت طوالها المغربية ، وان كنت من المع الصحفيين القدامى ، إذ كنت أربا بكرامتى وحرية قلمى ، أن توضع موضع المزايدة والتفجير ، والدعايات الكاذبة ، وتأييد نظام ، بدت طواله مصطبغة بالالوان النازية ، ومن ثم فقد ابتعدت عن كل نشاط صحفى ، فيما خلا بعض المهام الخارجية ، التي كنت اضطلع بها وفقا لذوقى واختيارى ، ولحساب نشاطى الخاص ، والتي اوردت منها فيما تقدم نماذج كثيرة .

وكذلك فقد اضربت عن المساهمة فى الكتابة فى المجلات الادبية ، لانها على قلتها ، وضالة مستواها فى العهد الجديد ، لم تكن خليفة بالبحوث أو الكتابة الادبية العالية . وقد غلبت عليها ما يسمى بالنعرة الاشتراكية . وغيرها من دعايات هذا العهد ، مما يأنف مثلى من المساهمة فى تحريرها .

وكان نشاطى العلمى المحلى ، يقتصر على التحاقى بعضوية « لجنة التاريخ والآثار » بالمجلس الاعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . وأشهد انى قبلت الانضمام اليها نزولا على رغبة مقررهما صديقى وأستاذى العلامة المرحوم عبد الرحمن بك الرافعى ، وقد كان ينتظم بها نخبة من اكابر علمائنا ومؤرخينا امثال المرحومين الاساتذة شفيق بك فربال ، ومحمد رفعت باشا ، والدكتور محمد صبرى السوربونى ، والدكتور جمال الدين الشيبال ، ومن الاثريين المرحومين الدكتور أحمد فخرى ، وعبد المنعم أبو بكر ، وجمال محرز ، والاستاذ حسن عبد الوهاب ، طيب الله ثراهم جميعا ، وما زلت

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

مضوا بها حتى كتابة هذه السطور .

والتحقت في نفس الوقت عضوا بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، واشتركت في كثير من مؤتمراتها وحفلاتها التذكارية للمؤرخين المصريين ، أمثال القلقشندي ، والمقریزی ، وابن تغري بردی ، وابن اياس ، والجبرتي ، وألقيت بها محاضراتي عن هؤلاء المؤرخين الاعلام ، وألقيت بها كذلك محاضرات عديدة في موضوعات أخرى .

وانتخبت عضوا بمجمع اللغة العربية الموقر في شهر ديسمبر سنة ١٩٧٥ ، ووقع ترشيحي في غيبتى بالمغرب ، بواسطة جماعة من الزملاء الأوفياء ، وتم انتخابي في الدورة الاولى في المكان الذي خلا بوفاة المرحوم الدكتور عبد الحكيم الرفاعي ، وهو كما علمت من رئيس المجمع الأستاذ الدكتور ابراهيم مذكور ، أمر نادر الحدوث في انتخابات المجمع . وتم استقبالي عضوا بالمجمع في يوم الاربعاء السابع من شهر أبريل سنة ١٩٧٦ ، وقدمني الى المجمع زميلي الأستاذ ناصف النجدي ، وألقيت كلمتي عن سلفي المرحوم الدكتور عبد الحكيم الرفاعي ، وحضرت هذه الجلسة معي السيدة حرمي . وأنا الآن سعيد بمثولي بين زملائي أعضاء المجمع ، الذين يمثلون جمعا من خيرة العلماء الأجلاء .

ثم كان أن حظيت بالخصول على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية في الجلسة التي عقدت بمجلس الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٧٧ ، وكنت

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

قد رشحت للحصول عليها من قبل لجنة التاريخ والآثار قبل ذلك بأعوام طويلة .

وقد حصلت أولا على المنحة المالية المقررة لهذه الجائزة وقدرها ألفان وخمسمائة جنيه . ثم أرجئت بقية الاجراءات حتى يتيسر عقد جلسته لوسم العلم . وقد تحدد لذلك أخيرا مساء يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهر ذى القعدة سنة ١٣٩٩ هـ الموافق للتاسع من شهر أكتوبر سنة ١٩٧٩ . وقد تقرر أن يكون استلام الفائزين للمدالية الذهبية ووسام الجمهورية في ذلك المساء ، وأن يكون تسليمها بمعرفة السيد رئيس الجمهورية محمد أنور السادات وحضور السيد وزير الثقافة الاستاذ منصور حسن ، وذلك في حفل فخم عقد بمسرح الجمهورية المجدد خصيصا ليحل محل الأوبرا القديمة المحترقة ، ولتعقد به الحفلات الرسمية . وكان في الواقع حفلا وقورا بهجا ، تسلمت فيه الى جانب زملائي الفائزين معي في سنة ١٩٧٧ بجوائز الدولة التقديرية ، المدالية الذهبية ، وقد نقش عليها اسمي ، كما نقش عليها عبارة « علوم اجتماعية » ، ووسام الجمهورية من الطبقة الاولى في العلوم والفنون ، تسلمتها من يد السيد رئيس الجمهورية ، وصافحته شاكرا وكان زميلاي اللذان حصلوا على الجائزة التقديرية هما السيدة الدكتورة سهير القلماوي ، والاستاذ وزير الثقافة السابق بدر الدين ابو غازي ، كما سلمت في نفس الحفل المداليات والأوسمة الخاصة بسنة ١٩٧٨ على مستحقيها ، وكانوا عدة آخرين من بينهم السيدة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) . وقد كان هذا حسن الختام في اجراءات

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

جائزة الدولة التقديرية . والحمد لله .
وقد شعرت أخيرا ، وبعد طول الوقت أن بلادى
العزيزة لم تنسى ، ولم تنس جهودى العلمية الدائبة
الزاخرة ، خلال هذا العمر الطويل ، وان كان هذا
التكريم ، قد جاء متأخرا بعض الوقت ، ولم أسعد به
الا فى عمرى المتقدم .

وكان يقترن بهذا الاستعراض السريع لنشاطى العلمى
بمصر ، فى الفترات التى كنت أوجد فيها بالقاهرة خلال
تلك الحقبة الطويلة ، التى أنفقتها فى دراساتى الاندلسية
فى اسبانيا والمغرب ، كان ذلك يقترن بمتابعتى لطبع
كتبى بالقاهرة ، وفى مقدمتها كتابى الضخم : « عصر
المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس » ، وفى اعادة
طبع كتبى الاندلسية ، مرة بعد أخرى ، ثم نشر كتاب
« الإحاطة فى أخبار غرناطة » للوزير ابن الخطيب ،
وهو الذى قمت بتحقيقه ، وعكفت أعواما طويلة ، على
تصحيح نصه ووضع حواشيه ، والذي قدم الى المطبعة
منذ سنة ١٩٧٢ ، واستمر بمجلداته الاربعة تحت الطبع
حتى خريف سنة ١٩٧٨ ، حيث تم بحمد الله اكمال
طبعه بعد مجهود طويل شاق ، كان يزيد من متاعبه
وآلامه ، اهمال « الشركة المصرية للطباعة والنشر »
القائمة بطبعه وتسويقها المستمر ، وتقصير عمالة لا ضمير
لها ، ولا شعور بالواجب أو المسئولية ، أسوة بمعظم
منشآت القطاع العام .



هذا وكنت قد دعيت فى أكتوبر سنة ١٩٧٤ ، من قبل
صاحب الجلالة الملك الحسن الثانى ، ملك المغرب، للعمل

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بالخزانة الملكية المغربية ، فقبلت الدعوة ، وصدر مرسوم جلالتة بتكليفى بمهمة بالديوان الملكى . واخترت ان تكون مهمتى بالخزانة الملكية ، وضع فهرس علمى مقارن لقسم المخطوطات التاريخية ، وهو يحتوى على قرابة ألف مخطوط ورسالة ، وبه عدة من المخطوطات الوحيدة والنادرة . وكنت أعرف الخزانة الملكية من قبل ، اذ كنت أقوم فيها من آن الآخر بدراسة المخطوطات التى تتعلق ببحوثى ، ولم تكن لى بالقائمين بالعمل فيها أية صلوات خاصة . فلما مثلت بها للقيام بمهمتى الجديدة ، واتصلت بطاقتها الملحق بها ، هالنى ما وجدت عليه أولئك العاملين من انحطاط المستوى المهنى والمعنوى ، فهم جميعا ، ما عدا اثنين او ثلاثة ، لا يعرفون شيئا فى أعمال المكتبات المنظمة ، ولا يعرف أحدهم أية لغة أجنبية معرفة مجدية .

ولم يكن بالخزانة أى فهرس علمى أو دولى ، وكان أشد ما يؤلم نفسى ، أن اشتغل فى مثل هذا الوسط ، الذى لا يليق وجود مثله بالخزانة الملكية . بيد أنه لم يكن ثمة مجال للتراجع ، وقد لببت دعوة صاحب الجلالة . وقد حياتى جلالتة ، حينما تشرفت بمقابلته فى فاس فى بداية مقدمى الى المغرب ، بقوله موجهها كلامه الى ، بين وزرائه ورجالات بلاطه « لقد بحثنا عنمن يقوم بهذا العمل ، فلم نجد الا عبد الله عنان » وكانت هذه التحية الملكية الرقيقة شعارى طول الوقت .

وقد بدأت عملى بالعمل على تزويد الخزانة الملكية بطائفة من المعاجم والفهارس الدولية ، وفى مقدمتها موسوعة الدكتور كارل بروكلمان عن تاريخ الادب العربى ، وموسوعة الأستاذ فؤاد سزجين الالمانية عن تاريخ التراث

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

العربي ، والطبعة الفرنسية من دائرة المعارف الاسلامية ، وفهارس مكتبة الاسكوريال ، الفزيرى وديرنبور ، ومكتبة الفاتيكان الرسولية ، ومكتبة باريس الوطنية . هذا الى ما كنت أحتفظ به في ملفاتي الخاصة من دراسات فهرسية كثيرة ، عن عدد من المكتبات الاوربية . وهى دراسات أفرغت منها كل ما يتصل بنظائر المخطوطات الملكية ، فى الفهرس الذى أقوم بوضعه . وقد تم بحمد الله وضع الفهرس المنشود لقسم التاريخ فى أوائل يونيه سنة ١٩٧٨ ، على نمط علمى دولى واسع المدى ، وسلمته الى المسئولين . والامل معقود بطبعه باذن الله فى أقرب وقت .

وأود أن أشير هنا الى المعنى ، الذى تنطوى عليه الدعوة الملكية الكريمة بتكليفى بمثل هذه المهمة العلمية . فان الذى قام بوضع فهارس مكتبة القرويين الدينية الكبرى ، هو المستشرق الفريد بل ، والذى قام بوضع فهارس مكتبة الرباط هو المستشرق ليفى بروفنسال . وما زال اخواننا العلماء المغاربة يلتزمون فى وضع الفهارس بالطريقة الكلاسيكية القديمة ، التى مضت اليوم ، لخلوها عن كل صفة علمية مقارنة ، وذلك لعدم معرفتهم باللغات الاجنبية ، التى يجب توفر العلم بها لتحقيق هذا الطابع العلمى .

وقد اتممت مهمتى بالخزانة الملكية فى أوائل سنة ١٩٨١ ، وكان النسييد مدير الخزانة ، قد اقترح بهذه المناسبة على مدير الديوان الملكى ومستشار صاحب الجلالة الاستاذ احمد بن سودة ، أن يتفضل صاحب الجلالة بالانعام على بوسام علمى ، وكذلك بمكافأة مالية

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

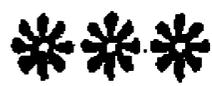
تقديرًا لجهودى فى خدمة الخزانة الملكية . ووافق صاحب الجلالة على هذين الالتماسين . ودعيت الى مراكش حيث كان يقيم جلالة الملك ، وحضرت مع باقى المدعوين من رجال الدولة ليلة المدائح النبوية فى يوم ١٨ يناير سنة ١٩٨١ . وفى اليوم التالى ، وهو يوم الاحتفال بذكرى المولد النبوى المعظم ، تشرفت بمقابلة صاحب الجلالة ضمن رجال الدولة ، وتفضل جلالتة بمنحى الوسام العلمى (الكفاية الفكرية) ، وقلدنى اياه بيده الكريمة . ولكنى تصدّر حصولى على المكافأة المالية ، التى كان قد وافق جلالتة على منحها بالرغم من انتظارى بالمغرب وقتا كافيا . وقيل لى أخيرا فى الديوان أن هذه المكافأة سوف ترسل الى بعنوانى بالقاهرة . ولكن لم يرسل الى بشئ من ذلك رغم مرور وقت كاف على هذا الوعد .

انجاز كتابى الاحاطة والريحانة

وكان من نتائج هذه الاقامة الطويلة بالمغرب انى استطعت أن أقوم بانجاز عمليين أدبيين خطيرين أولهما القيام على اتمام تحقيق كتاب « الاحاطة فى أخبار غرناطة » لابن الخطيب . والثانى ، أن أقوم بعد انجازه بالعمل على تحقيق كتاب « ريحانة الكتاب ونجمة المثاب » لابن الخطيب أيضا . وقد تم انجاز الاول تحقيقا وطبعاً فى سنة ١٩٧٣ بعد عدة أعوام من المثابرة والعمل المضنى . واستطعت فى نفس الوقت ان أقوم بتحقيق كتاب « ريحانة الكتاب » ومخطوطاته فى المكتبات المغربية بعد ان حصلت على نسخة الرئيسة الرئيسية الهامة من مكتبة السكوريال . وكان هذا العمل الادبى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الضخم ، يشغل كل أوقات فراغى ، فكنت أعمل فى هذا التحقيق كل مساء مدى ساعات ، وأنجز قسما لا بأس به من هذا الكتاب أو ذاك . وقد تم طبع كتاب «الإحاطة» بمجلداته العريقة أثناء وجودى بالمغرب . وكنت أخصص له فى كل سنة بضعة أشهر من الإجازات التى كنت أحصل عليها للراحة والاستجمام بالقاهرة ، فتقوم المطبعة بانجاز قسم لا بأس به ، وينجز الباقي الذى لا اتمكن من مباشرته خلال غيابى بعد الاحتياط لاعداده وترقيمه وتشكيله ، وأما كتاب الريحانة فقد أنجزت تحقيقه فى العامين الاخيرين من اقامتى بالمغرب ، بعد الانتهاء من انجاز كتاب الإحاطة ، ولم يبدأ بطبعه الا بعد الانتهاء من كتاب الإحاطة ، وعودتى الى القاهرة واستئناف اقامتى بها ، وقد كان الريحانة بالنسبة للإحاطة عملا هينا . ولكنه لبث فى المطبعة كالمعتاد وقتا طويلا ، وبذلنا جهدا فى مجلديه أستمر نحو ثلاثة أعوام . وكانت النتيجة اخراج هذين الكتابين الضخمين ، وأولهما الإحاطة فى أربعة مجلدات كبيرة وثانيهما الريحانة فى مجلدين . ويعتبر كلاهما آخر أعمالى الادبية الكبرى . والحمد لله على الظفر بانجازهما خلال حياتى .



هذا ، وأنه لمن المناسب ان أشير هنا الى أمكنة اقامتى بمدينة القاهرة خلال هذا العهد الطويل الذى أسطر حوادته .

كانت عائلتى المتواضعة خلال أيام دراستى تنتقل فى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

السكن بين أحياء القاهرة الشعبية ، التي يسهل منها وصولي إلى مدرستي . وكنت أثناء دراسة الحقوق ، وكانت أسرتي تعيش يومئذ بالقرية ، أقيم وحدي بشقة أرضية متواضعة بالحارة التي توصل بين شارع الخليج المصري (بور سعيد الآن) ، وشارع جامع عابدين . ومدت من الأقاليم خلال حياتي العملية ، إلى القاهرة ، تنقلت في السكنى مع عائلتي بين السيدة زينب وبركة الفيل . ثم سكنت عقب زواجي في سنة ١٩٣٠ ، في منزل خاص ، يقع قرب وزارة المالية خلف مدرسة الخديو اسماعيل ، وبه ولد ولدي الأكبر الدكتور محمود . وانتقلت منه إلى شبرا تبعا لنصح الطبيب ورعايته لصحة ولدي في حي طلق الهواء . وكانت شبرا يومئذ ما تزال في أواخرها ، خالية فسيحة الأرجاء . ولما اشتد ولدي قليلا انتقلت إلى الحلمية الجديدة في منزل عائلي كبير ، من منازل الباشوات القدامى ، يقع في شارع الهامى باشا (الآن الماس الحاجب) . وكان جل منازل يومئذ من الفيلات الخاصة ، ومنها منزل المرحوم نسيم باشا ، الذى حول فيما بعد إلى مدرسة ، وتسكنه طائفة من العائلات المحترمة ، واستطالت اقامتى في هذا المنزل نحو عشرين عاما ، وكبر به أولادى الثلاثة . وتخرج ولدى محمود من كلية طب قصر العيني . وتخرجت ابنتى سعاد من كلية الآداب بجامعة القاهرة . وعندئذ رأيت أن أنتقل إلى منزل آخر أكثر جدة ، وفي حي أرستقراطى ، ولا سيما أن منازل شارع الهامى ، قد تحول معظمها خلال هذا المدى الطويل إلى عمارات سكنية حاشدة ، واستقر الراى العائلى على أن يكون ذلك فى ضاحية

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

المعادي . وكان ذلك في سنة ١٩٥٨ . وكانت هذه الضاحية ما تزال يومئذ على رونقها التي أسبغها عليها تخطيطها الارستقراطي وسكانها الاجانب ، وكانوا يومئذ كثرة بها . ولم يكن قد أصابها التشويه والاهمال التدريجي ، والغزو الشعبي المبتدل . فنزلت بها في دور كبير فخيم مستقل هو الدور الاول من فيلا فخمة ، وبه غرفة كبرى اتسعت لمكتبتى الكبيرة . وبهذا المنزل تخرج ولدى الثانى حسين من كلية الحقوق ، وما زلت حتى كتابة هذه السطور أقيم في هذا المنزل الجميل الساحر ، وذلك بالرغم من أنى أملك في المعادي نفسها فيلا كبيرة فخمة ، يسكن بها ولدى حسين وعائلته ، ويتولى شئونها ، وبالرغم مما طرأ على المعادي من تغير كبير في مستوى سكانها ، وما أصابها من الغزو الشعبي المؤذى ، وما تقاسيه من أهوال المواصلات التي لا تليق بأية مجتمع متمدن ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

بعض الانطباعات عن رحلاتى الاوربية

لقد زرت خلال رحلاتى الدراسية والسياحية سائر دول أوربا الغربية ، والمملكة المتحدة (بريطانيا) ، ولم أزر قط روسيا السوفيتية ، وهو امتناع مقصود ، لأنى صممت على أن لا أزور البلاد الشيوعية ، ولأنى أمقت المذهب الشيوعى ، وكل من يدين به . ولقد كانت مثل هذه الزيارة ميسورة فى فرص كثيرة ، انتهزها اخوانى أعضاء مجلس الفنون وغيرهم ، وصفوا لى الكثير مما شاهدوه فى موسكو من الخطط والمشاهد العظيمة ، والمنتديات الفخمة . ولكن ذلك لم يستعملنى قط الى استجابة الدعوة الى زيارة روسيا . وكل ما كنت أود أن أزوره منها هو التركستان المسلمة . ولكنى لم أطمئن كذلك الى القيام بمثل هذه الزيارة ، لأنى أعرف ان السلطات الثقافية الروسية فى القاهرة ، تعرف جيدا ما صدر منى من حملات عديدة ضد المذهب الشيوعى ، وضد روسيا السوفيتية .

وهكذا تمت لى زيارة سائر بلاد القارة الاوربية ، ما عدا روسيا السوفيتية وهو نقص لم أندم عليه قط . ولقد ترددت على بلاد القارة مرارا وتكرارا ، ولا سيما فرنسا وايطاليا والنمسا والمانيا وبريطانيا ، واتصلت بشعوبها ، ودرست خواصها الحضارية . وفى رأى أن الحضارة الاوربية الصميمة تتأثر فى هذه البلاد الخمسة ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

أكثر من غيرها ، وانها تبلغ بين بلاد القارة ، أعلى مستويات الحضارة الأوروبية المنبثقة من الحضارة الرومانية ، ومع أن البلاد السكندنافية ، ودينماركة والسويد والنرويج ، لا تقل في مستواها الحضارى عن هذه البلاد ، فانها تبدو للزائر ، منذ الدراسة الأولى ، انها بالرغم من مستواها الحضارى الرفيع ، بلاد باهتة ، ليس لها خواص أصيلة بارزة ، مما يمتازر به البلد المتمدن عن غيره ، وانما هي بلاد ذات مظاهر حضارية عادية ليس لها لون خاص ، ويمكن ان تلاحظها في أية بلاد متمدنة أخرى . ومن ثم فان البلاد الخمسة التي ذكرناها ، وهي فرنسا وإيطاليا والنمسا وألمانيا وبريطانيا ، هي حسبما أسلفنا موئل الحضارة الأوروبية الصميمة ، وكل منها تتميز بخواص بارزة مستقلة ، من حيث الشخصية والعقلية ، والأخلاق ، وأساليب التفكير ، والحياة . ولكنها جميعا تبلغ القمة من المستوى الحضارى ، وكل ما ينضوى تحته من المستويات الأخلاقية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والاقتصادية ، والصناعية ، والزراعية ، والتقنية . وكل منها - فيما عدا ألمانيا - ذات تاريخ قديم عريق ، وكلها تتمتع بتراثات علمية ، وأدبية بارعة ، وجامعات ومعاهد علمية وفنية عظيمة ، ذات سمعة عالمية ، وحياة اجتماعية زاهرة ، وصحافة عريقة ، ولقد أخذت بطرف من سائر هذه المظاهر الحضارية العريقة في تلك البلاد العظيمة ، وامترجت دراساتي ومطالعاتي بالأدب الانجليزية والفرنسية والألمانية ، والإيطالية ، وأخذت من كل منها بقسط ملحوظ من الدراسة والقراءة ، والترجمة أحيانا ، وكان

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ذلك بنوع خاص في قصص « السياسة الاسبوعية » ،
التي سبق أن أشرت اليها فيما تقدم في بداية عهدي
بالاشتغال بالصحافة ، وكذلك في مؤلفات وبحوث تاريخية
قمت بترجمتها من الالمانية . وكانت دراسة هذه اللغات
دائما من أمتع ما كنت أشعر به من اليسر ، والراحة
النفسية في رحلاتي العديدة لهذه البلاد ، حيث كانت
اللفة دائما في يدي سلاحا معيننا نافذا ، محققا لكل
ما رغبت وطمحت اليه من دراسة شئونها ، والحياة
فيها ، والامتزاج بأبنائها ، والتمتع بمنتدياتها الاجتماعية
والقنية .

ولم يكن في أوروبا ، غير هذه المجموعة الاوربية الحضارية
العريقة ، سوى هولندا وبلجيكا ، وسويسرا ، وهي من
البلاد التي لم تكن ميدانا لدراساتي ، وكذلك المجر ،
وبلاد البلقان فانها رغم زيارتي لها لم تكن بالنسبة لي
ذات أهمية خاصة ، ولم تكن سوى مجالات سياحة
ونزهة أتريض فيها ، وأقف على أحوال شعوبها .
بقيت من هذا التعداد اسبانيا . وسوف نتحدث عن
اسبانيا والشعب الاسباني بشيء من الشرح والافاضة .

لقد فكرت في زيارة اسبانيا لأول مرة في سنة ١٩٣٦ ،
وكانت هذه هي السنة التي بدأت فيها الحرب الاهلية
الاسبانية ، التي لم يكن يستطيع أحد أن يقدر زمنها ولا
مداهها ، فسافرت الى فرنسا ثم اتجهت الى جنوبها لكي
أعبر جبال البرنيه الى اسبانيا . فلما وصلت الى الحدود
الفرنسية الاسبانية ، ألفت حرس الحدود الاسباني
يرد القاصدين الى دخول اسبانيا ، ونهت مما وقفت
عليه أن الدخول متعذر الآن ، وفي المستقبل القريب .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وطالت الحرب الاهلية الاسبانية ، واتسع نطاقها ، ثم اضطرت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، واستمرت مدى أعوام . ولما انتهت بسحق ألمانيا النازية في سنة ١٩٤٥ ، لبثت الاحوال والمواصلات الدولية أعواما أخرى في اضطراب ومتاعب حتى كانت سنة ١٩٥٠ ، ففي هذا العام ، أتيح لي أخيرا أن أحقق أميتى القديمة في زيارة اسبانيا ، ووصلت الى مدريد في هذا العام .

ولقد كانت اسبانيا بلا ريب أهم الدول بالنسبة لي ، لأنها كانت مركز دراساتى الاندلسية حسبما بينت في الفصل الخاص بذلك . وبالرغم من كون اسبانيا تعتبر من الناحية الجغرافية دولة أوروبية ، فإنها تتميز بسمات حضارية خاصة بها ، وترجع الى جانب الاصول الرومانية والقوطية ، الى أصول عربية . فأنت ترى وتشعر بكثير من الخواص الحضارية العربية والاسلامية ، تبدو في طبائع الأمة الاسبانية ، وفي حياتها العامة والخاصة ، ولا سيما في قسمها الجنوبي - الاندلس - الذى طال فيه حكم الاسلام نحو ثمانية قرون . وكذلك تشعر وتجد في اللغة الاسبانية ذاتها كثيرا من الكلمات التى ترجع الى أصول عربية ، وقد تعلمت اللغة الاسبانية ، حسبما أشرت من قبل ، فى بداية الخمسينيات ، بداية القيام برحلاتى الدراسية الاندلسية ، وقمت فى اسبانيا بأربع عشرة رحلة دراسية ، وامتزجت بطوائف الشعب الاسبانى امتزاجا ، فى المدينة والقرية ، وفى المقهى ، وفى المتدييات الاجتماعية والفنية ، وعقدت صداقات كثيرة مع العلماء الاسبان ، ولا سيما من كان منهم يهتم بتاريخ اسبانيا المسلمة ، وخرجت من ذلك كله ، بأن

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

اسبانيا تؤلف وحدة حضارية خاصة بها ، وأن الشعب الاسباني يتميز بخواص هذه الحضارة عن أية أمة أوروبية أخرى .

ان الشعب الاسباني الحالي شعب متوسط الرقى ، متوسط الثقافة ، متوسط المستوى الاجتماعى والاقتصادى . وهو مع ذلك شعب فخور بتراثه وتاريخه ، وما تحويه بلاده من المدن العريقة والصروح والكنائس والقصور والاثار الفخمة . وهو فى الادب والانتاج الفكرى يتمشى مع باقى الدول الاوربية الى حد كبير . ففیه أكابر الكتاب والمفكرين والقاصصين ، الذين يروج انتاجهم فى اسبانيا وأمريكا اللاتينية ، ويترجم منه الكثير الى اللغات الاوربية الاخرى . وقد حصل الاسبان على أكثر من جائزة من جوائز نوبل ، ومنها فى الادب لخوان خمنيس .

وهو فى الفنون يحتل مكانة ممتازة ، ولا سيما فى التصوير والموسيقى والرقص والمسرح ، وللفنون الاسبانية الموسيقية والغنائية الراقصة طابع خاص ، يختلف عن الطابع الاوربى العام فى هذا الميدان ، حيث تمتزج الموسيقى والاغاني الاسبانية بعناصر ومؤثرات رومانسية ، وأندلسية ، وموريسكية ، وغجرية ، يسبغ عليها هذا الطابع الخاص الذى لا يوجد فى التراث الموسيقى والغنائى الاوربى . أضف الى ذلك فن مصارعة الثيران ، وهو فن تختص به اسبانيا ، ولا يجاريها فى ذلك الآن سوى المكسيك ، والاسبان يعشقون هذا الفن ، ويقبلون على مشاهدته أقبالا شديدا . وتوجد ساحات مصارعة الثيران « الكورويدا » فى معظم المدن الاسبانية ، ومنها الكثير قد شيدت مداخله على طراز عربى فخم مثل ساحة الثيران

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

برنده وبمدرید ، وغيرها • ولقد شاهدت هذه المصارعة بين الانسان والحیوان غیر مرة ، وكننت فی كل مرة یتقبض قلبی مما أراه من تعذیب الثور واسالة دمه حتى الموت • وكننت أرى فی غیر مرة من یغمى علیهن من السيدات الاوربیات تأثرا بهذه القسوة البشعة فی تعذیب الثور وقتله •

والشعب الاسبانى فی مجموعته شعب متواضع طیب القلب ، قنوع ، شكور للصنیعة وقد بلوت منه هذه الصفات فی كثير من اتصالاتی ومعاملاتی • وهو شعب مرح یحب الحیاة ویحاول أن یستمرثها ویستمتع بها ما استطاع الى ذلك سبیلا • وتغص المدن الاسبانية ، وفی مقدمتها مدرید بالمقاهی والبارات • وتمتاز مدرید بنوع خاص عن أية عاصمة أوربية أخرى بما یوجد بها من المقاهی الفخمة الجذابة • والاسبانى یحب حیاة المقهى ، وینفق فیه معظم أوقات فراغه • وهو یحب الشراب ، ویسعى الیه ما دام فی جیبه بضعة فلوس • وتبقى المقاهی الاسبانية مفتوحة حتى مطلع الفجر ، ثم تفتح متأخرة فی الصباح • وتقدم الیک مقاهی مدرید أفخم وأشهر الإشریة وفی مقدمتها القهوة التى لا یمکن أن تحصل علی مثلها من الجودة والمتعة فی أى بلد أوربى آخر ، وكذلك یحب الاسبانى الطعام • وفی مدرید وغيرها من المدن الكبيرة مطاعم كثيرة فخمة ، والمطبخ الاسبانى یمتاز بألوانه الخاصة ، التى لا توجد فی أى مطعم أوربى آخر • وتمثل الاسماك فی الاطباق الاسبانية بكثرة ، كما تكثر أنواع الطبق الواحد ، وفقا لمختلف اعداده فی كل ولاية وكل مدينة ، الجالیجو ، النبرى ، الاستورى وغيرها • وأشهر الاطباق الاسبانية الخاصة هو طبق الارز البلىسى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

Arroz Paella ، وهو يعتبر بالفعل بتكوينه الفنى من أشهر وأمتع الاطباق الاوربية .

والشعب الاسبانى شعب متدين ، بل فى الواقع شعب متعصب من الناحية الدينية ، وتحتوى اسبانيا على أضخم وأكبر عدد من الكنائس تحتويه أية دولة أوربية . وقد أنفق الاسبان أيام عصور المجد والنهضة كل ما حصلوا عليه من ذهب العالم الجديد فى انشاء الكنائس والصروح الفخمة ، وتغص الكنائس أيام الاحاد بزوارها من الرجال والنساء . وتحتفل اسبانيا بكثير من الاعياد الدينية . وقد تبلغ هذه الحفلات الدينية العامة أكثر من خمسين عيداً فى السنة . ولكل بلد عميدها وحاميتها من القديسين ، تحتفل بعيده على حدة . وتحتشد الجماهير أيام هذه الاعياد بكثرة ، وتعطل سائر الاعمال ، وكثيراً ما كانت تفاجئنى هذه الاعياد أيام دراساتى فى اسبانيا وتعطل كثيراً من أعمالى ، وقد عملت الحكومة الاسبانية فيما بعد على تخفيض عدد هذه الاعياد ، ولكنها ما زالت كثيرة لا تقل عن العشرات فى كل عام ، وهذا بالطبع غير الاعياد القومية غير الدينية .

ولابد لى أن أعطف هنا على ذكر الفتاة الاسبانية ، فهى تشغل فى المجتمع الاسبانى مكانة مرموقة ، وهى تشتهر بجمالها وسحرها وخفة روحها . ولهذا الجمال طابع خاص ، فهى ليست كمعظم زميلاتنا الاوربيات باهتة اللون تغلب عليها الشقرة ، بل بالعكس تغلب عليها السمرة والخمرة ، ومن النادر أن ترى فتاة اسبانية شقراء . ثم ان الفتاة الاسبانية متوسطة القد ، يقلب

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

عليها القصر ، ويندر ان تجد في اسبانيا فتيات يغب عليهن الطول مثل ما تجد مثلا في انجلترا والمانيا والسويد . وتمتاز الاسبانية بجمال شعرها الاسود أو القسطل الداكن . وفي اسبانيا ترى أجمل الشعور وأجمل الأعين السوداء والعسلية ، وأجمل الأهداب ، وتحافظ الاسبانية بمنتهى الحرص على شعرها الطويل الرائع ، ويقص كثير من الفتيات شعورهن من الورا على مثل ذيل الحصان . وقد كانت الاسبانية حتى عهد قريب ، شديدة المحافظة في ملابسها . وكان من النادر حتى أواخر الستينات أن ترى فتاة اسبانية تلبس المنى جوب أو البنطلون . وما زلت أذكر ما رأيته يوما في شارع الجران بيا (خوسى انطونيو) من تتبع المارة لفتاة ترتدى البنطلون ، وتقدم رجل البوليس الى حمايتها وإبعادهم عنها ، وقد انتهى هذا العهد ، وترتدى الاسبانية الان كزميلاتنا الاوربيات ما شاءت من الثياب والازياء .

وأود أن أضيف الى ذلك ان مسارح الرقص الاسبانية من الكساباريات وغيرها تلتزم مستوى مشكورا من الحشمة ، فلا تبدو الفتيات عاريات أو نصف عاريات حسبما يقع بنوع خاص في باريس ، حيث يمكن أن ترى الراقصة عارية تماما في ملاهى مثل الكازينو دى بارى والمولان روج والفولى برجير . وما زلت أذكر ما حدث بفرنسا قبيل الحسرب العالمية الثانية بقليل من منع البوليس لمنظر رقصات عارية في الكازينو كانت تقوم بها انجليزية حسناء ، ورفع الكازينو الامر الى القضاء ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

باعتبار أن هذا المنظر ، إنما هو عرض فني لجمال الإنسان الطبيعي . ومن حق الجمهور أن يستمتع برؤيته وأن يعجب بصنع الله في جمال خلقه . وقد أخذ القضاء بهذا الدفاع وقضى بوقف تدخل البوليس في رقصة الكازينو العارية . وأصبح الرقص العاري اليوم من المناظر المألوفة في باريس وغيرها من العواصم الاوربية . واذكر أنني خلال عهد فرانكو الطويل في اسبانيا لم أر رقصة عارية بمدريد . وحتى الرقصات التي كان على الفتاة أن تبدو فيها بسيقان عارية ، كانت الفتاة ترتدي قلنسونا بلون اللحم الطبيعي ، ولا أعرف ان كان هذا الحظر قد سقط في ظل النظم الجديدة الحرة .

بيد أنه يجب أن ننوه هنا بأن الفتاة الاسبانية مازالت من ناحية المعرفة والثقافة العامة والرياضة البدنية متخلفة عن زميلاتها الاوربيات في هذا الميدان .

ويجدر بنا أن نخص المرأة الاندلسية بإشارة خاصة ، فالمرأة الاندلسية ، أعني في جنوب اسبانيا مشهورة بجمالها ، وهي تغلب عليها السمرة . ويبدو هذا الجمال بصفة خاصة في النساء الغرناطيات فهن أجمل نساء الاندلس . وهن يتميزن بسنسحنة تكاد تكون عربية . ويشتهرن بالتحفظ والحياة . ومن الواضح أنهن يحتفظن بكثير من آثار اسلافهن نساء الاندلس المسلمة وشمالهن . وأنت اذا قرأت وصف ابن الخطيب في كتاب « الاحاطة » لنساء غرناطة ، فانك تجد هذا الوصف يكاد ينطبق على نساء غرناطة اليوم ، واليك ما يقوله ابن الخطيب عن نساء غرناطة في عصره (أواسط القرن الثامن الهجري) :

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

« وحریمهم حریم جمیل ، موصوف بالسحر ، وتنعم
الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب
النشر ، خفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، الا
أن الطول يندر فيهن » ثم ينعى على نساء عصره بقوله :
« وقد بلغن من التفنن فى الزينة فى هذا العهد الى غاية نساء
الله أن يغضى عنهن فيها عين الدهر ، ولا يجعلها من قبيل
الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا
يسلبهم خفى لطفه بعزمه وقدرته » .

وهذه سمات وصفات تسكاد تتميز بها كلها المرأة
الفرناطية اليوم ، وهذا أمر منطقي وطبيعى ، فقد حكم
المسلمون هذه الانحاء زهاء ثمانمائة عام ، وتركوا فيها أعماق
الآثار من سمات الجنس والعوائد والتقاليد التى يشهدها
ويعجب بها كل عربى وكل مسلم يزور هذه الارض ، التى
تغمرها الذكريات المجيدة المحزنة معا .

والشعب الاسباني ، يفضل الحياة السليمة الهادئة فى
ظل نظام يتضمن العمل ولقمة العيش ، وهكذا كانت سمته
فى ظل نظام فرانكو الدكتاتورى ، الذى استمر زهاء أربعين
عاما . وقد كانت الحياة فى اسبانيا حتى أواخر الستينيات ،
رخيصة والرخاء يعم البلاد ، وأذكر أننى أعوام دراساتى
الاولى فى اسبانيا ، فى أواخر الخمسينيات ، كنت أعيش
فى بنسيون متوسط بما لا يزيد عن مائة بيزيتا فى اليوم ،
للنوم والطعام الكامل ، وهو أمر يستحيل وجوده اليوم .
وكانت الفنادق الفخمة من الدرجة الاولى ، لا تكلفك أكثر
من مائة وخمسين أو مائتى بيزيتا للغرفة فى اليوم ، وكانت
وجبة الطعام تتراوح بين ثلاثين وخمسين بيزيتا . وكان

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

هذا المستوى الرخيص ، الذي لم يكن له أى نظير فى أى بلد أوروبى آخر ، يعم سائر المدن الاسبانية ، وكان من أعظم العوامل المشجعة لقدم السياح الى اسبانيا من سائر أنحاء العالم . وكانت مدريد وسائر المدن الأسبانية تنص باستمرار بأفواج السياح من سائر الامم الاوربية وغيرها . وكان دخل السياحة الذى وصل فى اسبانيا الى ألف مليون دولار فى العام ، هو أهم أبواب الدخل القسومى . ومن المحقق أن هذا التيار السياحى الهائل قد حبا اليوم الى حد كبير ، لما حدث من التغييرات السياسية الاسبانية التى أدت أولا الى أطلاق الامن العام بسبب حوادث الارهابيين وكثرة الاضرابات ، وأدت ثانيا بما حدث من تخفيض قيمة البيزيتا وغيره من العوامل ، الى ارتفاع الاسعار الى حدود غير معقولة . وهكذا انتهت الحياة الهائلة الرخيصة التى لبثت اسبانيا تقبدها الى زوارها مدى أعوام طويلة ، وأصبحت من حيث مستوى الاسعار ، لا تقل عن كثير من البلاد الاوربية الاخرى . وهذا الى ما تسرب الى أخلاق الشعب الاسباني ذاته من تغييرات ذهبت بالكثير من صفاته القديمة الطيبة ، فأصبح أكثر ميلا الى الشغب والطمع والاستغلال والغش ، وذهبت الوداعة القديمة ، وحلت محلها الخشونة فى المعاملة ، وربما كان ذلك من نتائج ما حدث من تغيير عميق فى نظم الشعب الاسباني وأحواله الدستورية ، بعد عهد طويل من الكبت ، فأصبح شعبا حدثا فى الحرية ومزاياها ، ومازال بعيدا عن أن يتجه اليها فى أفضل صورها ، التى تفيد الفرد فى حياته ، وترفع من مستواه المعنوى والاخلاقى .

ولا بأس أن نشير هنا الى نظام غريب وفريد معا من نظم

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

العصور الوسطى يطبق ليلا في العاصمة الاسبانية وهو قيام خفير الحى **El Serreno** باغلاق سائر العمارات والاماكن التى فى حيه ليلا فى الساعة العاشرة أيام الشتاء والحادية عشرة أيام الصيف ولا يستثنى من ذلك سوى المقاهى والمنتديات الليلية . ولا تستطيع أن تدخل العمارة أو المسكن الذى تقيم به بعد الاغلاق الا بواسطة هذا الخفير ، فانك تناديه حيث يوجد فى أقرب مقهى أو أى مكان آخر لكى يفتح لك باب العمارة ثم باب البنسيون ان كان بها ، وتتحفه لقاء ذلك بما تيسر . ولا يفتح السرينو الاماكن الا فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . وان أردت الخروج قبل ذلك لعذر ما فعليك أن تدق الباب من الداخل حتى يسمعك السرينو ويفتح لك ، أو تكون قد نظمت الامر معه فى المساء عند مقدمك . ويقول أهل مدريد فى الدفاع عن هذا النظام انه يساعد فى حفظ الامن واعاقبة اللصوص عن ارتكاب جرائمهم .

ولا بد لنا أن نقول كلمة عن الصحافة الاسبانية . ان الصحافة تحتل فى اسبانيا مكانة مرموقة ، وبالرغم من أنها كانت طوال عهد فرانكو من الاربعينيات الى بداية السبعينيات ، عرضة للرقابة والاجراءات الادارية ، فانها مع ذلك كانت وما تزال قوة يحسب حسابها فى حياة الشعب الاسبانى . وفى الصحافة الاسبانية ، صحف كبيرة قوية الذيوع مثل صحيفة فان جوارديا **Vn Guardia** التى تصدر فى برشلونة ، وصحيفة ا . ب . ت . التى تصدر فى مدريد . وتمثل هذه الصحيفة ، الفكر الارستقراطى والأدب الارستقراطى ، وتصدر فى حجم المجلة الكبيرة فى نحو ثمانين صفحة . ولها ملاحق أدبية وأسبوعية . وهى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

جريدة الصفوة الارستقراطية في اسبانيا . وتصدر الى جانبها بمدريد عدة صحف شعبية أخرى مثل جريدة « يا » **Ya** وأنفورماتيونس **Informaciones** وجريدة بوبيلو **Pueblo**، وجريدة **Arriba** التي تمثل بقايا حزب « الفلانكس » وتصدر يوم الاثنين الذي تعطل فيه الصحف بمدريد جريدة واحدة هي جريدة « الاثنين **Hoja del Lunes** وتصدر في معظم المدن الكبرى ، مثل قرطبة ، واشبيلية ، ومالقة ، وغرناطة ، وبلبائ وشننجاو ، وليون ، وأوبييد وغيرها صحف محلية يومية وأسبوعية . وكان للصحف الكبرى ، قبل عهد فرانكو الدكتاتوري ، دورها الكبير في توجيه الرأي العام الاسباني ، غير أن هذا النفوذ القديم ضعف في عهد فرانكو الى حدود مؤسفة ، وهو يعود اليسوم الى أهميته ، بعد أن استعادت الصحافة حريتها ومكانتها القديمة . والصحافة الاسبانية بالرغم من أنها ليست من حيث القدم كالصحافة الانجليزية أو الفرنسية ، تعتبر من الصحافات الاوربية ذات المكانة الخاصة . وقد كنت طوال أيام وجودي بمدريد ، عاكفا على دراساتي الاندلسية ، أفضل دائما قراءة جريدة ال **A . B . C** اليومية نظرا لاسلوبها الادبي العالي ، وما تتسم به بحوثها من الجهد والترفع عن الصغائر . وكنت أشترك فيها لترسل الى بالقاهرة أيام وجودي فيها . ثم اقتضت بعد ذلك على الاشتراك في عددها الاسبوعي الممتاز الذي يصدر يوم الاحد . وما زال عندي بمنزلي بالقاهرة مجموعة كبيرة . والى جانب هذه الصحف اليومية تصدر في اسبانيا مجلات أسبوعية وشهرية عديدة في مختلف المجالات والفنون . وتأتى بعد ذلك كلمة عن مدريد عاصمة اسبانيا ، ان مدريد من أجمل عواصم أوروبا . وفي رأبي أنها أجمل من

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

باريس ذاتها كوحدة تخطيطية منسقة ، تحفل بكثير من الصروح والابنية التاريخية الفخمة . أجل ان باريس مدينة عظيمة شاسعة ، بها كثير من الشوارع الفسيحة العظيمة ، والميادين الهائلة . وبها من غير شك كثير من الاحياء الجميلة الفخمة ، ولكنها فى مجموعها ، لا تحمل سمات مدريد المتناسقة . فلا أذكر أن بها مثلا شارع فى جمال الكستليانا ، وطوله ، وسعته ، وروعته ، وما يحفل به من الصروح والنوافير التاريخية الساحرة . ولا تشتمل باريس على ما تشتمل عليه مدريد من المقاهى الجميلة الفخمة فى الجران بيا (خوسى انطونيو) وغيره من الشوارع العظيمة ، مثل شارعى الكالا وسرانو وغيرهما . ولا يوجد فى باريس مثلا بستان عظيم مثل بستان الرتيرو ، الذى يعتبر بحجمه وآثاره التاريخية وبحيراته أعظم وأجمل بستان فى أوربا كلها ، استثناء لبستان هايد بارك العظيم بلندن والشعب المديدى يحب بلده مدريد حبا شديدا ويفار على سمعتها وحسن روائها . وأذكر أيام أقامتى فى مدريد فى أواخر الخمسينيات ، كيف كانت تقطع المياه عن منازل المدينة وكل محالها من الساعة الثالثة الى الخامسة مساء ، وذلك لكى يتمكن رجال البلدية من غسل شوارعها وتنظيفها ، وذلك بالرغم من أزمات المياه يومئذ . ومن ذلك العهد الى يومنا (٧٨) تعمل سلطات مدريد بكل ما وسعت على تجميل المدينة ، وشق الانفاق فى أماكن كثيرة من شوارعها الكبرى لتسهيل المرور وتأمين المشاة ، وشق النفق الكبير تحت شارع الكستليانا وميدان تبليس العظيم لكى يجرى فيه قطار المترو الآتى من ضاحية الاسكوريال الى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

محطة السكة الحديد الجديدة (شمريتين) وزيادة خطوط مترو مدريد المركزي ، وغير ذلك من المشاريع العمرانية الكثيرة ، التي ضاعفت من رواء العاصمة الاسبانية ، وجعلتها الى جانب جمالها الطبيعي ، من أحدث العواصم الاوربية خططا .

وأما عن الذخائر الفنية ، فان مدريد تشتمل منها على أعظم مجموعة من الصور الفنية في أوروبا كلها يضمها متحف البرادو العظيم وهو يضم ابهاء بأسرها من مجموعات بلاسكيت ومورليو وجويا ، وغيرهم من العباقرة ، وهو يفوق بلا ريب بضخامته ومحتوياته متحف « الاوفتسي » في فلورنس وغيره من متاحف الصور الاوربية العظيمة . ولقد سبق أن أشرنا فيما تقدم الى ما وقع في مدريد واسبانيا من تطور الاحوال الاقتصادية ، واشتداد الغلاء بعد الحياة الهنية الرخيصة القديمة . ولكننا نستطيع أن نقول مع ذلك ، أن مدريد بالرغم من ارتفاع الاسعار في وقتنا الحالي ، فانها مازالت بلمسة من الاعتدال ، تدعو الرواد والسياح الى زيارتها ، والتمتع بجمال الإقامة فيها . واذكر اخرا انني كنت خلال رحلاتي الدراسية ، أنفق في مدريد ، وفي نواحي اسبانيا الاخرى ، أوقاتا طويلة تمتد دائما الى شهور عديدة في كل رحلة ، حتى انه يمكن أن تتجاوز اوقات اقاماتي في اسبانيا مجتمعة بضعة أعوام كاملة .

ولقد كانت كلها بحمد الله اقامات مثمرة ممتعة رغدة ، حيا الله تلك الايام السعيدة المباركة ، التي أعددت فيها مواد موسوعة الاندلس الكبرى .

القسم الثاني

تأملات عن أحداث عهد ((الثورة)) ونظمه

بماذا يمكن أن يجيب المواطن المصري ، اذا سئل عن نوع الدولة القائم بمصر فى ربع القرن الاخير - عهد الثورة - ممن يعنيه الامر .

ان الاجابة عن هذا السؤال تتضمن شقين ، الاول نوع الحكم القائم من الناحية السياسية ، والثانى نوع التشكيل الاجتماعى القائم .

فأما عن الششق الاول ، فهو ان مصر ، منذ سنة ١٩٥٤ ، بعد عامين من التريث والدراسة بعد الحدث الخطر الذى وقع فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ، تخضع الى حكم دكتاتورية مطلقة ، ولا يمنع من صحة هذا الوصف ما ورد فى دستور جمهورية مصر العربية الصادر فى سبتمبر سنة ١٩٧١ من « ان جمهورية مصر العربية دولة نظامها ديمقراطى واشتراكى ، يقوم على تحالف قوى الشعب العاملة » (المادة الاولى من الدستور) ، وانه يوجد بمصر مجلس نيابى ، يقال انه يمثل هذا النظام الديمقراطى ، ففى سائر البلاد التى تخضع لحكم الدكتاتورية ، عسكرية كانت او مذهبية ، تقوم برلمانات او مجالس نيابية لكى تغطى هذا الوصف : روسيا السوفيتية ، تركيا ، يوجوسلافيا ، رومانيا ، بولونيا ، تشيكوسلوفاكيا . الخ .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ويكفى أن نذكر انه أيام عبد الناصر ، كان يقوم المجلس النيابي باسم « مجلس الأمة » وكانت تجري الانتخابات النيابية ، بيد انه يجب أن نبادر بالقول بأن هذه الدكتاتورية ، قد تطورت أساليبها واتجاهاتها منذ سنة ١٩٧٣ على يد ما يسمى « بثورة التصحيح » وان كانت باقية على وضعها من الناحية النظرية والدستورية. ويمكننا أن نقول ان هذه الدكتاتورية ، تقع من الناحية الزمنية تحت عهد الرئيس جمال عبد الناصر (١٩٥٤ - ١٩٧٠) .

وأما الفترة التالية ، فقد تمخضت بعد صراع عنيف بين مراكز القوى التي خلفها عهد عبد الناصر ، وبين الرئيس السادات ، عما يسمى بالعهد الجديد ، عهد التصحيح ، وهو العهد الذي اتجه فيه حكم الدكتاتورية ، بالرغم من بقاءه على أوضاعه النظرية والإدارية ، الى نوع من سياسة الإصلاح ، التي تطبعها مسحة من العسالة واللين والرفق ، والى بعض الأساليب الديمقراطية .

هذا عن الشق الاول ، واما الاجابة عن الشق الثاني ، فهو ان التشكيل الاجتماعي القائم بمصر ، يرتكز وفقا لما نص عليه الدستور أولا ، في المادة ٨٧ على « أن أعضاء مجلس الشعب المنتخبين ، وعددهم لا يقل عن ثلاثمائة وخمسين عضواً ، يجب أن يكون نصفهم على الأقل من العمال والفلاحين » ، وما نص عليه ثانياً في المادة ٢٦ من « أن تمثيل العمال في مجالس إدارة وحدات القطاع العام يجب أن يكون في حدود خمسين في المائة من عدد أعضاء هذه المجالس ، وتعمل الدولة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

على أن يكفل القانون لصفار الفلاحين و صفار الحرفيين ثمانين فى المائة فى عضوية مجالس ادارة الجمعيات التعاونية الزراعية والجمعيات التعاونية الصناعية (المادة ٢٦ فقرة ثانية) .

ونود أن نشير هنا الى بعض المقدمات الصغيرة التي تشير الى بعض ما كان يجول بخواطر أولئك الضباط ، الذين قدر لهم أن يبسطوا حكمهم على مصر ، فى خلال الحرب العالمية الثانية ، حينما استطاع الالمان بقيادة روميل ، أن يصلوا فى زحفهم الى مقربة من العلمين كان ثمة بعض أولئك الضباط (ومنهم الملازم أنور السادات حسبما يقص علينا فى كتابه) يحاولون الاتصال بالالمان وبروميل لكي ينظموا التعاون معهم لتسهيل مهمتهم ، وقد اختاروا لذلك مجاهدا قديما هو المرحوم عزيز باشا المصرى ، وقد حصلوا على طيارة زودوه بها ، ولكنها سقطت به كما هو معروف ، وتعذر وصوله الى الالمان . وعزيز باشا المصرى ، كما هو معروف مجاهد ومغامر قديم ، وقد تلقى دراسته العسكرية بألمانيا وتركيا . وكانت الفكرة الذائعة فى ذلك ، انه بانتصار الالمان وهزيمة انجلترا تتحقق لمصر حريتها واستقلالها . وقد كانت هذه فكرة ساذجة ، بل فكرة غبية ، ممن لا يعرفون اتجاهات النازية وهول سلطاتها . فلو انتصر الالمان ودخلوا مصر ، لكان فى ذلك عبوديتها المطبقة ، والقضاء على كل مقوماتها . ولكن شاءت العناية الالهية ، أن تنجو مصر من غزو النازية المدمر ، وأن تحصل على حرياتها فيما بعد بوسائل أخرى .

وثمة واقعة أخرى تتصل بهذا الموضوع ، هى زيارة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

السيدة لوسى ماريا روميل ، أرملة الفيلد مارشال ايروين روميل لمصر فى شهر مايو سنة ١٩٥٤ ، وما لقيت خلال زيارتها من حفاوة بالغة . وقد وصلت الى القاهرة فى يوم ١٧ مايو ، وقد سبقها عرض الفيلم الالمانى « روميل ثعلب الصحراء » وكان قدومها بدعوة من الشركة التى قامت بتوزيع هذا الفيلم ، وكذلك بدعوة أخرى من رئيس الدولة يومئذ اللواء محمد نجيب حيث أرسل اليه صوره ومعهما دعوة الى زيارة مصر ، وقامت فراو روميل بزيارة رئيس الدولة ، ووزير الارشاد السيد صلاح سالم ، وزيارة سائر أعضاء مجلس الثورة ، كما زارت محكمة الثورة ، وأبدت اعجابها فى تصريحات مختلفة نشرت بجريدة الأهرام وغيرها من الصحف والمجلات ، بما شهدته فى مصر من النظم والمظاهر . وقام اللواء محمد نجيب وكثير من ضباط القوات المسلحة بمشاهدة فيلم روميل ، الذى وصف بأنه شريط حقيقى لمبارك الحرب الإفريقية و « الفيلق الإفريقى » حتى (١٩٤١ - ١٩٤٣) ، وزارت فراو روميل بعد ذلك منطقة العلمين ، برفقة مندوب الرحلة المعين لمصاحبها ، القائمقام محمد عارف قائد المنطقة الشمالية ووضعت أكاليل الزهر على النصب التذكارى الذى يتوسط قبور ضحايا الحرب من الالمان والاطاليين ، كما وضعت أكليلاً آخر على قبر زوجها الرمزى . وزارت متحف روميل وبه صورة خطة رسمها روميل للموقعة المرتقبة ، وصرحت أرملة بأنه كان موقناً بالنصر اذا نفذت هذه الخطة ، ولكنه أستبقى فى برلين . وكان مما جاء فى تصريحاتها قولها عن النظام النازى : « لقد جعل النظام

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

النسازى من الصعب على الانسان أن يؤمن ايمانا صادقا بسىء . ولكنى اثق بمستقبل الانسانية والديمقراطية والحرية « (١) .

وتلقى هذه التفاصيل المتعلقة بزيارة فراو روميل لمصر ، وما لقيته خلالها من الحفاوة البالغة ، بعض الاضواء على هذا العطف الذى كان يبدو من أولئك الضباط ، الذين غدوا يومئذ أعضاء مجلس الثورة ، نحو النازية ومنلها ووسائلها ، ونحن نسنطيع أن نقول ان نظم الحكم التى سار عليها عبد الناصر منذ سنة ١٩٥٤ ، كانت فى جوهرها نظما نازية .

وقد شهدت الاعوام التالية ، فى الواقع ، من حكمه للبلاد طائفة كبيرة من الاعمال والتصرفات والاعتداء على الأيوس والاموال والحرريات ، وقد دفع القضاء الجنائى فيما بعد ، محده وحكمه بشدة بما أصدره من الاحكام فى عدة من قضايا التعذيب .

ونحن نقف عند امرين : الاول توقيع الحراسات على مئات من المواطنين اليسوريين دون أية سند قانونى ، ونسبهاات عابرة ، أو مصطنعة ، ورفع يدهم عن التصرف فى أموالهم واملاكهم ، والتضييق عليهم فى معيشتهم الى حدود محزنة مبكية ، وأخيرا بتبديد معظم أموالهم بمختلف الاعذار والوسائل ، وكل ذلك باسم توقيع

(١) جريدة الاهسرام عددا ١٧ و ١٨ مايو سنة ١٩٥٤ . ومجلة المصور عددا ٢٨ مايو و ٤ يونيه سنة ١٩٥٤ ، ويمكننا أن نرجع اثر هذا التصريح الى مالقيه الفلد مارشال روميل من قسوة الزعيم هتلر حينما اتهم بالاشتراك فى المؤامرة التى نظمت ضده فى أواخر الحرب ، وأرغب روميل على الانتحار تفاديا لفضيحة المحاكمة والاعدام .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الحراسة على من يسمون أعداء الثورة .

والامر الثانى هو ما وقع فى حق القضاء المصرى وذلك باقالة العدد الجم من أقطابه ممن كان سلوكهم القضائى النزيه المستقل يسبب قلقا لذوى السلطان المطلق لانه لا ينضوى وفق اتجاهاتهم واهوائهم . وقد شملت هذه الضربة التى عرفت فيما بعد بمذبحة القضاء مائة وعشرين من أكابر رجال القضاء ما بين مستشارين ورؤساء محاكم ونيابات ، ومحامين عموميين وغيرهم .

ونحن نكتفى بعد ذلك بأن تقدم هذا العرض الصريح الشامل بخواص حكم « الثورة » فى عهد عبد الناصر ، الذى يقدمه لنا السادات فى كتابه « البحث عن الذات » . وهو يغنينا عن الاطالة فى تقييم ذلك العهد :

« ولكن بداية حكم الثورة كانت غير موفقة ، فبدلا من أن تبدأ بالثقة ، وتعطى الفرصة الى أن يثبت العكس ، بدأت بالشك فى كل انسان الى أن يثبت العكس : وهو الثقة ، وهو نادرا ما يثبت ، ولذلك فى الازبع سنوات الاولى ، وهو حكم مجلس قيادة الثورة ، كانت هناك أخطاء وانتهاكات فى حق الانسان المصرى ، ولكنها كانت فى دائرة ضيقة اتسعت فيما بعد . ففى سنة ٥٦ ، كان يجب على عهد عبد الناصر أن يواصل الانتصار ، بعد انتصاره فى معركة القناة ، بأن يعطى للشعب بعد معركة ١٩٥٦ حرية كاملة . ولكنه لم يفعل ، وكانت النتيجة أن أصبح الانسان المصرى سلبيا ، مما جعل انتصارات عبد الناصر كلها انتصارات على السطح بالنسبة للشعب لانه يعرف فى أعماقه جيدا أنه لم يشارك ، ولم يؤخذ رأيه فى امرها . . . وعندما كان الشعب يتلملم من هذا ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

كان تملله يفسر على أنه ثورة مضادة ، فتقع الحراسات والاعتقالات ، وكل هذا هو التطبيق الفعلى لانتهاك كرامة الانسان .

« وقد لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب فى حق الانسان المصرى ، كان هو زرع الخوف ، فبدلاً من أن نبني الانسان ، أصبح كل همنا أن نخيفه . والخسوف هو أخطر ما يهدد كيان الفرد أو الشعب . فلقد كان أرزاق الناس كلها ملكا للحاكم ، ان شاء منع ، وان شاء منع ، وكان المنع مصحوباً فى أغلب الاحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله ، ثم فصل جميع أهله من وظائفهم مع اتخاذ اجراءات ضدهم .

وهكذا تحول الناس الى « مساخيظ » ، وأصبحوا دمي فى أيدي حكامهم ، يفعلون بهم ما يشاءون . فلم يعد مسموحاً للناس بالسفر ، أو أن يقولوا كلمة تختلف عما يقوله الحاكم ، والا اعتقلوا أو صودروا فى أرزاقهم . ومن هنا ازداد الناس سلبية . فقد أصبح الامان لهم أن يسيروا الى جانب الحائط لا شأن لهم بأحد ولا بأى شىء مما يدور حولهم ، وكأنهم أصبحوا لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون . من أجل ذلك قلت ، وما زلت أقول « انه بقدر ما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة فى انجازاتها ، فانها كانت أيضاً عملاقة فى أخطائها (لكن مع الزمن انتهت الانجازات أو أصبحت أمراً واقعاً مجرداً من الهالة ، ولم يبق من الثورة غير بقعة سوداء رهيبه ، تشيع الحقد والخوف بين الناس ، ولكنهم لا يملكون منها فراراً » (١) .

(١) البحث عن الذات ص ٢٢٨ و ٢٨٩

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

هذا وقد كان من نكد القدر أن يتجه عبد الناصر منذ عصر مبكر الى محالفة روسيا السوفيتية والارتقاء في أحضانها ، كرد فعل لخصومته لامريكا ، لرفضها معاونة مصر في انشاء السد العالي ، وتقدم روسيا الى القيام بتلك المعاونة ، وامتدادها لمصر ببيع السلاح اليها . وما ترتب على ذلك من بث روسسيا لمثلها الشيوعية ، عبد لناصر والاشتراكية في نفس عبد الناصر ، وما وقع في نفس الوقت من التقارب بين مصر ويوجوسلافيا الشيوعية ، وتأثير زعيمها الرئيس تيتو في دفع عبد الناصر الى نفس الاتجاه (١) وان كانت مصر لا تنسى للرئيس تيتو مواقفه الودية العديدة نحو قضاياها . ومن الواضح أنه لم يكن في برنامج « الثورة » منذ البداية ما يحمل على هذا الاتجاه أو التفكير فيه . وانما بدأ هذا الاتجاه بادىء ذي بدء ، على اثر تحالف مصر مع روسيا الشيوعية ، ودفعت الصحافة والاذاعة الى تأييده بطريقة منظمة ، متواصلة ، وأنشئ بمصر ما يسمى « بالاتحاد الاشتراكي » كصورة مصفرة للحزب الشيوعي الروسي . ثم صدرت في يولية سنة ١٩٦٠ «القوانين الاشتراكية» ، وشمل التأميم سائر المنشآت والمشاريع التجسارية والصناعية والثقافية (الصحافة ودور النشر) . وكانت حركة خاطفة ، قلبت سائر الاوضاع الاقتصادية الحرة ، واحكمت الدولة قبضتها على سائر أوجه النشاط الاقتصادي ، وبدأ بمصر ما يسمى « بالاشتراكية أو النظام

(١) من الواضح أن المرحوم الاستاذ عبد الله عنان يردد هنا الاقاويل غير العلمية وغير الصحيحة التي كان وما زال يرددتها خصوم عبد الناصر « من كتاب الهلال » .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الاشتراكي « واتسع نطاق الدعاية لتأييده ، وصدرت كتب ضخمة عن الاسلام والاشتراكية ، وكثر الحديث عن « اشتراكية الاسلام » ، ونسب الى الاشتراكية عدة اكابر الصحابة ، الى غير ذلك من الاقوال .

ان الاسلام لا يسمح للدولة ان تتدخل في حرية الفرد الاقتصادية الا في أضيق الحدود ، وبالقدر اللازم لحماية المجتمع ، وان الاسلام من هذه الناحية أكثر اتفاقا مع النظرية الديمقراطية في الحرية الاقتصادية .

والاسلام في نفس الوقت يحارب الاستغلال ، ويعمل على حماية حق الفقير والمعدم في العول . بيد ان اتجاهات الاسلام في ذلك هي اتجاهات انسانية قبل كل شيء ، وهي أكثر انسانية من الاشتراكية أو غيرها من المذاهب الاقتصادية الحديثة لأنها ترعى مقتضيات العدالة في نفس الوقت ، الى جانب تحقيق غايات التكافل الاجتماعي ، ولا تسمح ان يكون انصاف طبقة أو طائفة مهينة على حساب الاضرار بحقوق طبقة أو طائفة أخرى ، وهو ما حدث في تطبيق الاشتراكية « الناصرية » ، حيث منح العمال أجورا وامتيازات كثيرة على حساب الطبقات المسورة والمتوسطة ، وأضحت أجور العمال الجهلاء تزيد في معدلها على مرتبات اكابر موظفي الدولة ، ذوى الثقافة العالية (١) .

ثم ان هذه الاشتراكية ذهبت في التأميم الى حدود بعيدة ، وطبقته على أصغر الوحدات الانتاجية الخاصة . وهذا ما يخالف النظرية الاشتراكية السائدة ، في أن هذا التوحيد أو التأميم ينصب على وسائل ملكية الانتاج والمرافق العامة كرقوس الاموال والمنشآت الانتاجية

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الضخمة والمناجم ، والقوى المحركة والغابات ، ووسائل
المواصلات والنقل ، ويعبر الاشتراكيون عن ذلك بقولهم
« ما هو ضروري من الوجهة الاجتماعية ، يجب أن يقع
في الملكية الاجتماعية الاشتراكية » ، أما ما وقع في مصر
تطبيقا للاشتراكية ، فهو أقرب منه إلى الماركسية والنظام
الشيوعي (١) ومما يدعم هذا الرأي ، ما نص عليه في
الدستور على قيام نوع من الأغلبية المقررة للعمال والفلاحين
في البرلمان وسائر الهيئات النيابية . وهي الماركسية
بذاتها التي تنادي بسيادة الكتلة العاملة .

وبعد فماذا كانت آثار هذا النظام « الاشتراكي » ،
بعد أن مرت على تطبيقه أكثر من خمسة عشر عاما ؟
كان من تأثير شديد في تشييط همم العمال ، والاغداق
عليهم دون استحقاق ، وحمايتهم من كل جزاء أو تعريضهم
للفصل الإداري ، حتى مع الإهمال وارتكاب الخطأ
الجسيم . ومعظم منشآت القطاع العام لا تفي اليوم بإنتاج
نققاتها ، ولا أجور عمالها المتكدسين بها دون عمل . وقد
فقدت العمالة في معظمها كل ضمير ، وكل شعور بالواجب
والمسئولية ، وأصبحت كلا على الدولة وعلى البلاد ،
ولا يبدو اليوم أي أمل في إصلاح هذه الحالة ، أو تضييقها
إلى حالة أفضل لتمسك العمال بها والدفاع عنها ، لأنها
تهيء لهم الحياة الرغدة فوق الكفاية ، دون بذل أية
جهود صادقة منتجة .

وفوق ذلك ، فقد كان لهذا الرخاء العمالي أثره الواضح

(١) ليس في دساتير الدول الاشتراكية نص على أن يكون للعمال
والفلاحين نصف المقاعد في المجلس النيابي ، وهذا يدل على أن ما حدث
في مصر لم يكن تقليدا لما حدث في أي بلد آخر . . « كتاب الهلال » .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

في الانفجار السكاني . فقد عمد كثير من العمال الجهلاء الذين أثروا فجأة نتيجة للقوانين العمالية المتحيزة ، والأجور العالية ، الى اتخاذ الزوجات الثواني والثالث ، تدفعهم المتعة البهيمية قبل كل شيء ، وأكثروا من الإنجاب ، حتى أنك لتجد منهم الكثير ممن أنجب عشرة أو أكثر من البنين والبنات من زوجين أو أكثر دون شعور بالمسئولية ، أو الاهتمام بمستقبل هذا العدد العديد من الأولاد ، فكان هذا عاملا جديدا ، في ازدياد السكان زيادة غير طبيعية ، وعاملا في لانفجار السكاني ، الذي يكاد يخلق البلاد (١) .

ان الأمم لا ترتقى ، وتأخذ مكانتها المرموقة ، بسواعد العمال ، ولكنها ترتقى وتحرز مكانتها بين الأمم الأخرى بعقول أبنائها المثقفين المفكرين . ويوم تضعف الطبقات المفكرة ، وتفقد عزائمها وهممها ، بفعل الظلم الاجتماعي الذي تعانيه ، فان الأمة تنحدر الى طريق السقوط الأدبي . والطبقات المثقفة في مصر ، لم تتعاطف مع « الثورة » قط ، لأنها رأت منها ، فوق ما ارتكبتها من المظالم الفادحة ، والأمور البشعة ، ضفطا على حرية الفكر ، ومطاردة الأحرار والعلماء والكتاب ، وامتھانا لانتاج العقول الراجحة ، والأقلام الحرة الشريفة .

ولسنا بحاجة لان ننوه بما وقع في عهد « الثورة » من تدهور في المستوى العلمي والثقافي ، وبالأخص من انهيار

(١) مازال الاستاذ عنان مستطردا في تحامله على العمال ، مرددا الاقاويل والشائعات التي روجها خصوم ثورة ٢٣ يوليو « كتاب الهلال » .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

لمستوى التعليم الجامعي ، حتى كاد ان يصبح تعليما مدرسيا خالصا ، فهذه مسألة تفر بها جميع الدوائر ، وما وقع من تطور مؤسف في المستوى الاخلاقي للشباب المتعلم ، بسبب فتح الجامعات بلا حدود ولا شروط ، ولا اعتبار للبيئة والقيم الاخلاقية . وقد كان جديرا أن تخصص إحدى الجامعات على الأقل للطلبة الذين يؤدون المصاريف الجامعية ، ويمتازون بمستواهم العائلي والاخلاقي ، على مثل ما هو واقع في بعض الدول الاوربية ، مثل انجلترا في كلية « ايتون » وغيرها .

المغامرات السياسية والعسكرية

كانت بداية المغامرات السياسية والعسكرية ، عقد الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير سنة ١٩٥٨ . وقد وقع هذا الحدث السياسي الخطير دون مقدمات ، ولا تفكير ، ووقع اثر قدوم وفد سوري الى القاهرة ، يتطلب عقد الوحدة بالحاف وشدة ، فكان قبول الرئيس المصري لهذا المطلب دون بحث ولا دراسة ، ولا التجاء الى أخذ رأى الشعب المصري . وان كان قد عمل استفتاء شكلي على ذلك بعد وقوعه وابرامه ، وكان من الواضح أن الشعب المصري لم يكن ميالا الى هذا الاتجاه .

لقد كانت سوريا (الشام) ولاية مصرية ، خلال العصور الوسطى ، مدى ثمانية قرون ، منذ الدولة الطولونية ، حتى الفتح العثماني في سنة ١٥١٧ ، وكانت اهميتها تعتبر « نيابة للسلطة » ، وكانت مصر ، بالرغم مما كانت تبذله في سبيل حماية الامة السورية ، ورخائها واسعادها ، تعاني الكثير من الدسائس ونكران الصنيعة ، والمؤامرات

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

التي تدبر من آن لآخر ضد حكومة السلاطين المصرية .
ومن ثم فقد كانت لدى الشعب المصري ، دائما ، فكرة
راسخة عما كان ينطوي عليه ذلك من عدم الولاء . وحتى
العصر الاخير ، أيام الحكم التركي ، كان السوريون لا يرون
في مصر ، الا ملجأ يقصدونه تحقيقا للكسب والامان ، وقد
كان واجبا أن يتدبر عبد الناصر وأعوانه هذه السمات
والسوابق في شعب ، لا يقصد من أية حركة سياسية أو
اجتماعية ، الا تحقيق المقائم المادية .

ولكن عبد الناصر لم يكن يقف في طموحه الى زعامة
العروبة والامم العربية عند أية وسيلة وكان يظن ان الوحدة
بين مصر وسوريا هي فاتحة هذه الزعامة . وقد ملقه
القوتلى رئيس سوريا يومئذ في خطابه الذى القاه من شرفة
رياسة الوزارة بالقاهرة ، حيث تمنى له أن يكون صلاح
الدين العصر ، في تحقيق الوحدة بين سوريا ومصر ، وهو
ملق زائف بجانب حقائق التاريخ ، لان مافعله صلاح الدين
يومئذ لم يكن تحقيق أية وحدة بين مصر وسوريا ، ولكنه
كان إعادة سوريا ، الولاية المصرية الفاطمية الى أمهسا
مصر ، التي كان سلطانها يشمل يومئذ فلسطين (الرملة) ،
وسوريا (الشام) وولاية حماه وما في جنوبها (لبنان) .
ولم يك ثمة يومئذ ما يسمى بالعروبة أو الوحدة العربية ،
مما يوجه حركات صلاح الدين وانما كان ثمة جبهة اسلامية
موحدة ضد الجبهة الصليبية .

وقد كانت هذه الاعوام الاربعة ، التي استمرت فيها
هذه الوحدة الاندماجية ، والتي اشترك فيها السوريون
والمصريون في تبادل الوظائف الكبرى والسفارات وغيرها ،
بين الدولتين ، من أشد ما ألم نفوس كثير من المصريين ذوى

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الكرامة والاباء . وأقسم اننى خلال رحلاتى المتعددة الى أوروبا خلال هذه الفترة ، لم أدخل قط سفارة مصرية كان يتولاها سورى مهما كان الداعى الى ذلك ، وقد كان هذا بالأخص موقفى من سفارة مدريد ، التى كانت تربطنى بها مصالح واتصالات كثيرة ، تتعلق بدراساتى فى أسبانيا . ولقد بذلت مصر خلال هذه الفترة ، جهودا وأموالا طائلة لمعاونة سوريا وانعاشها ، وبعثت أسطولها الى المياه السورية ، ردا على تحرك القوات التركية . ثم انتهت هذه المغامرة بكارثة ، وتم الانفصال ، والحمد لله ، فى سبتمبر سنة ١٩٦١ ، بطرق مهينة لمصر وأبنائها ، وأدرك عبد الناصر ، مبلغ تصرفه فى عقد مثل هذه الوحدة مع أمة لم تتعود على الشعور بالولاء وشكران الصنيعة (١) . ولن ننسى أن نسجل هنا تلك الجريمة الشائنة التى ارتكبت فى حق مصر الخالدة ، وذلك بأن قرر بهئذ المناسبة ، وأد اسمها التاريخى العزيز الخالد على كر القرون ، وسميت « بالجمهورية العربية المتحدة » . وقد كان لذلك آلم وقع فى نفوس أبنائها البررة . وكنا نرفض طول الوقت هذه التسمية المفروضة ، ولا نسجل فى أية أوراق رسمية تقدم لنا فى الخارج سنوى اسم مصر العزيز .

وكانت المغامرة الثانية فى سنة ١٩٦٢ ، وهى مغامرة حرب اليمن ، التى لم تعلم بها البلاد الا بعد مسير القوات المصرية اليها بأيام . وقد فسر لنا الرئيس السادات باعثها

(١) من العجيب أن يكون هذا هو رأى مؤرخ عربى كبير بكى على الاندلس ، ثم هو فى كلماته هنا يتهم سوريا بأنها لم تتعود الشعور بالولاء وشكران الصنيعة الخ . . . « كتاب الهلال » .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الأصلى وهو مهاجمة هذا القطر الملاصق لحدود المملكة السعودية الجنوبية الغربية ، للقضاء على حكومة الامام الرجعية البشعة ، وتهديد جناح السعودية بذلك ، لأنها هى التى قامت بتمويل عملية انفصال سوريا من الوحدة . ومهما كانت بواعت هذه الحرب ، التى استطالت زهاء خمسة أعوام ، والتى انقلبت غير بعيد ، وفقا لقول الرئيس السادات الى سوق تجارية ، فقد كان واضحا ، انه لم تكن لمصر فيها أية مصلحة قومية حقيقية ، تستدعى بذل مئات الملايين من الاموال ، والتضحية بأرواح آلاف مؤلفة من الشباب المصرى ، ولم تجن منها مصر أية نتيجة او منفعة ايجابية مادية او أدبية .

النكبة الكبرى

فى ظهر يوم ١٧ مايو سنة ١٩٦٧ ، كنت جالسا بمقهى الميوزيوم بمدينة فيينا ، اطالع الصحف النمساوية ، واذا بى اقرا من اخبار مصر ، أن القوات المسلحة المصرية ، تتقدم فى قلب سيناء ، فانزعج لهذا الخبر ، ولم أفهم سر هذا التحرك العسكرى ، وبادرت بالعودة الى القاهرة ، فوصلت اليها فى العشرين من مايو .

والفت الراى العام بمصر متوترا ، والمواطنين فى حيرة ، لا يدركون من الامر شيئا واضحا ، وينتظرون وقوع الصدام العاجل بين مصر واسرائيل ، وكان الشائع يومئذ أن تحرك مصر كان لانقاذ سوريا ، التى حشدت اسرائيل قوات ضخمة على حدودها ، وهددت باحتلال دمشق . ونحن نكتفى هنا بأن ننقل تعليق الرئيس السادات على

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

تصرفات عبد الناصر : « وقد وضع عبد الناصر من كل هذا دراما عنيفة الوقع ، في حين كان السوفييت لا يكفون عن التنبيه ، بأن توقيت الاحداث أسرع مما يجب . ولكن عبد الناصر كان مصرا على اندفاعه ، وانزل الستار على هذه الدراما الصاخبة بالمؤتمر الصحفي الذي عقده على مستوى عالمي ، وكان قمة في التحدى والعنف » (١) .

ووقعت النكبة يوم الاثنين الخامس من يونية ، وبدأت اسرائيل بضرب سلاح الطيران المصرى ، ودمرت سائر طائراته في سائر المطارات ، وهى جاثمة على الارض ، وفقدت مصر في لحظة جناحها الدفاعى الاول . وأصدرت القيادة العامة ، وكانت يومئذ بيد عبد الحكيم عامر ، امرها بانسحاب الجيش . ووقع الارتباك والتناقض المذهل في تنفيذ أمر الانسحاب . وكانت نكبة حقيقية مروعة ، نزلت بجيشنا الضخم الباسل ، دون قتال ولا استحقاق ، وكان ضحية مؤلة لقيادة عاجزة ، وارتدت فلوله في مناظر مثيرة مبكية ، تاركا للعدو سائر عتاده ومعداته ، التى تقدر بمئات الملايين . ولم تمض أيام حتى احتل اليهود سائر سيناء ، ووصلوا الى ضفة القنال الشرقية ، ولم يكن امامهم للمقاومة ، جندي مصرى واحد .

وكانت جماهير المواطنين اثناء ذلك كله ، في منتهى الحيرة واليأس ، وكان بعضهم يتساءل في سداجة ، لماذا لم نتقدم لاحتلال تل ابيب .

ثم يقص علينا موقف الجماهير الساذجة ، التى اجتمعت حشودا كثيفة ، في شوارع القاهرة تطالب باستمرار زعامة عبد الناصر فى الرياسة ، وهو أمر لا يكاد يصدق ، ولا

(١) البحث عن الذات ، ص ٢٢٥

يمكن أن يحدث من جماهير أمة واعية مستنيرة ، لها رأى وعزيمة ، وقد كان المفروض أن يقع العكس تماما ، وهو أن تطالب الأمة بمحاكمة المسؤولين عن وقوع هذه النكبة الفامرة المروعة ، وانزال العقاب الصارم العادل بهم .
على أن الرئيس السادات يقدم الينا أبلغ وأصدق وصف لموقف عبد الناصر ، وحالته النفسية بعد النكبة فيقول : « ومن يعرف عبد الناصر ، لابد أن يدرك أنه لم يمته يوم ٢٨ سبتمبر سنة ٧٠ ، بل مات يوم ٥ يونية سنة ٦٧ ، بعد المعركة بساعة واحدة . هكذا كان يبدو ، بل وظل يبدو لفترة طويلة . . . الميت الحي . . صفرة الموت تغطى وجهه ويديه ، رغم أنه كان يسير ويتحرك ، وينصت ويتكلم » (١) .



هذا ، وقد شاء ربك أن ينتصف الجيش المصرى لكرامته ، وان يمحي آثار الهزيمة الظالمة الذى أنزلت به ، وذلك فى حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ والسادس من أكتوبر ١٩٧٣ م ، وهى التى وضع خطتها الموقفة الرئيس أنور السادات ، فقام بعبوره الخاطف لقناة السويس ، وتدميره لخط بارليف الذى زعم اليهود مناعته ، وهزيمته للقوات الاسرائيلية البرية والجوية فى عدة معارك طاحنة ، وتوغله داخل سيناء الى مسافة كبيرة ، وقضائه بذلك على اسطورة المنعة التى كانت تزعمها اسرائيل عن جيشها الذى لا يقهر . ولم ينقذها من الهزيمة الساحقة الا تدخل

(١) البحث عن الذات ص ٢٣٣ .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الدولتين العظيمنتين أمريكا وروسيا ، وصدور قرار وقف إطلاق النار ، وقد كان لانتصار مصر في حرب أكتوبر أعظم صدى في العالم كله ، وفي العالم العربي بوجه خاص ، حيث شنعت سائر الأمم العربية ، أنها قد استردت كرامتها وثقتها بنفسها . وقد محت حرب أكتوبر بالأخص آثار الجريمة العظمى التي ارتكبت في يونية سنة ١٩٦٧ ، دون ترو ولا درس ولا تمحيص ، وأسدت مدى أعوام ستارا مؤلما على كرامة الأمة ، وسسمعتها ، واعتزازها بجيشها .



والان فان الشعب المصرى ، بعد هذا الكفاح المرير ، والنصر المحقق ، يحق له أن يجنى ثمار كفاحه ، ونتائج نصره ، وأن يخرج من هذه الغمار القاتمة التي أحاطت بحياته أعواما طويلة ، وأن يتاح له أن يرفع عن كتفه هذا الكابوس ، الذى يثقل كاهله ، خلال هذا العهد الطويل ، الذى تراكمت فيه الازمات ، والذى أخفقت فيه السلطة القائمة فى أن تعالج مشاكله المريرة المؤلمة ، ان الشعب المصرى يحيى اليوم حياة تعسة فى سائر المجالات ، ما فى ذلك من شك ، وقد أصبح شعبا لا هم له الا تحصيل لقمة العيش بشق الانفس ، ينفق فى سبيلها كل وقته ، ويمضى ساعات وساعات فى طوابير الجمعيات التعاونية ، والمخابز ، لكي يحصل على اتفه مطالب العيش ووسائل الحياة الالئمة الذى لا يستطيع تغييرها ، أو يحساول الوصول الى عمله ثم الى بيته بوسائل المواصلات التعسة التى لا معدى له عن ركوبها . وقد نسى خلال هذا الشقاء الذى طال به العهد ، أن يفكر فى شىء آخر من متاع

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الرفاهية والمثل المعنوية أو العقلية . اذ كيف ومتى يستطيع ان يقوم بمثل هذا التفكير ، وهو يشغل بهوم العيش النكد الذي يلزم حياته ليل نهار . انا نرجو ونحن نستقبل هذا العهد ان يلقي شعبنا مصيرا افضل ، وعناية اوفر لمعالجة مشاكله وتخفيف ويلاته ، وتحسين وسائل عيشه ، في التموين ، وفي الاسكان وفي المواصلات والقلاء ، وغيرها ، ما تراكمت مصائبه خلال أعوام طويلة لم يظفر فيها من حكامه بأية محاولة ، او جهد منقذ ، او علاج ناجع . وانا لندعو الله اخيرا ان يمد حكامنا وولاة الامر فينا ، بعونه وتوجيهه لكي يحاولوا اخيرا . وبعد هذا الجهد الطويل ، ان يعملوا شيئا لمعالجة مشاكل الشعب المتراكمة ، وان يساعدوه على الخروج من هذه المحن الفامرة التي يتردى فيها ، والله يحقق هذه الامال المعقودة ، انه هو القوي المعين (١) .

اوضاع الحياة السياسية والاجتماعية قبل سنة ١٩٥٢

انهم يقولون الآن لجيل الشباب الناشئ ، المسكين الحائر ، انا نجوز في ظل العهد الجديد ، عصرا افضل ، وحياة افضل ، وان عهد ما قبل « الثورة » كان عهد اقطاع ، يتحكم فيه الاقطاع واصحاب الاموال في مصاير الناس ، ويحتكرون السلطان والاموال والمنافع ، وانه كان عهدا مليئا بالفساد والفوضى ، وان البلاد كانت تحت سيطرة الانجليز من ناحية ، وسيطرة القصر والاحزاب من ناحية اخرى . اما اليوم فان الشعب يحيا في ظل الحرية « والديمقراطية » ، وتكافؤ الفرص ، وقد زالت منه سيطرة الانجليز ، وسيطرة القصر ،

(١) كتب المرحوم عبد الله عنان هذا الفصل سنة ١٩٧٩ .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وسيطرة رأس المال والاقطـساع ، وتحققت العدالة الاجتماعية ، الى غير ذلك من الاقوال ، والشعارات الخلاية ، التي تطالعا بها صحافة هذا العهد ، ويردها اصحاب السلطان في خطبهم واقوالهم كل يوم .

هذا هو ملخص الصورة القاتمة التي يصمون بها عهد ما قبل « الثورة » والصورة البراقة التي يحاولون أن يسموا بها العهد الجديد ، عهد « الثورة » .

ونود « نحن وقد عشنا في العهدين ، وبلونا ما أقسم به كل منهما من الصفات والخواص ، أن نقول أولا ، أن الاوضاع السياسية قبل سنة ١٩٥٢ ، كانت فعلا تتجاذبها مختلف التيارات ، وانه كان عهدا يتميز بالصراع المستمر بين الوطنية المصرية والسيطرة الانجليزية . هذه هي الناحية الاولى . وان السلطة لم تكن بالفعل خالصة للمصريين ، وان الحكومات المصرية المختلفة ، كانت تعاني من ضغط المحتل احيانا ، ومن ضغط القصر احيانا اخرى . ولكننا نود أن نقول الى جانب ذلك ، ان حكم الاحزاب - وقد كان يتجاذب النفوذ السياسي يومئذ حزبان اصليان ، اولهما حزب الوفد المصري ، وهو حزب الاغلبية الشعبية ، وحزب الاحرار الدستوريين (وهو حزب الاقلية الارستقراطية الفكرية والراسمالية الزراعية . ثم انشطر حزب الوفد فيما بعد الى ثلاث شعب متنافسة متخاصمة - نقول ان حكم الاحزاب كان يتسم في هذا العهد بمقدرة في الحكم ، ومعالجة الازمات القومية ، وان الحياة البرلمانية في هذا العهد ، بالرغم مما كان يشوبها من الصراع الحزبي كانت حياة ديمقراطية صحيحة ، وانها كانت من حيث مستوى التكوين

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

والكفاية ، أرقى بكثير مما تشهده اليوم في الحياة البرلمانية . أجل كان ثمة نواب وشيوخ من طراز ممتاز ، لا نرى لهم اليوم أحدا من النظائر ، وان الحسريات الدستورية والديمقراطية ، كانت أمرا قائما بالفعل ، وكانت مكفولة بالقوانين وأحكام القضاء ، وأنه لم يقع في هذا العهد شيء من ضروب الاستعباد المطبق للشعب المصرى .

ثم يقولون ، ان حكم الاحزاب فيما قبل « الثورة » كان مشوبا بالفساد والفوضى . ونحن نقول أجل ، كان ثمة فساد يشوب حكم الاحزاب . ولكن ما يشوب الحكم في عهد « الثورة » من الفساد والفوضى ، يزيد أضعافا مضاعفة عما وقع من قبل . ويكفى أن الرشوة أصبحت في عهد الحكم الحالى تقليدا ثابتا ، لا يمكن أن تقضى بدونها في الادارات الحكومية المختلفة ، أى حق أو مصلحة لاي مواطن . هذا الى ما يقع بين يوم وآخر من الاختلاسات الهائلة لاموال الدولة . والحرائق المستمرة المتعمدة لاختفاء السرقات والاختلاسات .

ثم يكفى الى جانب ذلك ما ظهر من المعجز عن معالجة أية مشكلة من المشاكل القومية ، أمثال مشاكل الاسكان والمواصلات والتموين والهجرة الريفية وغيرها ، وهى مشاكل تتفاقم كل يوم مع مرور الزمن ، ولا تحاول الحكومة أن تبذل أية محاولة ناجحة لمعالجتها .

وأما عن الفاء الاقطاع وتحقيق العدالة الاجتماعية ، فيكفى أن نقول انه ما كان ثمة ، ولا سيادة رأسمالية ، وإنما كان ثمة بيوت كبيرة ، وعصبيات عائلية ، تحتكم على مساحات كبيرة من الاراضى ، بحكم الزمن والتوازن ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ونظام المجتمع المصرى منذ عصور ، وكان يمكن أن تعالج هذه الحالة ، بتحديد الملكيات الكبيرة على مستوى معقول ، وليس بروح الانتقام . وليس من العدالة الاجتماعية فى شىء ، أن يحصل كثير من العمال فى ظل النظام الحالى ، فى مختلف منشآت القطاع العام المؤممة باسم وظائف المديرين لكذا وكذا ، على مرتبات تفوق مرتبات رؤساء محاسن الاستئناف العليا ، ورؤساء سائر المحاكم الابتدائية وأساتذة الجامعات ذوى الكراسى ، وأن يحصل صفار العمال الذين يقومون بأعمال تافهة مثل النظافة وغيرها ، على أجور تفوق مرتبات خريجي الجامعات فى الدرجات الخامسة والرابعة . ليس هذا من العدالة الاجتماعية أو تكافؤ الفرص فى شىء ، وإنما هو تجاوز مقصود ، وإخلال بنظام المجتمع الامثل ، ومثل للكفايات المحترمة ، والقوى المعنوية ، وهدم لمجتمع الاخلاق والفضائل . وسوف نعود الى مناقشة ذلك فى مكان آخر .

هذا ولا ريب أن الضربة التى انزلها النظام الحاضر بالقطاع الخاص ، وتأميم سائر منشآته ودوائر نشاطه مهما صغرت ، كانت تصرفا يتسم بالخطأ الفادح ، وقصر النظر ، إذ عدت معه سائر الهمم الخاصة والقرائح المنتجة . واليوم تحاول الدولة عبثا أن تعيد اليه روح النشاط القديم ، بعد أن عدت لديه الثقة والطمأنينة ، وخصوصا لما تصر عليه الحكومة من التسوية فى تطبيق المزايا المرهقة فى الاجور والاجازات والتأمينات وغيرها على عمال القطاع الخاص ، وقد كانت أهم مزايا القطاع الخاص ، هو حرية التعامل والتفاهم بين صاحب العمل

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وعماله ، وكان هذا التفاهم الحر هو دعامة الانتاج الناجح ،
الذى يختفى اليوم تحت وطأة التدخل الحكومى . ومن
ثم فأننا لا نلاحظ ميلا من رءوس الاموال الخاصة الى
توظيف نشاطها من جديد فى المشاريع الخاصة ، حتى
لا تعاني ما يعانيه القطاع العام من الفوضى والانهب المادى
والمعنوى .

القاهرة تحتضر وشعبها يتردى فى الحضيض

كنت كلما عدت من رحلة من رحلاتى الدراسية ، بعد
أشهر من التجوال والدرس ، الى مدينة القاهرة ،
يطالبنى ما تجوزه المدينة العظيمة من التغير ، والعفاء ،
الذى يخيم تدريجيا على معاهدها ومرافقها ، وصور
الحياة بها . بيد انى لم أكن أتصور ، انها سوف تتردى
مع مرور الوقت الى هذا الحضيض الذى تتردى فيه
اليوم ، بعد ربع قرن من عهد الثورة .

نحن الآن فى سنة ١٩٧٩ ، وقد طرأ على مدينة
القاهرة خلال هذا الربع من القرن الذى عشناه فى ظل
هذا العهد الجديد ، انقلاب عظيم ، استحالته فيه من
مدينة مشرقة ، الى مدينة قائمة بأثمة ، أقل ما توصف
به انها مدينة تحتضر ، وقد خفقت أعلام الخراب فى
سائر جنباتها ومرافقها ، وساد البؤس والوجوم على
أهلها ، وأضحت أحيائها وطرقها ومنتدياتها ومتاجرها ،
تقدم الينا مناظر رثة تنطوى على مأساة من أفظع ما شهدته
فى تاريخها الطويل الحافل .

وهذا التحول الالىم المحزن ، الذى طرأ على مدينة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

القاهرة ، يذكرنا نحن الذين عشنا في هذه القاهرة العظيمة ، قبل العهد الحاضر ، بما كانت عليه عاصمة مصر ، وعاصمة الاسلام والعروبة الكبرى قبل سنة ١٩٥٢ . كانت القاهرة يومئذ مدينة فخمة ، تتخللها الشوارع والطرق العامرة ، النظيفة اللامعة ، وتفص بالمنتديات الانيقة ، من مقاهى وفنادق ومطاعم ، ومن المتاجر الضخمة الفنية ، التي تزدهر واجهاتها المليئة بمختلف السلع والازياء المختارة . ولم يك ثمة شك في أنه كان للنشاط الاجنبى ، ورأس المال الاجنبى ، دوره فى تجميل القاهرة ، وتزويدها بكثير من المنتديات والمنشآت الاجتماعية الفاخرة ، من المطاعم والمقاهى والفنادق والنوادي . ولكن حدث فى بداية هذا العهد الجديد ، عهد « الثورة » ، ان وقعت مطاردة الاجانب ، ورأس المال الاجنبى ، بعنف وبصفة عامة ، وبلا تمييز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، ففضى على كثير من المنشآت الاجتماعية والاقتصادية النسافة ، ولم نستطع نحن ان نقوم بانشاء نظائرها ، لاننا لم تكن قد مارسناها ، بل ولم نمارس حتى اليوم صناعة هذه المنشآت وادارتها . ويكفى أنك اليوم لا تجد فى القاهرة كلها ، مقهى او مطعما أنيقا ، تستطيع ان تجتمع فيه مع ضيف او صديق سوى منتديات الفنادق الكبرى الملحقة بها ، وهى باهظة التكاليف . ولا يوجد بالقاهرة اليوم سوى المقاهى والمطاعم الشعبية . والمتاجر السوقية الرديئة الفثة ، ومما يدعو الى السخرية والرتاء ان سائر الملابس القطنية المصرية الفاخرة ، تحجب عن البيع للمصريين ، وتصدر كلها الى الخارج استجلابا للعملة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الصعبة ، ويضن بها على المصريين مثل كثير من الفواكه والاصناف الفساخرة ، التي أصبحت اليوم عزيزة على المصريين .

بيد أنه يجب احقاقا للحق ، أن نقول ان مطاردة عهد الثورة لاوضاع الاجانب لم يكن كله شرا . أجل كانت ثمة نواح مثمرة عديدة من النشاط الاجنبى ، ولا سيما فى الميدان الاقتصادى ، طوردت وقضى عليها باسم التأميم أو غيره ، دون درس ولا تمييز ، وما زلنا حتى اليوم نلمس الاضرار التى أصابت الاقتصاد المصرى بسبب هذه السياسة التى قضت على سائر نواحى التمساون المثمرة والشريفة من النشاط الاجنبى ، الذى نسمى اليوم الى اجتدابه بكل الوسائل ، دون استجابته الينا . بيد أنه كانت ثمة نواح أخرى من النشاط الاجنبى لا يمكن السكوت عليها ، ولا سيما من بعض العناصر ، التى استفلت سياسة التسليح المصرية أشنع استفلال . وان أحوال هذا الفريق من الاجانب ومجتمعهم قبل « الثورة » ، ليستحق كلمة من رجل وقف على هذه الاحوال فى القاهرة والاقاليم قبل عهد الثورة يربى على نصف مليون . وكانت الجالية اليونانية هى أكبر الجاليات الاجنبية ، وأكثرها انتشارا فى طول البلاد وعرضها ، وكان أولئك « الاروام » فضلا عن انتشارهم فى القاهرة والاسكندرية ، يتقلدون بالاحص فى الاقاليم ، وقد عشت ، حسبما ذكرت فيما تقدم ، أوقاتا فى ميت عمر والمنصورة ، وهما من أزهر الحواضر ، التى كان يحتشد فيها الاروام ، سواء فى الحواضر أو فى القرى . وقد كانت معظم القرى يحتلها دائما محل

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

« بقالة » يملكه رومي ، ويعرف لدى أهل القرية « بالخمارة » لأنه كان دائماً يحتوى على المشروبات الروحية الرخيصة ، التي يدمنها بعض السفلة من الأهالي . وكانوا فى مراكز المديرية - مديرية الدقهلية - مثل ميت غمر وأجا والسنبلاوين - يحتكرون انشاء معظم المقاهى ، والمطاعم والفنادق والبقالات ، وبعض المهن والحرف ، هذا عدا بندر المنصورة ، التي كانت لهم فيها جالية كبيرة مزدهرة ، وكانوا يزاولون مهنة الطب ، فى وقت كانت فيه معظم المراكز خالية من الاطباء المصريين . وأنا أتحدث هنا من الناحية الزمنية عن العشرينيات . وقد كانت بميت غمر التي كنت أزاول فيها مهنتى - المحاماة - فى بداية حياتى العملية ، جالية رومية قوية ، تحتل نواحي الحركة التجارية من مختلف المتاجر ، ولا سيما المقاهى والمطاعم والفنادق . وكان معظم سمسرة القطن فى معظم أنحاء البنادر والمراكز والقرى من اليونانيين وكان كثير من هؤلاء يشغلون بالاقراض بالربا الفاحش ، ويملك الكثير منهم أملاكاً عقارية كبيرة من العمارات والمنازل والضياع . وكان من النادر أن تخلو قرية من وجود متجر رومي ، أو رومي محترف أو رومية تشتغل بالحياكة ، وكانوا على العموم يؤلفون وحدة استعمارية قوية فى الريف المصرى ، اذ كان معظم البنادر والمراكز ، يحتل فيها الأروام مثل هذه المكانة فى الأعمال التجارية والمهنية .

وأما فى القاهرة فقد كان نشاط الأروام يشغل الكثير من جوانب الحركة التجارية والمهنية ، وبالأخص جوانب الحركة الاجتماعية من انشاء المقاهى والبارات والمطاعم

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

والفنادق ومحال الحلوى ، ويملكون كثيرا من العمارات الكبيرة ومختلف المنشآت العقارية . هذا الى احتكار تجارة البقالة العالية في مختلف أنحاء العاصمة والاشتغال بكثير من المهن والحرف ، كالطب والمحاماة ، ومحال التريزية ، والمحال الكهربائية والميكانيكية ، وغير ذلك مما لا يقع تحت حصر . وقد استمر هذا النشاط الذي كان يزاوله الاروام بمختلف أنحاء القطر المصرى زمنا طويلا ، وكان من ازهر الانشطة الاجنبية في البلاد . بيد انه لم يكن أرقاها ولا أنظفها ، وقد كان ممعنا في الاستغلال ، وتخير مختلف وسائل الكسب ، ومنها وسائل كثيرة غير محترمة ولا شريفة ، ومع ذلك فقد كان ثمة كثير من أبواب هذا النشاط التجارية والاجتماعية المشكورة ، والتي كانت تساعد في تزيين العاصمة ، وتزويدها بمختلف المنشآت والمحال العمرانية ، ولا سيما المقاهى والمطاعم والفنادق والبقالات ، ومحال الحلوى الراقية . وقد استمرت هذه الحالة حتى بداية عهد الثورة . ثم كانت حركة مطاردة الاجانب ، والقضاء على مختلف انشطتهم ومشاريعهم الاستغلالية . وانه لمن الحق أن نقول ان هذه الحركة كانت ضرورية للقضاء على كثير من أبواب هذا الاستعمار الاجنبى لمرافق البلاد ، ولكن من الحق أيضا ان نقول انها قضت كذلك على أبواب من هذا النشاط وجهوده الاجتماعية الطيبة ، التي كانت تزدان بها العاصمة ، وتساعد في تنظيم حياتها الاجتماعية ، وفي ترويح الحركة السياحية باقامة المنشآت والمنتديات الجذابة ، ومن ثم فقد قضت مطاردة الاجانب ، على كثير من الخير والشر معا ، ولم تقع في ذلك دراسة

ولا تمييز بين ما يجب ان يكون وما لا يكون .



هذا ، وبالرغم انه لم تكن بالقاهرة يومئذ من وسائل
المواصلات ، سوى الترام والتاكسي ، والعربة الحنتور ،
وقليل من خطوط الاوتوبيس ، فقد كان التجوال بها سهلا
مريحا ، ولم تكن المين تقع على مثل تلك المناظر المزرية ،
التي تبدو اليوم في كل جانب من جنباتها . أجل لم تكن
القاهرة يومئذ قد ازدحمت بهذه الملايين العديدة ، التي
تشقى بها اليوم ، ولم يكن سكانها يزيدون على مليونين أو
مليونين ونصف . ولكن المسئولية ، في هذه الزيادة
المروعة في سكان المدينة العظيمة ، لا ترجع فقط الى
النمو السكاني المعتاد ، ولكنها ترجع بالخاص الى سوء
التخطيط ، والى انشاء المصانع المرتجلة في مشارفها ،
وفى داخلها ، والى الهجرة الريفية الزاخرة ، التي ترك
خبلها على الفارب ، حتى تجاوزت الملايين من أهل الوجه
البحري والصحيد ، ولم توضع لها حتى اليوم أية قواعد
أو حدود . ثم ان هذه الفوضى الشاملة في حياة المدينة
العظيمة ، ترجع من جهة أخرى الى العجز الشائن في
تنظيم مرافقها ، وتزويدها بالخدمات العامة ، على
مستوى يناسب هذه الزيادة الضخمة في عدد سكانها .
وانه لمن المؤلم ان نقول ان ما نراه اليوم في عاصمة الاسلام
والعروبة الكبرى من ضروب الخنراب في شوارعها
وطرقاتها وافاريزها ، وما نتمش فيه من الحجارة والأتربة
في أهم وأرقى شوارعها . وما نراه في كل جنباتها من
المناظر المهينة المزرية في حالة المواصلات والتموين ،
واحتشاد الصفوف الطويلة المحتاجة الجائعة على أبواب

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الجمعيات التعاونية ، وعلى المخازن والأسواق ، لا يرى الآن في أي بلد من بلدان العالم المتمدن ، وأن ما يشعر به الآن كل مصري من مرير الحاجة ، والفقر ، والعجز عن استيفاء مطالب العيش الضرورية ، ومشقات الحياة المجردة ، مما لم يقع ولم يسمع به منذ أحقاب طويلة .

أنف الى ذلك أزمة الاسكان الفظيعة ، التي ترتبت قبل كل شيء على سلسلة عشواء من القوانين التي اتخذت ضد ملك العقارات ، وضد تقدير الايجارات العادلة للأبنية المنشأة ، ومحااربة رأس المال المشروع ، وتبشيط الهمم في توظيف الاموال في انشاء العقارات والمساكن . كل ذلك ادى الى تفاقم ضروب البؤس والخراب بين سكان المدينة العظيمة . يزداد على ذلك كله ما وقع من تفاقم الفسلاء اللى لم تحاول السلطات ان تتخذ في شأنه أية اجراءات ناجمة .

وقد سبق أن اشرنا من قبل الى مسئولية النظام ، في وقوع هذا الانفجار السكانى المروع الذى تبث منه البلاد ، وتثن منه القاهرة الكبرى بنوع خاص ، اذ يبلغ سكانها اليوم نحو عشرة ملايين من الالفى ، وهو مستوى لا تبالفه فى العالم سوى نحو عشر مدن . ولقد أوضحنا أن ما اتجه اليه النظام من نزع املاك الافندية وصفغار الملاك الزراعيين باسم الاصلاح الزراعى ، وتسليم اطيانهم بطريق التأجير المؤبد الى الفسلاحين ، ونزع ملكيتهم الحقيقية بذلك وجعلهم ملاك رقبة فقط ، وتقاضيهم الايجارات التافهة مما لا يبلغ خمس ما تنتجه اراضيتهم بينما يتقاضى الفلاح الزراع الباقي ، وما اتجه اليه النظام الحاضر كذلك من الاغداق فى الاجور على عمال منشآت

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

القطاع العام بصورة غير معقولة ، وما ترتب على ذلك من اتجاه كثير من جهلاء الفلاحين والعمال الى تعدد الزوجات - أشرنا الى انه كان لذلك أسوأ الاثر فى وقوع الانفجار السكانى ، الذى يكاد يقضى على أية جهود تبذل لتحقيق الإصلاح او الرخاء .

ولقد احتفلنا فى سنة ١٩٦٩ بعيد القاهرة الالفى وأشدنا ، وأشاد زملاؤنا العلماء الأجانب المدعويين الى هذا الاحتفال الدولى العظيم - أشدنا وأشادوا بماضى القاهرة الزاهر ، وتاريخها وكنوزها الاثرية العظيمة ، ولم تكن القاهرة قد انحدرت الى هذا المنحدر المؤسى ، الذى انحدرت اليه اليوم ، وكنا نؤمل أن يكون هذا الاحتفال التاريخى العظيم نذير انتفاضة من ذوى السلطان ، وبداية جهود من الإصلاح وتدارك المدينة المتحضرة ، وبها بقية من الارماق ، ولكن الذى حدث ، مع شديد الاسف ، هو أن تيار العفاء والخراب ، ما يزال يزحف على المدينة الكبرى ، أمام نظر السلطات وتحت سمعها ، والله وحده يعلم الى متى ينتهى هذا الانهيار المادى والمعنوى ، الذى تعانيه المدينة التعمسة ويعانيه شعبها البائس المحطم .



هذا ، واذا شئت اشارة الى حالة المعيشة ومستوى الاسعار ، فى هذه القاهرة العامرة المشرقة ، القاهرة ما قبل العهد الحالى بقليل ، فانك تسمع ما يدهشك ويذهلك ، لقد كان ثمة رخاء حقيقى بالرغم من كل الازمات الاقتصادية العادية . وكانت المكاسب والمرتبات والاجور الصغيرة تكفى للعيش المرضى الممتع . وأولاً فقد كانت اجور المساكن المحترمة تختلف من ثلاثة الى عشرة جنيهات

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

(لشقق من ثلاث الى خمس غرف) . وكانت المساكن الخالية توجد في كل حي ، وعلى كل مستوى . ولافئات الايجار تراها معلقة في كل شارع وكل زقاق . وكانت تكفى جولة قصيرة لكى تعثر بالمسكن المطلوب والايجار الموافق ، ولم يكن يسمع عندئذ عن خلو أو غيره من فضائح الاسكان ومآسيه في العصر الذى نعيش فيه اليوم . وكانت نفقات المعيشة في غاية الاعتدال . فاللحم الذى نشتري منه الكيلو اليوم بجنيهين (١) كان الرطل (نحو نصف الكيلو) الضأن منه يساوى ١٢ قرشا ، والعجالي ثمانية قروش (وهذا حتى سنة ١٩٥٢) . وكان زوج الدجاج البدارى الحى لا يتجاوز خمسة عشر قرشا ، وزوج الحمام ثلاثة الى خمسة قروش ، والبيضة بنصف قرش والاقه (نحو كيلو وربع) من السمك تتراوح بين سبعة وخمسة عشر قرشا ، والزبد بخمسة قروش الرطل ، واللبن بستة مليمات الرطل . وكانت الفواكه في متناول كل انسان ، العنب والتين ، الاقة بثلاثة قروش ، والبلح الرملى الاصلى بخمسة قروش ، والزغلول بخمسة أو ستة قروش والموز بستة قروش ، والبرتقال كل خمسة الى ثمانية بقرش حسب الحجم ، والبطيخ الصلحاوى من أربعة الى عشرة قروش حسب الحجم . وكانت الخضروات تباع بأسعار مدهشة ، لا تتجاوز قرشا لرطل أو عدد من الارطال ، الطماطم ، الخيار ، الفول الاخضر . . . الخ ، وثلاثة الى أربعة قروش لاقه من الاصناف الممتازة (البطاطس ، اللوبيا ، البسلة ، والبقول ، لا تتجاوز نصف قرش .

(١) كان هذا سعر اللحم سنة ١٩٧٩ .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الخص الجرجير وأمثالها . وقد كانت هذه الاسعار هي الغالبة في الاربعينيات ، وفي أيام الحرب العالمية الثانية ، حتى قبيل عهد « الثورة » بقليل . فأين هذا الرخاء المدهش ، المشبع للبطون ، الدائبة قطوفه من مقدرة كل مواطن ، مهما كان كسبه ، مما انتهينا اليه اليوم ، بعد ربع قرن من عهد « الثورة » ، مما لا يطيقه إلا أصحاب الدخول العالية ، ومما تثن منه أصحاب الدخول المتوسطة والدنيا ، ومما لم تحاول ، أو تنجح السلطات المعنية ، أن تتخذ في شأنه أى اجراء ناجح ، يخفف من ضفطه وويلاته المرهقة . ثم الى أين ينتهى بنا هذا التيار المروع الجارف ؟ اللهم انا نلتجىء الى غوثك وواسع رحمتك . فارحمنا يارب العالمين .

الاصلاح الزراعى وتحديد الملكية

كان في مقدمة أعمال الحكومة الجديدة بعد يوليو ١٩٥٢ ، اصدار قانونين ، أساسيين ، لعبا أكبر دور في تغيير الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، هما قانون تحديد الملكية الزراعية ، وقانون اصلاح الزراعى . فأما قانون تحديد الملكية ، بعد أقصى للفرد الواحد ، قدره مائتا فدان ، فلم يثر يومئذ كبير صدى ، إلا في بعض الدوائر القليلة التى تأثرت بتطبيقه بطريق مباشر . والواقع أن فكرة تحديد الملكية الزراعية ، كانت قائمة وذائعة بالفعل قبل سنة ١٩٥٢ ، وقد نوقشت غير مرة في برلمانات هذا الوقت ، وعرضت في شأنها بعض المشاريع ، ولكن لم يتح لها حظ من التنفيذ . بل لقد طالب كبار الملاك أنفسهم في أوائل عهد

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

« الثورة » بتحديد الملكية في مذكرة رسمية كتبوها بذلك ، ورفعوها الى ممثل السلطة الثورية يومئذ اللواء محمد نجيب ، والى رئيس الوزارة على ماهر باشا ، وطالبوا فيها بتحديد الملكيات الكبيرة بألف فدان ، وبينوا أن التحديد الضيق يقضى على الزراعات الكبيرة ويؤدى الى خفض الانتاج .

بيد أن هذا القانون الاول لتحديد الملكية ، عدل فيما بعد ذلك ببضعة أعوام ، وكان موضع أخذ ورد ، وموضع خلافات ومتناقضات متوالية ، وانتهى الامر بأن انقصر حد الملكية من مائتى فدان الى مائة فدان للفرد الواحد ، سواء من البالغين أو القصر المشمولين بالوصاية فى العائلة الواحدة . وقد أحدث هذا التغيير مرحلة جديدة من الاضطرابات فى اوضاع الملكية ، وأوضاع العائلات المالكة . وكان كارثة بالنسبة لكثير من الافراد والعائلات . علما بأن هذه المرحلة الجديدة من مصادرة الاملاك الزراعية لتحديد الملكية ، كانت تجرى دون تعويض للملاك ، حسبها وقع فى البداية من اعطاء سندات على الخزينة مقابلا لآاملاك المصادرة .

أجل ، كانت ثمة تجمعات كبيرة من الاراضى ، لدى بعض العائلات الكبيرة ، وكانت ثمة عائلات تملك زمادات قرى بأسرها ، وكان من المعقول أن يوضع حد لهذا التجمع وهذا الاحتكار . فجاء قانون تحديد الملكية ، ليقضى على هذا الاحتكار وليقضى فى نفس الوقت على العائلات والعصبيات الكبيرة التالدة . لكن تبين فيما بعد ، أنه قد ترتبت على تطبيق القانون على هذا النحو أيضا ، آثار مخرية لم تكن فى حسابان المشرعين ، فقد

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

عجز واضعو اليد الجدد عن فلاح هذه الأراضي الخصبة ،
الواسعة ، وقصرت مواردهم وجهودهم عن تعهدها
وخدمتها ، ولحق بها الجذب والخراب . أما تلك التفاتيش
والمساحات الواسعة العديدة ، التي كانت تديرها السلطات
المختصة ، والتي كانت قبل نزع ملكيتها جنات خضراء
منتجة ، فقد عرضت لنهب المختلسين من المكلفين
بالإشراف عليها ، وأجدبت ، وأضحت عاجزة عن الوفاء
بنفقاتها . وهكذا أجدبت وخربت أراضي ومساحات
شاسعة من الزرعة الزراعية المخصصة المنتجة ، وكان ذلك
نتيجة مباشرة لتحديد الملكية على النحو الفاشم الذي
تم تطبيقه .

أما قانون الإصلاح الزراعي ، فقد كان المفروض أنه
وضع لخدمة الفلاح الذي يزرع الأرض ، ومعاونته
وحمايته من تعسف بعض الملاك الذين كانوا يتفنون في
استغلاله وهضم حقوقه ، وقد جرت الحكومة في البداية
على تقرير تجديد الإيجار لواضعي اليد كل سنة ، ثم
ثلاث سنوات ، ثم جعلت وضع يد المستأجر بعد ذلك
اجباريا ومستمرًا مؤبداً ، وحيل بين المالك وبين استرداد
أرضه مهما كانت الاتفاقات المعقودة ، وبعبارة أخرى أصبح
الأمر الواقع أن أرض المالك ، قد نزعته منه بصورة
نهائية ، وأضحى مالكا للرقبة ، لا يحق له سوى تقاضى
الإيجار الذى حدده القانون بسبعة أمثال ضريبة الاطيان
المؤجرة ، وذلك وفقا لتقدير سنة ١٩٤٩ . وقد كانت هذه
ضريبة لكثير من العائلات المالكة التى كانت قبل توجس
أرضها بأضعاف هذه القيمة ، لأن ضريبة الاطيان لم تكن
لتعبر مطلقا عن حقيقة معدن الأرض وقيمتها الاجارية .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

والانكى من ذلك انه لما تجدد تقدير ضريبة الاطيان فى سنة ١٩٥٩ ، وزيد منسوب الضريبة ، وامل الملاك ان يتقاضوا ايجارا متحسنا نوعا ، أعلن ان فلم قضايا الاصلاح الزراعى أفتى بأن منسوب الايجار يجب ان يستمر وفقا للضريبة القديمة ، والمستأجر يدفع فقط للمالك فرق الضريبة ، وهو مما يخالف القانون نفسه . ولكن الحكومة كانت تجرى على محاباة الفلاح واضع اليد بكل الوسائل ، وكانت تسمح له بالاقتراض على محصول الاطيان دون اذن المالك ، وكان الفلاح بهذه الطريقة يجنى ايرادا من الفدان الواحد ، أربعة أو خمسة أمثال ما يدفعه من الايجار . وكانت الحكومة ، شعورا من الدوائر بهذا الفبن الفظيع الواقع على المالك ، قد أصدرت بعد الاصلاح ببضعة أعوام قانون التجنيب الذى يبيع للمالك ان يسترد نصف الزمام المؤجر من تحت يد المستأجر ، ويترك له النصف الثانى . ولكن ما كاد يمضى على صدوره ثلاثة أشهر ، وقبل ان يفيق الملاك الى تنظيم مصالحهم ، حتى سحبه الحكومة بحجة انه استعمال للضغط على المستأجرين . وهكذا اتقن المستأجر ان الحكومة فى صفه على طول الخط ، وأنه أصبح هو المالك الحقيقى للارض ، وما عليه الا ان يودى الايجار التافه الذى تحدده فئة الضريبة ، أجل صدر منذ بضعة أعوام قانون بزيادة ايجار الفدان الى عشرة أمثال الضريبة . ولكنها كانت زيادة تافهة لا تجبر الفبن الكبير الواقع على ملاك الاراضى ، ولم يكن ذلك الا علاجا مسكنا .

ماذا كانت النتيجة ؟ لقد ترتب على هذه الاوضاع ، وعلى نزع ملكية الاطيان من مالكيها ، ووضعها بطريق التأيد تحت يد المستأجر ، أن تضاعفت مكاسب الزارع

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

من الارض ، وأصبح قادرا على أن يشتري أطيانا جديدة .
بل وأكثر من ذلك ، أصبح يساوم المالك الذي يرغب في
استرداد أرضه أو جزء منها ، مساومة الشريك المالك ،
ويطالب بخلو يبلغ نحو نصف ثمن الارض المرغوب
استردادها ، وأصبح اليوم هذا السعر حقيقة قائمة
راسخة ، يؤديه كل مالك ، يريد لضرورة ما ان يسترد
أرضه أو جزءا منها . وقد اضطر كاتب هذه السطور نفسه
أن يخضع لهذا الوضع المجحف ، وأن يدفع هذا الخلو
الباهظ حينما باع ضيعته الصغيرة ، وأصر المشتري على
استلام الاطيان خالية من المستأجرين ليزرعها بنفسه .



ماذا كان تأثير هذا في أوضاع القرية وتشكيلها
الاجتماعي ؟ لقد أصاب الخلل هيكل القرية الاجتماعي ،
فخيم الفقر والعوز على كثير من العائلات التي بليت بتأجير
أراضيها قسرا ، وفقا لقانون « الاصلاح » ، وكانت قبل
تعتبر من العائلات المستورة ، وبرزت عائلات أخرى من
الفلاحين ، الذين أثروا على حساب الملاك القدامى ،
وتسرب البفض الى نفوس الطائفتين ، الطائفة القديمة
ذات الحسب القديم ، والطائفة المحدثه العارية عن
الحسب ، والمستأثرة بوضع اليد ، واستغلال الارض ،
ونهب المكاسب . فالبفض يسود اليوم بين الطائفتين في
القرية ، وقد زالت آثار المودة القديمة بين الطرفين .
ولا يكاد أحد من الملاك القدامى الذين سلبت أراضيهم ،
يفتح بابه ، لاحد من الفلاحين المتكسبين ، الا من دعت
الحاجة الى خدمة أو معونة . ولقد كانت القرية من قبل
نموذجا جميلا للتآخي والمودة ، لا فرق بين كبير أو صغير ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

أو غنى أو فقير . وكانت دور (دواوير) الخير تنشىء بكثير من القرى على يد الميسورين من أبنائها ، وتفتح لعابر السبيل وكل معوز تطأ قدمه أرض القرية . وقد شهدت الكثير من ذلك فى شبابى ، ولا سيما بقريتى التى ولدت بها (بشلا) ، فقد كان بها دوار عظيم للخيرات أنشأه آل وحش ، كبراء أعيان القرية ، وأقفوا عليه قدرا كبيرا من الاطيان ، وكان يقصده أبناء القرية ، وكل قادم اليها ، ليجد الطعام ، والاكرام والمأوى . وشهدت مثل ذلك فى قرى كثيرة أخرى . أما اليوم وقد جنى قانون تحديد الملكية وقرينه قانون الاصلاح الزراعى ، على مقسدة الخيرين ، فقد اختفت معظم آثار الخير ، وأغلقت دوره ، التى كانت تعزز بها الأسر الكبيرة الميسورة ، وغاضت آثار التعاطف والتعاون والجود ، التى كانت تسودها من قبل .

هذا ، وفوق ذلك كله ، فانه لا يخفى حسبما أشرنا اليه من قبل ، ما كان لذلك الاغداق المتعمد على الفلاحين ، واثرائهم بما نهب لجانبهم من أموال وأراضى الافندية وكبار الملاك ، باسم الاصلاح الزراعى لا يخفى ما كان لذلك من اثر بارز فى عملية الانفجار السكانى . فنحن نعرف انه من العوايد الذائعة بين كثير من طبقات الفلاحين ، انه متى توفرت لديه المكاسب ، وان أول مايفكر فيه الزواج من ثانية وثالثة . . الخ . وقد زادت نسبة الزيجات زيادة هائلة ، بين كثير من هذه الطبقات ، التى أثرت حديثا ، فتزوجوا مشنى وثلاث ورباع ، وكثر النسل بينهم كثرة هائلة ، وكان لذلك أثره الواضح فى ازدياد السكان ، والانفجار السكانى المدمر .

الوقت الضائع

وبهذه المناسبة ، فلا بأس من أن أروي قصة وقتي الضائع ، في حوزة الاملاك الزراعية والاشراف عليها . ففي سنة ١٩٤٠ ، حينما كانت اثمان الاراضي الزراعية رخيصة مشجعة اشتريت من بنك الاراضي بالاسكندرية ، عزبة صغيرة مساحتها أربعة وثلاثون فدانا ، وتقع بزمام شبارة الميمونة ، مركز ميت غمر ، بجوار قرية ابي نجاح التي ولدت بها أمي . وفرحت يومئذ باقتناء هذه الارض ، اذ كانت تساورني أمنية قديمة في أن أعوض ما فقدته والداي من أرضهما الزراعية المملوكة لهما بسبب ضغط الظروف الاقتصادية ، وللانفاق على تعليمي . وكنت أحب الأشجار ، ولا سيما أشجار التوت المورقة ، وأشجار الجازورينا المستقيمة الباسقة . وكانت الحرب العالمية الثانية تضطرم يومئذ ، وقد وضعت الحكومة نظما عديدة لتوزيع الاسمدة والبذور على الملاك ، وتوريد الملاك للقمح والقطن ومحاصيل أخرى ، ولم أكن يومئذ قد بدأت بالاضطلاع بدراساتي الاندلسية العميقة ، وكان لدى فسحة من الوقت . فكتبت أسافر كل أسبوع الى عزبتي الجديدة ، وأقضي بها يومي الخميس والجمعة ، وأصطحب بعض اولادي معي ، وكانوا يومئذ صفازا اكبرهم ولدي الدكتور محمود ، وقد كان يومئذ في الثامنة من عمره . وشفقت يومئذ برعاية مصالح الارض ، وكان الايجار يومئذ زهيدا ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

لا يتجاوز اثني عشر جنيه للفدان ، ولكنه كان مجزيا
لرخص الاسعار الى حدود مدهشة . فكننا نشترى
رطل الزبد بثلاثة قروش ، والبيض كل ثلاثة بقرش ،
والعسل النحل بخمسة قروش للرطل ، واللحم كذلك
بخمسة أو ستة قروش للرطل ، وهلم جرا . وكنا كل
أسبوع نحمل معنا من خيرات القرية ما تيسر الى منزلنا
بالقاهرة . وشفقت مدى حين بعمليات اصلاح الارض ،
وزراعة أشجار الجازورينا بها ، وخدمة المستأجرين ،
ومساعدتهم على تحقيق مطالبهم وحل مشاكلهم ،
وتزويدهم بالسماد بأسعاره الرسمية وغير ذلك ، ثم
صرت بالتدريج أنفق أوقاتا أوسع بالعزبة ، وأقضى بها
في بعض الاحيان الاجازات الكبيرة . كل ذلك وأنا لا
أشعر بقيمة هذا الوقت الضائع في هذه التفاهات ،
وما كنت أتكبد من المتاعب في زيارتها وادارتها ، وما كنت
أقاسيه من لؤم المكلفين بالاشراف عليها وحراستها ومن
خبثهم وجشعهم وخياناتهم ، وهي صفات شعرت أنها
من خصائص الفلاح الصغير ، كما شعرت أن هذا الفلاح
الصغير ، لا يكاد يشعر قط بأى شكر للصنيعة ، أو
تقدير للجميل . فعندئذ قررت بيع العزبة ، وبعثتها
بالفعل . ولكن فكرت في نفس الوقت ، في أن أشتري
عزبة أخرى تكون أقرب بالقاهرة ، ولا تكلفني مشقات
السفر الطويل . ووقعت بعد طول البحث الى شراء عزبة
صغيرة جميلة بزمام بلدة قها ، تقع تجاه محطة السكة
الحديدية ، وبها منزل جميل أنيق به الماء والكهرباء ،
وحديقة موالح . ومساحتها الكلية ٢٣ فداناً . منها
ثلاثة أفدنة مستقلة بها المنزل وحديقة صغيرة متنوعة .
وكان ذلك في سنة ١٩٤٨ . واستمرت هذه العزبة في

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

حزبى زهاء عشرين عاما ، ولعبت دورا كبيرا فى الترويج
من عائلتى وأولادى ، وقد كبروا ، وهم محمود وسعاد
وحسين ، وكانوا يقضون بها مع والديهم أياما كثيرة ،
ويدعون أصدقاءهم وزملاءهم لقضاء بعض الوقت معهم
فى التريض أو المذاكرة .

وكانت حديقة المواجه قديمة ، وقد شاخت وجف
معظم أشجارها ، ولم تكن تحمل الينا إيرادا مجزيا ،
فقررت قلعها ، وقمت بتأجير أرضها مع باقى أرض
العزبة ، وكان الإيجار مجزيا يومئذ ، وقد يصل أحيانا
الى نحو الأربعين جنيها للفدان ثم صدر قانون الإصلاح
الزراعى ، وأخذ ضغطه يشتد على الملاك تباعا ، وكانت
الأرض مؤجرة عند صدوره ، وكنت أقضى معظم الوقت
فى الخارج فى دراستى الاندلسية . واستمر الأمر على
ذلك ، وأيراد العزبة يتناقص تباعا ، ومتاعبها تزيد ،
والنهب الذى يسببه الإصلاح الزراعى على المستأجرين
من بخس الإيجار ، وتأيد وضع اليد ، يزيد فى جشعهم ،
وسوء معاملتهم . ولم يكن إيجار الفدان وفقا للقانون
يزيد عن أربعة وعشرين جنيها ، يخصم منها المال
والدفاع . ثم كان هناك الخفير الوغد اللص ، الذى
يحميه وأمثاله قانون العمل ، وسرقاته المستمرة للأشجار
وفواكه الحديقة ، وسكناه مع زوجته وأولاده ، ثم
صهره زوج ابنته فى المباني الملحقة داخل الحديقة ، حتى
صارت كالمستعمرة لهم . وكنت أزور العزبة كل يوم
جمعة ثم لما توالى أسفارى الى الخارج ، كانت العزبة
ترك معظم الوقت للخفير اللص وأسرته . وتزورها
السيدة حرمى أو ولدى حسين فى فرص قلائل . ولم

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

بك ثمة حد لخيانة الخفير وسرقاته للأشجار وفروعها الكبيرة ، وقد كانت كثيرة داخل الحديقة ، وعلى طول الأطيان . ثم امتدت سرقاته الى عروش المباني ، وعروق الاسقف التي تضاعفت أثمانها ، وسرقاته المنظمة لاعواد البامبو الجميلة كل أسبوع ، وعندئذ اضطرت بعد ما قاسيته من ضغط قانون النهب الزراعي ، وأحكامه الفاشمة ، أن أفكر في بيع العزبة ، آسفا أشد الاسف على ما أضعته في شؤونها من نفيس الوقت ، وما قاسيته من المتاعب والخسائر . ولم يكن بيعها يومئذ سهلا ، لان الأرض كانت تحت يد المستأجرين . ولما جاء المشتري ، وأبدى رغبته في الشراء ، واشترط أن يستلم الأرض خالية حرة ، دون المستأجرين ، فاضطرت أن أدفع لهم مقابل الخلو ، نحو نصف الثمن عن كل فدان . وتكبدت في ذلك عدة آلاف من الجنيهات خسارة من أصل الثمن . وتقاضيت الثمن البخيس ، وقاسيت ما أقاسيه في اخراج الخفير اللص نزولا على شرط المشتري . وهكذا احتملت مظالم قانون النهب الزراعي كاملة شاملة . ولم يكن أسفى على خسارة المال ، بقدر ما كان على الوقت الضائع ، والظلم الفادح ، الذى أوقعه التشريع على صغار الملاك من طبقتي ، واعتبارهم من الاقطاعيين . وقد خرجت من هذه المحنة ، وفي قلبى من البغض للأرض وملكيته ، أضعاف ما كان يحبونى نحوها من المحبسة والسحر . والحمد لله على كل حال .

جيل الثورة

لا يمكن لمحدث عن عهد « الثورة » أن يففل الكلام من ذلك الجيل الذي نشأ في أحضان هذا العهد ، وعن ظروفه وأحواله ، فهو ذلك الجيل المتدهور الحائر ، الذي فقد الكثير من فضائل الاجيال السابقة ، ومن فضائل بلاده الماثورة ، ونشأ في ظلال دعوات وتعاليم ومبادئ وشعارات وعوائد لم تألفها الاجيال السابقة ، وكانت تعتبر الكثير منها خارجة عن نطاق المبادئ والخلال القومية السليمة ، انه ذلك الجيل الذي فتحت له ابواب التعليم حرة دون قيود ولا تكاليف عملا بمبدأ تكافؤ الفرص والمساواة المطلقة ، ذلك الجيل الخليط من مختلف البيئات والطوائف ، ومنهم أبناء وبنات الكناس والخفير والفسالة الى جانب أبناء وبنات البيوتات العريقة والطبقات الوسطى ذات الاصول العائلية والتقاليد والاخلاق المحترمة(١) هؤلاء جميعا يهرعون الى الجامعات والمعاهد المفتحة الابواب على مصارعها ، وترتب على ذلك ان أصبح التعليم سلعة رخيصة ، يحوزها الشباب في كل ضرب وفن دون اية كفايات محترمة أو صفات محمودة أو جهود جادة . وشجعت الدولة هذا الفزو بما جرت عليه من تعيين خريجي الجامعات والمعاهد

(١) هذه هي كلمات الاستاذ عنان نشرها حفاظا على اصل مذكراته وان كنا لا نقره على هذه الكلمات « كتاب الهلال » .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

ومختلف دور التعليم في وظائف الحكومة ، وبعثتهم
أكداً على مكدسة الى مختلف المصالح الحكومية دون مراعاة
لمطالب العمل ولا مصلحته ، حتى ان المئات والالاف منهم
لا يؤدون أى عمل في المصالح التي بعثوا اليها ، بل لا
يجدون بها مقعداً يجلسون عليه . وتنحصر علاقة هذا
الموظف الملقى به القاء في قبض المرتب الحكومي دون أداء
أية خدمات جادة ، حتى أصبحت دواوين الحكومة تعج
بهذا الغزو الوظيفي ، وتزيد أعباء الدولة باستمرار دون
الحصول على أية نتائج عملية من الجانب الاخر . هذا
من جانب الشباب المتعلم . وأما الشق الاخر من الشباب
فهو يملأ منشآت القطاع العام ، ولا يتسم بأى قدر
مشكور من الجد والاخلاص في العمل ، بل بالعكس يتسم
بالكسل وضالة الانتاج والتحرر من كل حماسة . ومن
الضمير اليقظ والشعور بالمسئولية ، أو اخلاص للعمل ،
ومن ثم كانت منشآت القطاع العام معظمها عبء على
ميزانية تلك المنشآت ، حتى ان معظمها يخرج دائماً
بخسائر ، ولا ينعم بأية أرباح سنوية . ويرجع قدر كبير
من المسئولية ، في ذلك الى قوانين العمل القائمة وما
تتسم به من المنح الفامرة للعمال وتحريرهم من كل
مسئولية ، وحمايتهم من الفصل الإداري مهما كانت
الاططاء ، والمسئولية ، ومنحهم من الحقوق والاجازات
ما لا يعهد به في أى قانون أوربي للعمال ، وقد وضعت
هذه القوانين المانحة المانعة في ظروف سياسية معينة ،
ولاغراض ترتبت على هذه الظروف ، ولم تجرأ بعد أية
حكومة على تغييرها ، وأية محاولة للإصلاح والتعديل
يجابها العمال بالعنف والهتاف « نحن نحافظ بالمكاسب
الاشتراكية » وما اليها .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

هذا المزيج من الأسباب المتعلم ذوى الاخلاط الاجتماعية المتباينة ، ومن عمالة القطاع العام غير الجادة وغير المنتجة ، الى جانب بقية الطوائف الاخرى من أصحاب مختلف المهن والحرف : هذا المزيج هو قوام الجيل الذى نشأ فى عهد « الثورة » ، وهو الجيل الذى يحمل على اكتافه مستقبل مصر ، وهو جيل لا يتصف مع شديد الأسف بالصفات المظلمة التى يحتاجها الحفاظ على مصائر البلاد ، وتغلب عليه السطحية فى معظم صفاته ، وتنقصه أولا المزايا الاخلاقية التى يجب أن تتصف بها الاجيال المنتجة العاملة ، وينقصه تحرى الاهداف القومية الجسادة ، وهو جيل حائر لا يتعرف طريقه ، قليل الكفايات ، معدوم النبوغ ، كل همه فى الحياة أن يعيش بأفضل ما يمكنه ، دون الالتفات الى اية اهداف عامة أو غايات قومية تقتضى التضحية ، أو التعاون القومى . ويمكن أن أقول ، وقد شاركت الحياة الى اليوم مع أجيال ثلاثة ، أن جيلنا الحاضر ، هو أضعف هذه الاجيال التى شهدتها ، وأقلها فى المزايا والفضائل .

وأما عن الحركة الفكرية ، فانه من المجمع عليه أنها تتسم لدى جيلنا الحاضر بمنتهى الضعف ، وانعدام النبوغ ، وما زالت بقايا الحركة الادبية ما قبل الثورة ، وقوامها « بقية قليلة من الشيوخ ، هى التى تشرف انتاج مصر الثقافى ، ولم يتميز جيل « الثورة » بأى نبوغ أو انتاج ثقافى ممتاز ، ولم تكشف الحركة الثقافية من جيل الشباب أى جديد تعزز به . هذا كله الى ما صاحب هذا الكساد الفكرى والادبى ، من انهيار مستوى التعليم

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الجامعي الى حدود يرثى لها ، حتى غدا تعليما مدرسيا
آليا ، لا يمتاز بسمات البحوث العلمية الجامعية الممتازة ،
ولا بالانتاج العلمي الرصين .

ولا شك ان المسؤولية الاولى في ذلك التدهور الفكري ،
ترجع الى « النظام » نفسه ، حيث لجأ الى سلطان
التوجيه ، وحاول اخضاع الحركة الفكرية والادبية لهذا
التوجيه بكل الوسائل ، ومنها انشاء الهيئات العلمية
والادبية تحت أسماء مختلفة ، وقوامها لجان العمل تحت
سلطان هذا التوجيه بشكل واضح ، فهي لسان النظام
القائم ، والمعربة عن رغباته وغاياته ، والمعتسفة عن
سقطاته ، وأخطائه . ونحن نعرف أن الحركات الفكرية
الادبية لا يمكن بطبيعتها أن تزدهر الا في الاجواء الحرة
الطيقة ، البعيدة عن كل احياء ومؤثر ، وانه لا يمكنها
مطلقا أن تتفتح وتزدهر في ظل الآفاق الموجهة الواقعة
تحت سلطان النظام القائم ، ايا كان هذا النظام .

المشاكل الصعبة

لقد نشأت خلال عهد « الثورة » طائفة من الازمات
والمشكلات الصعبة التي جعلت من حياة المواطن المصري
شقاء مستمرا ، وهي مشكلات لا تخف وطأتها ، بل تزداد
على مر الايام خطورة وتعقيدا . وقد طال أمد هذه
المشكلات دون أن تتعرض لها الحكومة بأية محاولات
جدية للعلاج أو الحل ، وتركتها تتفاقم سنة بعد أخرى
والشعب يتخبط في معركتها ، وقد يئس من العمل على
حلها . وأهم هذه المشكلات هي مشكلات الاسكان ،

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

والمواصلات ، والهجرة ، ثم الفلاء المتصاعد ، الى جانب طائفة أخرى من مشكلات أقل أهمية ، وقد تركت الحكومات المتعاقبة أمر هذه المشكلات تتفاقم وصراخ الشعب المكثور يتضاعف من حولها ، حتى بدأت أخيرا ، وبعد انتهاء الحرب الطويلة ، التي تخوضها مصر منذ أعوام ، قد بدأت الحكومة بعلاج أخطر هذه المشاكل وأكثرها حدة ومساسا بحياة الفرد ، ألا وهي مشكلة الإسكان . وقد كانت الحكومة تحاول يائسة أن تتعرض لها من أن لآخر باتخاذ بعض الاجراءات الثانوية كالعمل على توفير مواد البناء واعفاء الملاك من رسوم العوايد على المباني الجديدة لمدة معينة ، وتشجيع الحركات التعاونية وأمثال ذلك . ولكن هذه الاجراءات لم تجد شيئا في كسر حدة الازمة ، التي لبثت تتفاقم حتى خلو الشقق المؤجرة الى آلاف مؤلفة ، هذا فضلا عن مضاعفة ايجارها . وتركت الحكومة ملاك العمارات الجديدة يجرون على بيع الشقق لا تأجيرها ، ولم تحاول أن تصدر في ذلك قانونا مانعا أو معدلا ، وتركت الحكومة كذلك سائر الحرفيين من عمال البناء يهاجرون الى البلاد المختلفة للعمل فيها ، ولم يبق سوى القليل منهم حتى وصل أجر عامل البناء الى ثمانية وعشرة جنيهات في اليوم الواحد . وتحاول الحكومة أن تصل بالتفاوض مع عدة من الدول الاوربية الى حملها على أن تشارك في مساعدة مصر على حل هذه الازمة باصدارها قروضا طويلة الاجل تخصص لمشاريع البناء ، وقد استطاعت بالفعل أن تقنع عددا من الدول الاوربية الصديقة أن تشارك في هذه المحاولة ، والمقدر أن تنفيذ هذه الخطة التعاونية يقتضى على الأقل خمس سنوات ينشئ فيها عدد كبير من المساكن

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الجديدة ، التي تساعد على حل أزمة الاسكان . ولم تفتن الحكومة خلال هذا الاتجاه الى المعاونة الخارجية ، الى الناحية الداخلية من الازمة ، والى متابعة الاسباب المحلية في تفاقمها . وفي رأينا ان معالجة المشكلة من الناحية الداخلية هو أجدى من تلك المعاونة البعيدة المدى . وذلك أن أسباب أزمة الاسكان ترجع من الناحية الداخلية أولا الى عدم ملاءمة التشريع القائم الخاص بهذه المسألة ، أعني قانون الإيجار والمساكن وترجع بنوع أخص الى ما سلكته الحكومة منذ البداية من سياسة مطاردة رأس المال الخاص ، ووضع القيود على حرية التأجير ، مما زهد رأس المال الخاص في المشاركة في أعمال البناء ضنا بما يترتب على ذلك من التعرض لمفاجآت الحكومة ، من تخفيض الإيجارات فجأة ودون مبرر ، ووضع القيود المستمرة على حرية تصرفات المالك . ونحن نعرف أن سياسة الحكومة تجاه استثمار رأس المال الخاص والمشاريع الخاصة ، كان من أسباب احجامة أولا عن وضع ثقته في الحكومة واتجاهاتها ، وثانيا حرصه على عدم التعرض لمفاجآت تسبب له الخسارة أو الضياع . والحكومة ما تزال عاجزة عن كسب ثقة القطاع الخاص بسبب تصرفاتها السابقة التي تتسم كلها بمطاردة رأس المال ، وحرمانه من ضمان الحصول على أرباحه المشروعة فعلى الحكومة أولا ان تعدل قانون الإيجارات بما يتفق مع المبادئ . العادلة ، من اطلاق حرية الاستثمار في التأجير ، والغاء لجان تحديد الإيجارات ، والبعد عن سياسة مطاردة رأس المال الخاص ، ما دام يتصرف في حدود حقوقه وأرباحه المشروعة ، ولو وفقت

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الحكومة أخيراً إلى وضع سياسة جديدة لاستثمار رأس المال الخاص ، لهول أصحاب الأموال الخاصة إلى إقامة المساكن في كل أنحاء ، كما كان الأمر من قبل ، خصوصاً متى ضمنت لهم حرية التصرف والتأجير ، في الحدود المشروعة ، ولما كان ذلك أكبر العوامل في حل أزمة الإسكان وأسرعها ، وليس معاونة الدول الصديقة بقروضها وعلى الحكومة أن تعمل في ذلك إلى توفير الحرفيين من عمال البناء وغيرهم بمنعهم من السفر إلى الخارج إلا في حدود ضيقة ولأزمة محدودة .

أما عن مشكلة المواصلات فقد بذلت الحكومة في ذلك بعض الجهود ، وذلك باستيراد السيارات الكبيرة ، وتزويد الخطوط المختلفة بهذه السيارات ، وإنشاء خطوط جديدة طويلة ، في سائر الاتجاهات . ومع ذلك فإن هذه الجهود ليست كافية لحل المشكلة ، التي مازالت تبدو بنواحيها البشعة في أحياء وقطاعات عديدة . ويكفي أن نذكر فقط مترو حلوان الكهربائي ، وما يبدو من فظاعة زحامه المكتظ باستمرار ، وعرباته المهلهلة ، وحوادثه الخطيرة العديدة (١) .

وكذلك فإن الحكومة لم تفعل شيئاً لوضع حد للهجرة الريفية التي ما زالت تغزو العاصمة باستمرار ، وتزيد في عدد سكانها الضخم ، وتنافس سكان المدينة الكبرى في كل المرافق . وعلى الحكومة أن تتخذ في ذلك بعض

(١) سبق أن نبهنا إلى أن الاستاذ عنان فرغ من تأليف هذا الكتاب سنة ١٩٧٩ وقبل عمل مترو الأنفاق «كتاب الهلال» .

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

الاجراءات التي تحول دون وفود العناصر الفضولية ،
والخطرة على الامن العام ، وحماية العاصمة الكبيرة
منها ..

وأما قضية الغلاء والتضخم ، فأنا نستطيع أن نقول
بمنتهى الصراحة ان الحكومة لم تبد أى اهتمام ولا شعور
بهذه القضية ، وانها تترك الامور تجرى فى مجاريها ،
وتترك قيمة الجنيه المصرى تنحط باستمرار ، وأثمان
السلع ترتفع باستمرار دون أن تحرك ازاء ذلك ساكنا ،
أو تتخذ فى هذا السبيل أية اجراءات مالية أو ادارية
جادة تحدث اثرها فى وقف هذا التيار الجارف أو
تهديته . وهذا ما تفعله الآن سائر الدول لمعالجة مشاكلها
الاقتصادية .

المستقبل

ان مصر الخالدة لا بد أن تنهض باذن الله وعودته من
عشرتها ، ولا بد أن تجد في آخر الامر من بين أبنائها من
يقودها ويرشدها الى مصايرها العظمى ، ويكشف عنها
آثار كل المحن التي توالى عليها ، وردتها الى الوراء ،
وجعلتها تقاسى الحياة الكدرة فى سائر المجالات ، وحرمت
أبناءها الذين شغلهم تحصيل لقمة العيش عن التفكير
فى مصاير بلادهم ، وفيما تصبو اليه من المثل العليا
أن أبناء مصر ، مهما كان الانهيار المادى والمعنوى الذى
شمل كثرتهم الغالبة ، يجب أن يثقوا فى مصاير بلادهم
الخالدة ، التى استطاعت ، خلال تاريخها الطويل أن
تغالب كل محنة ، وأن تخرج من كل سقطة ، وأن تسترد
دائما ثباتها ومنعتها ، وأن تفوق من كبوتها . ان مصر
تجوز اليوم عصر محنة وانحطاط ، مادى ومعنوى ،
ولكنها لن تلبث أن تجوز هذه الحقبة المظلمة من تاريخها ،
الى حقبة منيرة مزدهرة ، هذا ما يعلمنا اياه تاريخ بلادنا ،
التى لم تستحق المحن ، مهما عظمت حيويتها الاصلية ،
وعزائمها الراسخة ، بل كانت دائما تصابر القمار ، ولن
تلبث حتى تخرج منها ، وتبدأ حياة جديدة ، ومصر الآن
فى عهد تصاير فيه القمار ، ولن تلبث أن تتقلب
عليها ، وأن تخرج منها رافعة الرأس ، مستشرة

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

القلوب . ان العناية الالهية التي حمت مصر ورعتها طوال هذه القرون العديدة ، وانتشلتها من كبواتها مرة بعد اخرى ، لخليقة بأن ترعاها في محنها الخاضرة ، وان تمد اليها يد الانتقاذ كما فعلت دائما . على ان ذلك كله يتوقف على قدر كبير مما تقوم به مصر نفسها ، ولا بد للجيل الحاضر مهما كانت بوادر عجزه وتخلفه ان يبتز في النهاية لعملية الانتقاذ التي تتطلبها بلاده ، وان يفعل المستحيل حتى يتاح له الفوز في ادائها .

هذا ما يشعر به كاتب هذه السطور ، وانه لشعور لا بد ان يخسالج كل مصرى اصيل يؤمن بحق بلاده ومصريها .

ومن الواضح انه لا بد ان تمضي فترة معقولة ، تستغرقها معالجة المشاكل والهموم المعيشية ، ثم يستطيع الشعب بعد ذلك ، ان يعنى بعد المهام الفرعية بالمهام الرئيسية التي يقتضيها التنظيم والبناء . وقد يقتضى ذلك جيلا آخر ، ولكن الجيل في حياة الامم لا يعد حقبة كبيرة ، متى شغلت مراحلها بالتجديد والتنظيم ، والسعى وراء كل ما يجلب الرخاء الى البلاد . ومتى حل اليسر والرخاء ، أصبحت عملية التنظيم والتجديد ممكنة وسهلة ، ومرغوب في اقتحامها وتحمل أعبائها . والعمل في ذلك يقوم على الاغلب على جهود الجيل القادم ، وليس على ايدى جيلنا ، الذي ثبت عقمه في كل مجهود ، وكل محاولة ، واكتفى بالعيش الرتيب في عسر ومشقة لا يجد بديلا عنهما في ظروفه القرونة بالشقاء والمعاناة .

ومتى انفتح باب العمل والتنظيم لهذا الجيل الجديد المنقذ ، فان مصر تعود فتبدأ مرحلة جديدة من النهوض

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

والأزدهار ، وتستطيع أن تنفض عن أكتافها عشرات الجيل
السابق ومتاعبه . ولقد شهدنا مثل هذا التطور عقب الثورة
العراقية وخراب البلاد في بداية عهد الاحتلال ، ثم شهدنا
عقب ثورة ١٩١٩ ، ولا بد أن نشهد مثيله بعد زوال
مشاكلنا في العهد الحاضر ، وبزوغ فجر الجيل الجديد
المنقذ . .

والله جلت قدرته يحفظ بلادنا ، ويمدها بروح من
عنده ، ويشملها بجميل عونه .

رقم الايداع : ٨٧/٨٩٣٨
الترقيم الدولي : ٢ - ٣٣٦ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

السيد / عبد المال بسيوني زغلول -
الكويت : الصفاة - ص. ب رقم ٢١٨٢٣

13079 - تليفون ٤٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٥٠ قرشا للقارىء في مصر

سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٧٠٠ ليرة ، الأردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ،
العراق ٢٥٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، الدوحة ١٠ ريالات ، دبي ١٠
دراهم ، أبوظبى ١٠ دراهم ، تونس ١٧٥٠ مليما ، مسقط ١ ريال ، المغرب ١٧
درهما ، غزة والضفة ١ دولار ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة